قصة التنوير والفكر المستنير

تأليف

محمد زكريا توفيق



0

مقدمة

هذه هي قصة التنوير والفكر المستنير، وسير أبطاله وفلاسفته العظام. كتبتها بأسلوب مبسط في صورة مقالات نشرت في عدة مواقع على الإنترنت على مدار عشر سنوات. الآن أضعها في كتاب بعد أن راجعتها ودعمتها بالصور والخرائط حتى تسهل قراءتها وفهمها.

أهمية فكر التنوير هي أنه الأسلوب الوحيد المتاح لنا، قديما أو حديثا، لتقدم الأمم وسعادة شعوبها. فما قامت حضارة، منذ بداية التاريخ، إلا كان وراءها تنوير وفكر مستنير.

مصر الفرعونية ظلت دولة عظمى أكثر من ثلاثة آلاف سنة. أشرق من وراء أفقها فجر الضمير الإنساني، وتعلمت البشرية من حضارتها الكثير. تعلمت الأخلاق والعلوم والفنون والفكر المستنير.

الإغريق أقاموا حضارة عظيمة، أنارت العالم القديم. أساس فكرهم المستنير هو الذي ينير العالم الآن.

مصر البطالمة، كانت دولة عظمى لمدة ثلاث مئة عام. عن طريق مكتبتها وعلمائها بالإسكندرية، نشرت التنوير وعلمت البشرية بفكرها المستنير الكثير.

المسلمون حملوا راية التنوير والفكر المستنير عندما انفتحوا على العلم القديم، واقتبسوا علوم الإغريق والفرس والهند والمصريين. إلى أن قفلوا باب الاجتهاد بالضبة والمفتاح. فخيم الظلام الدامس على عقل العربي وعقل المسلم إلى اليوم. أكثر من ألف عام من الظلام التام والتخلف والانحطاط الفكري، إلى أن نصل إلى داعش وأخواتها.

الرومان والأوربيون عندما خاصموا أرسطو وحاربوا العقل وحرّموا الفلسفة والعلوم والفنون، أغلقوا بذلك الأبواب والشبابيك، وأسدلوا على أنفسهم ستارا كثيفا، منع عنهم الضوء وجعلهم يعيشون في ظلام حالك. استمر أكثر من ألف عام، هي فترة العصور الوسطى.

إلى أن بدأوا من جديد يستفيدون من التنوير والفكر المستنير، عن طريق الاحتكاك بعلماء المسلمين بالأندلس وصقلية. قرأوا ترجماتهم واقتبسوا منهم فكر الإغريق وحضارتهم التي تمجد العقل والفن والأدب والمسرح والفلسفة وحرية الإنسان.

أهمية هذا الكتاب تأتي من أهمية كبار المفكريين الذين تعرض لسيرهم والتي ملأت أفكارهم العظيمة هذه الصفحات المتواضعة. إذا أردنا أن نحارب الإرهاب والأفكار الظلامية حقا، يجب نشر قصة التنوير والفكر المستنير كلما استطعنا إلى ذلك سبيلا. فلا يفل الفكر الظلامي إلا الفكر المستنير.

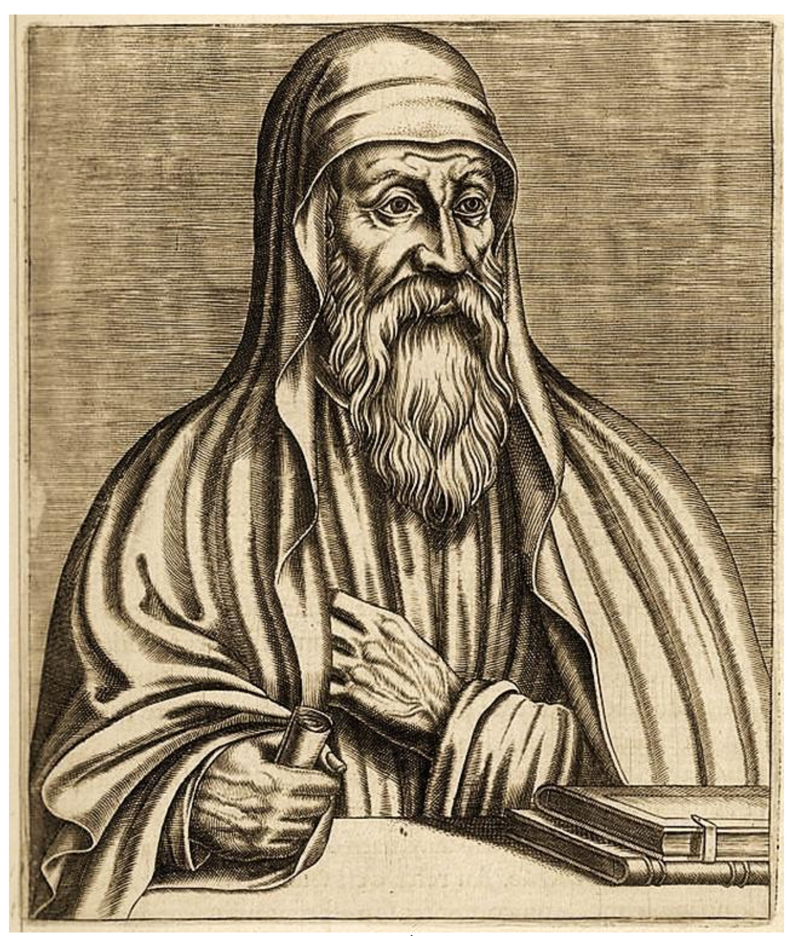
ما هذا الكتاب إلا محاولة متواضعة في هذا الاتجاه. فأرجو أن أكون قد وفقت، وأرجو أن تستمتعوا بقراءة صفحاته كما استمتعت بكتابه لكم.

شكرا لمروركم الكريم ولا حرمنا الله من أمثالكم.
محمد زكريا توفيق

1

العلامة أوريجانوس (185-254م)

كل عصر من عصور الإبداع، يظهر فيه أفراد، إنتاجهم الفكري الغزير يذهل عقل القارئ الحديث. من هؤلاء النوابغ، أوريجانوس. يقول إبيفانيوس إن أوريجانوس قام بتأليف ستة آلاف رسالة في اللاهوت المسيحي. ويقول عنه العلامة جيروم: "من منا يستطيع قراءة كل أعماله".



العلامة أوريجانوس

كان يوظف لديه سبعة إملائيين ودسته نساخ وخطاطين. صديقه أمبروس، كان يقوم بالعناية والإشراف على إنتاجه الفكري ونشر كتبه.

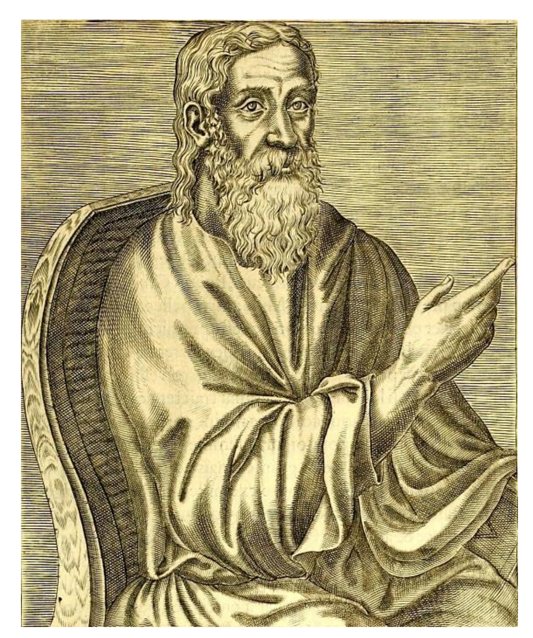
كان خليطا من "إتش جي ويلز"، "هاري إلمار بارنز" و"أدلوف هارناك". لم يكن أوريجانوس خصب الإنتاج فقط، لكنه كان من أعظم المفكرين الليبراليين الذين ظهروا في الألف سنة الأولى من تاريخ المسيحية.

تثقف في مدارس الإسكندرية وأنطاكية (مدينة على نهر العاصي تحت السيادة التركية حاليا). يمثل التيار العقلاني الغير متعصب عقائديا للتفسيرات المسيحية. يقف الآن كأحد ينابيع الفكر الليبرالي، حتى بمقايسنا الحديثة.



مدينة أنطاكية

ولد أوريجانوس في الإسكندرية عام 185م، وتتلمذ على يدي كليمينت الإسكندري في مدرسة اللاهوت بالمدينة. كان تعليمه يشمل دراسة العلوم والفلسفة إلى جانب اللاهوت. كان أوريجانوس يحفظ الكتاب المقدس عن ظهر قلب. لكنه كان حريصا على فهم أدبيات الإنجيل بعمق.


كليمينت الإسكندري



الامبراطور الروماني سيبتيموس سيفيروس

أثناء اضطهاد المسيحيين، في عهد الامبراطور الروماني سيبتيموس سيفيروس، قبض على والد أوريجانوس وأودع السجن.

كان عمر أوريجانوس 17 سنة في ذلك الوقت، وكان يرغب في أن يموت شهيدا مثل والده، لكن والدته منعته من مغادرة المنزل، وقامت بإخفاء كل ملابسه. فاكتفي بالكتابة إلى والده، كي يشد من أزره، وليدعوه للصمود والحفاظ على إيمانه.

موت والد أوريجانوس، ترك أرملته وسبعة أطفال بدون أملاك، بعد أن تم مصادرتها بأمر من الحاكم. أوريجانوس، الأكبر سنا، أعطي بيتا للسكن، هبة من سيدة ثرية من سيدات الإسكندرية، كانت قد تحولت إلى المسيحية حديثا.

قابل أوريجانوس العلامة بول الأنطاكي، الذي لم تعجبه أفكاره. فقد كان أوريجانوس يعتبر هذه الأفكار غير مسيحية وغير مقبولة. لذلك، تركه وقرر أن يعتمد على نفسه. ولكي يقيم أوده، كان يبيع ما يملك من مخطوطات ومراجع يونانية، كان قد نسخها بنفسه.

حصيلة بيع الكتب، أعطته شيئا من الاستقلال. في نفس الوقت، كان يقوم بالتدريس بالنهار والاستذكار بالليل. لم يمض وقت طويل قبل أن تذاع شهرته ويدرك الجميع مقدرته الفائقة على التدرس.

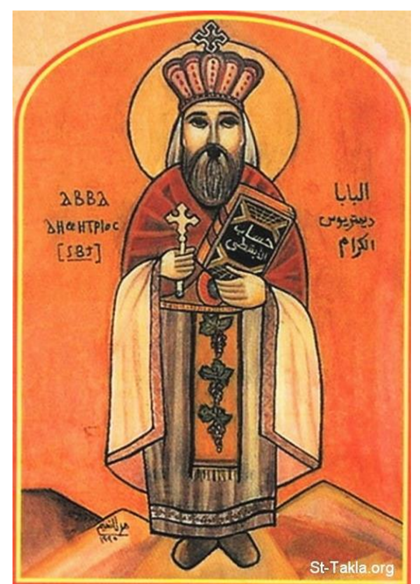
بدأ أوريجانوس كمدرس بلاغة. ثم أخذ في مهاجمة الديانة الوثنية والدعوة للمسيحية. الكثيرون المتحولون إلى المسيحية حديثا كانوا يأتون إليه لأخذ التعاليم. كان يصر على القول بأن الإيمان والعلم ليسا عدوين متناقضين. بل من الضروري للمسيحي الحق، أن يحوز تعليما ليبراليا.



الإيمان والعلم ليسا عدوين

كان يعبر باستمرار عن أسفه وحزنه على من تم اضطهادهم من المسيحيين، ويظهر إعجابه بمن نال منهم الشهادة. هذا بالطبع قد أغضب السلطات الوثنية. النتيجة، أنه كان يقذف بالحجارة ويهان في الأماكن العامة. ثم قامت السلطات بغلق مدرسة كليمينت التي كان يدرس بها، فاضطر للفرار.

الآن، عمره 18 سنة. بدأ يلفت الأنظار إليه، وبلغت شهرته الآفاق، حتى بين الوثنيين. مما جعل ديميتريوس، بابا الإسكندرية، يعينه رئيسا للمدرسة الشهيرة في المدينة.

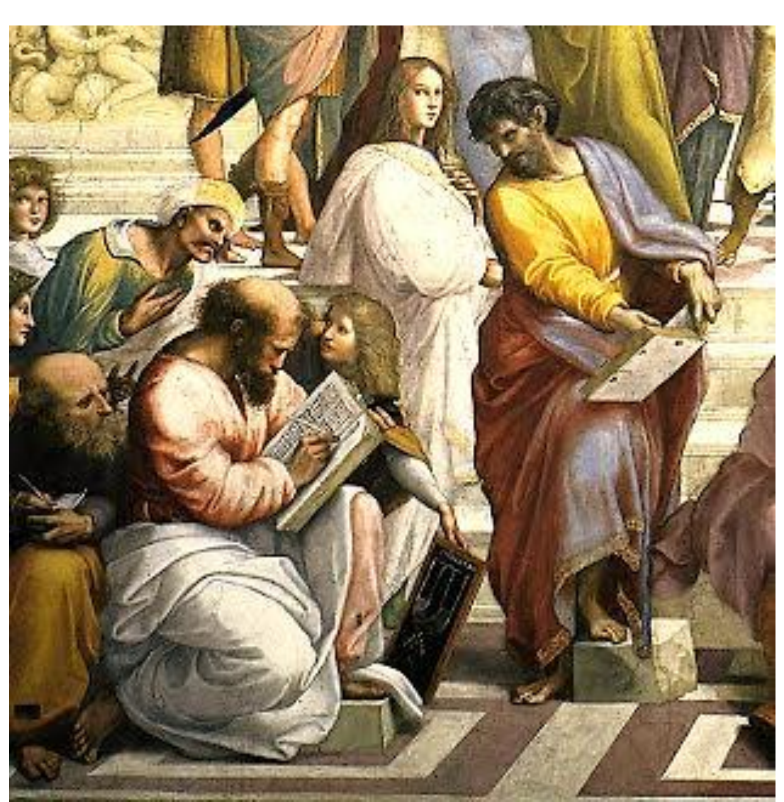


البابا ديميتريوس

بالرغم من الاضطهاد الديني والخطر الداهم المحدق بالمدرس الصغير، أثبت أوريجانوس أنه أهل للاحترام كرجل حكمة، غيور وماهر في العلوم الدينية. لم يكن يقبل أجرا من طلبته، بحجة أن ذلك يتعارض مع تعاليم الكتاب المقدس.

كان يبين في محاضراته أن الديانة المسيحية تتفق تماما مع العلوم والفلسفة. وكان يدرّس المنطق والهندسة والفلك والفلسفة، كمقدمة لدراسة التعاليم المسيحية والأخلاق.

يختلف أوريجانوس عن آباء الكنيسة المسيحية، في أنه كان يدرّس الأدب الإغريقي والفلسفة. لم يكن يشارك في تعصب أصحاب العقول الضيقة من المسيحيين، الذين يرفضون ويمنعون تدريس العلوم الوثنية، علوم الكفار.



كان أوريجانوس يدرّس الأدب الإغريقي والفلسفة

تحت تأثير تقشف الفلاسفة الرواقيين، والأفلاطونيين المحدثين، وقيام الصوامع المعزولة، أخذ أوريجانوس مبدأ التحكم في النفس إلى مداه. وكان حريصا على أن يكون فوق الشبهات.

وحيث أنه كان يخالط تلاميذه من الرجال والنساء، وجد أنه من الضروري أن يقوم بخصي نفسه. لكي يحمي نفسه من أية تهمة تمس نقاءه وشرفه. هذا أسلوب كان شائعا في القرن الثالث بالإسكندرية. لكنه أسف على ذلك لاحقا. واعترف أنه كان خطأ تقدير، جاء بهدف نبيل.

أول من تحول إلى الدين المسيحي على يدي أوريجانوس، هو أمبروس، أحد أثرياء الإسكندرية، الذي أصبح صديقه الوفي. هذه الصداقة، كانت السبب الرئيسي في غزارة إنتاج أوريجانوس الفكرية. الصديق الثري لم يقم بتشجيعه للدراسة فقط، لكن أمده أيضا بالأموال اللازمة لشراء المخطوطات، وساعده على نشر كتاباته وإنتاجه الفكري.

بمساعدة الصديق، وبتوظيف مساعدين مدربين له، دخل أوريجانوس الآن في مرحلة نشاط فكري يصعب تصديقها. كان لا يأكل ولا ينام إلا للضرورة. وبعد أن يُنهك كتبته بما يمليه عليهم أثناء النهار، كان يقضي المساء في مناقشة التفاسير مع الصديق الوفي أمبروس. لم تكن كتاباته بهدف النشر، بقدر ما كانت بهدف الدعوة للمسيحية.

تلقى أوريجانوس العديد من الطلبات لكي يقوم بالتدريس خارج مصر. أحدها جاء من حاكم عربي. ثم جاءته دعوة من جوليا مامّايا، أم الامبراطور ألكساندر سيفيروس، لزيارة أنطاكية، في صحبة حراسة عسكرية من الإسكندرية حتى أنطاكية.



الامبراطور ألكساندر سيفيروس

عند وصوله، تم استقباله بالقصر الامبراطوري. لكنه لم يمكث في أنطاكية مدة طويلة، عاد بعدها ثانية إلى الإسكندرية لكي يواصل عمله السابق.

أثاء اضطهاد الامبراطور كاراكالا للمسيحيين في الإسكندرية، بسبب مقتل أخيه عام 216م، داهم المدينة بجيشه الجرار، وقتل من أبنائها الآلاف.

الامبراطور كاراكالا

فقام أوريجانوس بالهرب إلى فلسطين. هناك، استقبله ألكساندر، أسقف القدس، وثيوكتيستوس، أسقف قيسارية.



قيسارية

قام الأسقفان بترتيب الإجراءات لكي يقوم أوريجانوس بإلقاء محاضراته في كنيستيهما، بالرغم من أنه لم يكن قد ترسّم أسقفا من قبل. مما أثار حفيظة البابا ديميتريوس، فأمره بالعودة إلى الإسكندرية. كان الاضطهاد الديني قد توقف هناك، فعاد أوريجانوس للتدريس بها.

في عام 228م، أُرسِل أورجانوس في بعثة إلى اليونان لتهدئة مسيحي أكايا، جنوب اليونان. الذين كانوا يرفضون المدرسين الملحدين.

أثناء مروره بقيسارية، ولكي يتجنب المزيد من المشاكل، سمح لأسقف قيسارية بترسيمه كاهنا. هذا أيضا، اعتبره ديميتريوس، بابا الإسكندرية، انتهاكا وتعديا على سلطاته، أضف إلى ذلك الغيرة والحسد. فقام البابا ديميتريوس بأخذ خطوات لمعاقبته وتجريده.

في نفس الوقت، وصل أوريجانوس إلى أثينا. هناك، ظهر أنه خطيب مفوه لا يقارن. أثناء عودته عن طريق إفيسوس، حضر مؤتمرا لاهوتيا بالمدينة، للمساعدة في حسم الخلافات العقائدية.

نجاحه في اليونان وآسيا الصغرى، جلب عليه المزيد من سخط البابا ديميتريوس. الذي جعل الحياة غير محتملة لأوريجانوس. عند عودته إلى الإسكندرية، لم يكن يستطيع أن يفعل شيئا سوى مغادرة المدينة.

قرر الذهاب إلى قيسارية. كان من شواهد عظمته، أنه غادر بدون أن يعترض على موقف الكنيسة منه. لم يحاول تكوين حزب معارض لمحاربة البابا ديميتريوس. لكنه فضل أن يضحي بنفسه، بدلا من أن يقوم بشئ يؤدي إلى انقسام الوحدة المسيحية.

دعى ديميتريوس إلى اجتماع للأساقفة، الذين قاموا بفصل أوريجانوس كمدرس وتجريده من رتبة كاهن. بزعم أنه قد تفوه بما يفهم منه، أنه مخالف لأصول العقيدة.

وفقا لما قاله القديس جيروم، كتابات أوريجانوس كانت فاسدة، وآراؤه كانت مشوهة حتى بمقاييس عصره. أما موضوع خصيه لنفسه، فبدأ يتداول في خطابات متبادلة بين الكنائس، وخصوصا كنائس روما.

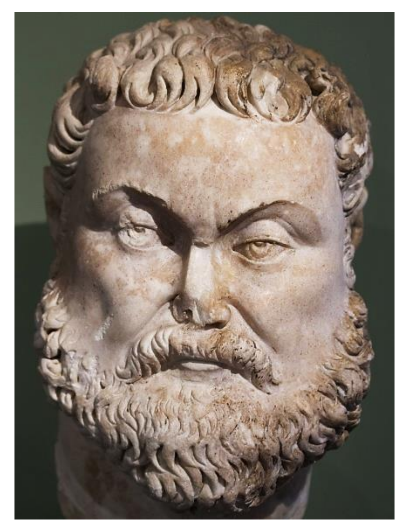
الأسقف الروماني، فابيان، كان عنيفا في تأنيبه، وصديقه هيراكلاس، قام بالتبرؤ منه. وكانت الشائعات تقول أنه مرتد ومهرطق. بينما التهمة الحقيقية الوحيدة التي كانت من الممكن أن توجه إليه، هي طريقة ترسيمه كاهنا بدون علم أساقفة الإسكندرية.


هيراكلاس بابا الإسكندرية

بعد سنة واحدة، توفي البابا ديميتريوس. خلفه هيراكلاس، بابا لكنيسة الإسكندرية. الذي وقف إلى جانب الأساقفة والكهان المصرون على طرد ونفي أوريجانوس.

نفي أوريجانوس إلى قيسارية، كانت له فائدة. هناك، كان في مركز الثقافة وقريبا من الأماكن التوراتية. وجد السلام الذي ينشده وسط أصدقائه ومحبيه. فقام بمواصلة العمل في التعليقات وتأليف كتابه الشهير، هكسابلا.

عاد للتدريس، وأنشأ مدرسة لاهوتية في قيسارية . أحد تلاميذه، كان جريجوري ثوماتورجيوس، الذي كان في زيارة قيسارية بالصدفة. بعد مقابلته لأوريجانوس، مكث خمس سنوات حتى يكمل دراسته اللاهوتية معه. في كتابه، بانيجيريك، أبدى جريجوري احتراما عظيما لأستاذه، العلامة والمسيحي الملتزم. هذا الكتاب، ساعدنا على تبين سحر شخصية أوريجانوس الغير عادية.

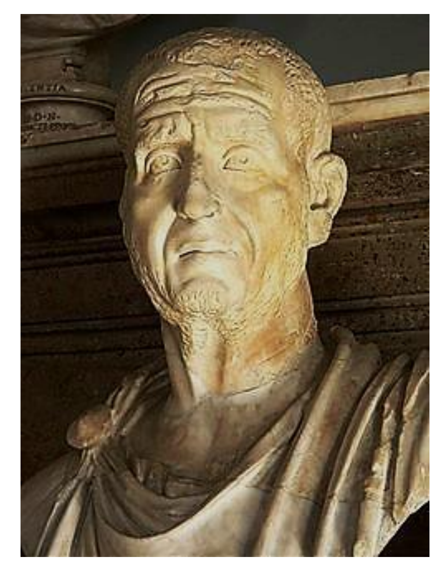


الحياة الهادئة المسالمة لأوريجانوس في قيسارية، فجأة بدأت تداهمها عواصف وأعاصير الاضطهاد الديني. هذه المرة على يدي الامبراطور البربري القاسي، ماكسيميان.

الامبراطور ماكسيميان

أثناء هذا الاضطهاد (235م)، عاش أوريجانوس متخفيا لمدة سنتين، في منزل سيدة مسيحية تدعى جوليانا. من حسن حظ أوريجانوس، كانت هذه السيدة وريثة لأعمال سيماخوس، الذي قام بترجمة العهد القديم إلى اليونانية. هذه المخطوطات، كانت في غاية الأهمية لأوريجانوس، ساعدته في التحضير لكتابه هيكسابلا.

توقف الاضطهاد الديني في قيسارية بعد مقتل الامبراطور الروماني، ماكسيميان عام 238م. من ثم، عاد أوريجانوس للتدريس والكتابة بصفة متواصلة، باستثناء فترات قصيرة، كان يزور فيها اليونان وبعض البلدان العربية.



سنواته الأخيرة، كانت مشوبة بالاضطهاد الديني تحت حكم الامبراطور الروماني ديكيوس. الذي كان أعنف وأقسى ممن سبقوه من الحكام الرومان.

الامبراطور ديكيوس

كانت التعليمات، هي القبض على كل المدرسين والموظفين والسادة المسيحيين. لم يستطع أوريجانوس الهرب هذه المرة.

من يوسابيوس، نعرف أنه قد ألقي به في قبو مظلم، ووضع حول رقبته طوق حديدي ثقيل بسلسلة. وكانت ساقاه تفصلان عن بعضهما وتثبتان على لوح خشبي لعدة أيام. وكان يهدد بالحرق حيا على المحك. لكنه كان يرفض الإذعان والردة عن الديانة المسيحية.

توقف هذا الاضطهاد الديني، بعد موت ديكيوس. بالرغم من أن أوريجانوس ظل حيا وأطلق سراحه، إلا أنه قد أصابه الهزال والاضمحلال بسبب معاناته وما لاقاه في السجن. عاش بعد ذلك ثلاث سنوات أخرى.

أثناء هذه المدة، قام بكتابة الرسائل وإكمال كتاباته الكهنوتية. كما أن موت صديقة الوفي أمبروس، جعله يقضي أيامه الأخيرة لا يجد قوت يومه. ثم مات أخيرا أوريجانوس عام 254م، في سن السبعين.

من ناحية سحر الشخصية وتنوع مواهبها، يعتبر أوريجانوس من أهم الشخصيات الجذابة التي عرفها التاريخ. استقلاله العقلي والفكري، أثار عليه حفيظة المتعصبين الأرثوذكس، مما حرمه من التطويب والتقديس. مثل معظم القديسين، فهم أيضا لم تعلن قداستهم رسميا من الكنيسة.

بسبب آرائه الليبرالية المتقدمة، لا يعترف به مؤرخي الكنيسة المسيحيون. ولا يعتبرونه مفكرا أو حتى مسيحيا حقيقيا. الآن، نستطيع أن نقيمه ونعطيه حق قدره بعيدا عن العواطف والتعصب.

كان لدي أوريجانوس توازن عقلي نادر. جعل ثقافته واتطلاعه الواسعين، لا يتعديان على جانبه الروحاني. منذ طفولته، إلى آخر لحظة من حياته، وهو يظهر عدم معرفته للخوف. موقفه النبيل من اضهاد البابا ديميتريوس والكنيسة المصرية له، ليس له مثيل حتى بين القدسين المسيحيين.

تحكمه الصارم في شهوات نفسه، وحياته المعصومة من الرزيلة، جعلته يختلف جذريا عن معظم القديسين، ومنهم القديس أوغسطين على سبيل المثال، بالرغم من شهرة

الأخير واسعة الانتشار. يبدو أن الاعتراف بالقداسة من قبل الكنيسة، كان لا يخضع لشروط وقواعد مثالية.

كان له اجتهاد وصبر العلماء، الذي بلغ منتهاه، كما هو واضح، في استخدام الكلمات والجمل بدقة شديدة. لديه كل الخصال الحميدة المطلوبة في الأستاذ المعلم. تلاميذه كانوا يعبدوه عبادة. يعرف كيف يوضح المسائل، وكيف يثير انتباه المستمع، وكيف يتحدى ذكاءه لكي يساعده على إطلاق خياله.

من كتاب جريجوري المذكور سابقا، نعرف شيئا عن شخصيته الجذابة وقدرته على إلهام تلاميذه ومستمعيه. "كان يحفزنا بأعماله أكثر من أقواله وتعاليمه." نقده وأحكامه، كانت تولد الطاقة والمعرفة، التي ليس لها مثيل بين المفكرين المسيحيين قبل إراسموس.

إراسموس فقط هو الذي كان يعادله في الثقافة والمعرفة.



إراسموس

لكن معظم مفكري عصر النهضة، كانوا يفتقدون سخاء أوريجانوس العاطفي وغزارته العقلية. لذلك، نجد أنه من المؤسف حقا، أن مثل هذا الرجل الكامل والشخصية العظيمة، لا يتبوأ مكانه الذي يستحقه في تاريخ مصر وتاريخ الكنيسة المصرية. بدلا من كونه مجرد اسم عابر لا يلتفت إليه أحد.

لكن ما هي أعماله وأفكاره، التي كانت السبب في اضطهاد رجال الكنيسة له؟

لا نعرف عبقريا أو نبيا، ليس ابنا لبيئته وعصره. ولا يوجد مفكر أو فيلسوف، استطاع تحرير نفسه بالكامل من الأيديولوجيات والأفكار التي كانت سائده في زمانه. هذا ينطبق أيضا على أوريجانوس، الفيلسوف والعلامة المصري ابن الإسكندرية.

هو يعتبر الكتاب المقدس، كتاب سماوي نزل من عند الله.



الكتاب المقدس كتاب سماوي من عند الله

لكنه كون عقيدته وأفكاره، عن طريق الفهم لآياته. لقد استخدم التأويل والاستعارة في شرح الفقرات الغامضة. وكان لا يؤمن بالمعجزات. كان يستخدم التأويل والرمز لكي يصل إلى عمق معنى الكتاب المقدس. لكن التأويل وحده لا يكفي.

كما هو الحال، بالنسبة للقرن التاسع عشر، استخدام التأويل والحكايات الرمزية، كان هو الأسلوب الأمثل لتقبل المعجزات، التي لا يقرها العقل النقدي، والتي تتعارض مع العلوم والمنطق. تأثرة بالغنوصية والأفلاطونية المثالية، جعلته يميل إلى التفسيرات الصوفية.

هذه هي الوسيلة الوحيدة لتقبل قصص الإنجيل، التي لم يكن قبولها حرفيا ممكنا. وجهة النظر هذه، تفترض مهارة وذكاء غير عادي في فهم العهدين، القديم والجديد. استخدام التأويل لمحاربة الهرطقة، كانت أيضا وسيلة أوريجانوس، لوقف انتشار تدريس الخرافات على نطاق واسع، بحجة أنها تساعد على بقاء العقيدة، وتزيد من إيمان معتنقيها.

استخدام التأويل والاستعارة، كما يقول دين إنجي، لم تكن فقط وسيلة أوريجانوس للدفاع عن العقيدة، ولكنها كانت سلاحه في نشر حرية الفكر. لقد كانت تفسيراته

للكتاب المقدس، علمية أكثر من تفسيرات المصلحين الليبراليين الذين أتوا بعده. لأنه كان يرفض التفسير الحرفي للكتاب المقدس.

هذه هي آفة العالم الإسلامي اليوم، التفسير الحرفي للقرآن والأحاديث. لو استخدمنا الاستعارة والتأويل في تفسير قصة آدم وحواء، على سبيل المثال، لما تعارض الإنجيل والقرآن مع العلم الحديث وانتهي الأمر. لكن التفسير الحرفي، سيجعل الكتب المقدسة دائما في تعارض مع العلم والمنطق. ومن ثم، ظهور أمثال داعش وأخواتها، التي لا عقل لها ولا أخلاق أو ضمير.

بالرغم من أن أوريجانوس كان يعتمد جزئيا على معتقدات عصره، إلا أن خلافه معها كان يغلب موافقته لها. من ثم، كان مفكرا تقدميا حديثا كل الحداثة. كأن القدماء قد سرقوا قبسا من الحداثة، أو نحن الذين قد سرقناه منهم.

هذه الحداثة التي نتحدث عنها، بالنسبة لأوريجانوس، سوف نقابلها أولا في تفسيراته وإيضاحاته، التي تعتبر باكورة النقد الأدبي بمفهومه الحديث. أما مساهمته الكبرى في هذا المجال، فهي كتابه هيكسابلا.

السبعينية، وهي الترجمة اليونانية للعهد القديم، أصبحت دقتها موضوع جدل بين اليهود والمسيحيين.



السبعينية أصبحت دقتها موضوع جدل

كان اليهود يعتبرونها غير صحيحة، ويكتفون بالنسخة العبرية فقط. ثم بدا واضحا لأوريجانوس، أن صيغتها الحالية لا يمكن الاعتماد عليها، بسبب العجلة ودوافع التحريف والأخطاء التي كانت تعتري النساخين.

لذلك قرر أوريجانوس أن يقوم بنفسه بترميم وإصلاح نسخة السبعينية، وإرجاعها إلى أصلها، والتعليق عليها. هذا العمل، أخذ منه 28 عاما من الجهد المتواصل. مثال للدقة المتناهية والصبر على أداء الأعمال العملاقة. وكما قال البروفيسور فيرويزار: "ربما لا يوجد في عالم الدراسات الأكاديمية، ما يمكن مضاهاته بهذا العمل الجبار".

كان هدف أوريجانوس هو تنقية كتاب السبعينية وجعله موضع ثقة، يمكن الاعتماد عليه أكثر من أي شئ آخر. حتى يمكن مضاهاته ومقارنته بنسخة اليهود.

لكي يكمل هذا العمل، قام بجمع كل نسخ السبعينية. هذه النسخ، أثبتت أن بينها خلافات، لا أمل في التقارب بينها وإصلاحها. النسخة العبرية نفسها، كانت طافحة بالدس والإقحام والإضافات والأخطاء.



نسخة حديثة من السبعينية

معرفة ما هو الأصل وما هو المفحم والمضاف، كان من الأمور المستحيلة. لكن أوريجانوس كان مقتنعا بأن الدراسة المقارنة لهذه النسخ اليونانية مع الأصل العبري، يمكن أن تؤدي إلى نتيجة عظيمة، على الأقل، نتيجة أفضل من كل النسخ الموجودة.

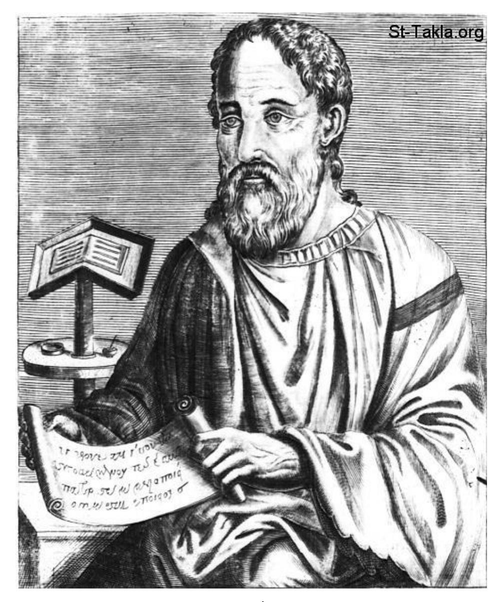
تنقيح أوريجانوس للعهد القديم، يسمى "هيكسابلا". لأن كل صفحة فيه مكونة من ستة أعمدة متوازية: العمود الأول الأصل العبري بالحروف العبرية، ثم الأصل بالحروف اليونانية، ثم ترجمة أكويلا اليونانية للأصل، ثم ترجمة سيماخوس، ثم السبعينية، وأخيرا نسخة ثيودوشن.



نسخة حديثة من هيكسابلا أويجانوس

التباين والخلافات بين هذه النصوص، كانت تبين في الهوامش. الشروحات، كما كان يقدمها في مدرسة الإسكندرية وفي مدرسة قيسارية. تفسير الآيات، دقيق مستفيض بلغة راقية.

الهيكسابلا، كان يستخدمها يوسابيوس، أسقف قيسارية، والقديس جيروم بن يوسابيوس. النسخة الأصلية، فقدت عندما دخل العرب قيسارية عام 653م، وقاموا بتدمير المدينة. وكأن حرق الكتب شيمة من شيمات الثقافة العربية.



يوسابيوس أسقف قيسارية

عندما احتل العرب بلاد الفرس، ووجدوا فيها كتبا كثيرة، كتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب، ليستأذنه في شأنها وتلقينها للمسلمين. فكتب إليه عمر أن اطرحوها في الماء. إن يكن ما فيها هدى فقد هدانا الله بأهدى منه، وإن يكن ضلالا، فقد كفانا الله. فطرحوها في الماء أو في النار، وذهبت علوم الفرس فيها، بدلا من أن تصل إلينا.

ألم تحرق مكتبة الإسكندرية؟ حيث جعلت كتبها العامرة وقودا للحمامات لأربع سنوات كاملة، ربما لنفس السبب.

لأن حرق الكتب والمكتبات كانت سنّة غير حميدة. سار عليها إثنان من الخلفاء الراشدين. فقد أحرق عمر بن الخطاب صُحُفا جُمعت فيها أحاديث الرسول، على ما ذكره ابن سعد في الطبقات الكبرى.

بعده، أحرق عثمان المصاحف الستّة الأخرى، فيما يروي المفسرون والإخباريون. بينها مصحف أبيّ بن كعب وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وعليّ بن أبي طالب... إلخ.


ابن حزم الأندلسي

ألم يحرق فقهاء "الجنة الضائعة" مكتبة ابن رشد، ومن قبله مكتبة ابن حزم الأندلسي، الذي أضحت مكتبته في ذلك العصر من بين أضخم المكتبات الخاصة في الأندلس؟


عادة حرق الكتب في تاريخنا الثقافي والديني

ألم يحرق البرلمان المصري في سبعينات القرن الماضي ألف ليلة وليلة؟

ألم يحرق آية الله أحمد جنتي مئات الكتب التي سمحت رقابة الدولة الدينية الإيرانية الصارمة بنشرها، وأحرق دور النشر التي أصدرتها؟

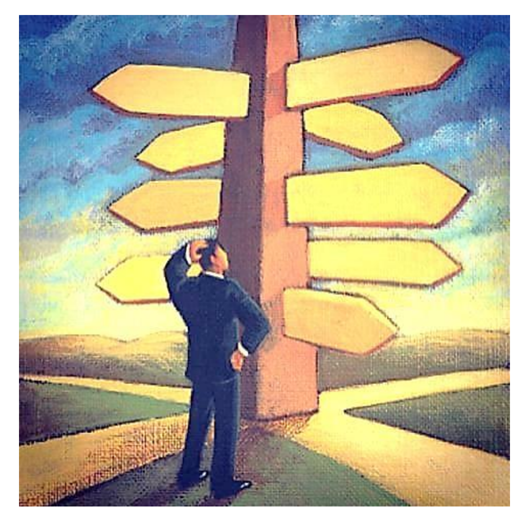
شروح أوريجانوس شملت العهدين، القديم والجديد. لم يبق إلا القليل منها باللغة اليونانية. لكن الكثير من تعليقاته، وجدت باللغة اللاتينية في ترجمات جيروم وروفينوس.

كان تفسير أوريجانوس يعتبر المرجع الأول، الذي يرجع إليه باقي المفسرين. حتى المفسرين المحدثين، يعترفون بفضله والاقتباس من أعماله. معرفته باللغة اليونانية واتقانه لمفرداتها وقواعدها، ليس له مثيل في زمانه.

أهم تعليقاته، هي الخاصة بالأناجيل: الرابع، ومتى، ورسالة إلى الرومان. يبدأ كل منها بمقدمة، ثم شروح ونقد تحليلي لآياته. تخاطب العقل، لا العاطفة. تثبت أن أوريجانوس، هو أعظم الوعاظ الذين عرفهم العالم القديم.

الفضل يرجع ل "روفينوس"، في حفظ كتاب أوريجانوس، "على الأساسيات". وهو كتاب يبين عقيدة أوريجانوس المسيحية والفلسفية. الكتاب يبين بوضوح وإصرار، حرية إرادة الإنسان.

أي أن، الإنسان مخير، لا مسير. وهي القضية التي أدمت قلوب المسلمين وقتلت منهم عشرات الألوف، وقضت على فكر المعتزلة وفلسفة إعمال العقل، وقفلت باب الاجتهاد في وجوهنا.



الإنسان مخير لا مسير

الإنسان، كما يقول أوريجانوس، لديه القدرة على الخيار بين الخير والشر. وهو اختيار بأن تكون: إما ربانيا، وإما إنسانا ملوما فاشلا. مثل إرميا، أحد أنبياء بني إسرائيل، الذي يرى قدرات الإنسان مستقله عن بيئته، ومثل حزيقال، الذي يقول بمسؤولية الإنسان عن أعماله.



النبي حزيقال، الإنسان مسئول عن أفعاله

كان أوريجانوس يعارض العقيدة المسيحية التي تقول، بأن الخطيئة وفساد الإنسان، تورث للأبناء والأحفاد. وكان يدعو أثناء دروسه، بأن هذا الإنسان، بالرغم من قوى الشر المحيطة به، يستطيع أن يعلو ويسمو إلى مرتبة ربانية.

يجب أن لا ننسى أن أوريجانوس كان أفلاطوني الفكر. يرى الله كروح وضياء ومصدر لكل العقول. روح صافية بدون جسد. لا يجب تصوره كشئ فيزيائي. هو ليس بجسد، ولا يجب أن يوضع في جسد. هو ببساطة عقل أبدي.



الله عند أوريجانوس روح وضياء

لقد سبق أوريجانوس الفيلسوف إسبينوزا، الذي يرى أنه لا يوجد إلا جوهر واحد لانهائي هو الله. العالم من حولنا نراه في صور مختلفة. المنازل والمفروشات والناس والحيوانات وهكذا.

لكن هذه الصور، ما هي إلا تموجات وتذبذبات في الزمان والمكان، تأتي من الجوهر اللانهائي، وهو الله. أي أن الله والكون هما شئ واحد. هذا ما يعرف بوحدة الوجود.



إسبينوزا، الله والكون شئ واحد

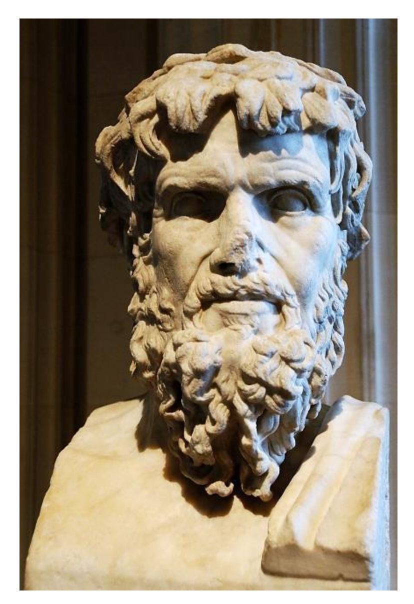
يقول إسبينوزا: إذا كان وجود الله لا نهائي، فالعالم لا يمكن أن يكون منفصلا عنه. وإلا كانت هناك أزمنة وأماكن لا يوجد بها الله. في هذه الحالة، سوف يكون الله محدودا في الوجود والقدرة.

يرى إسبينوزا أيضا، أن العقل والمادة هما شئ واحد. كلاهما صور مختلفة من صور الله. وهو هنا يرفض ثنائية ديكارت في تقسيم الأشياء إلى عقل ومادة، جسد وروح. جوهر الأشياء شئ واحد لا ثاني له. العلوم الحديثة تقول، إن المادة والطاقة هما شئ واحد.

يقول أوريجانوس أيضا، على خلاف ما جاء بالكتاب المقدس، أن الله رحيم، لا يعاقب مخلوقاته. الخطيئة، من نفسها تعاقب مقترفها. أي أن المكر السيء يحيق بأهله. كما أن الله، عند أوريجانوس، قد ألزم نفسه بالحب والحكمة، ولا يمكن أن يخالف القوانين التي وضعها بنفسه.

عقيدة الثالوث، في بداية القرن الثالث الميلادي، كانت تسبب الكثير من المتاعب للديانة المسيحية. بينما كان أوريجانوس يؤمن بلاهوت الثالوث، إلا أنه كان يصر على خضوع الإبن إلى أبيه، وحلوله منزلة أقل من منزلة الأب. هذه الأفكار، أدت إلى ظهور الآريوسية في القرن التالي.

أعمال أوريجانوس العظيمة التي دافع فيها عن المسيحية، هي بعنوان "ضد سيلسوس". سيلسوس، هو فيلسوف وثني، يتقن اللغة اليونانية ودارس جيد للديانة المسيحية.



سيلسوس

قام بمهاجمة المسيحية في كتابه "الحديث الصحيح". وكانت حجج الكتاب قوية. من يفحص الكتاب بتمعن، يكتشف أن ما جاء به، لا يبعد كثيرا عن عقيدة أورجانوس.

بالرغم من أن كلاهما، أفلاطوني المشرب، بمعنى أن كلاهما يستخدم نفس المقدمات الميتافيزيقية، إلا أن النتائج الأخلاقية، جاءت متعارضة في الكتابين. سيلسوس يتهم ويشجب المسيحية والمسيح بشدة. فيجيبه أوريجانوس بما هو أكمل دفاع عن المسيحية عرفته الكنيسة القديمة.

بالمقارنة بعقائد القرن الرابع الميلادي، يعتبر أوريجانوس ليبرالي. لكن بالمقارنة بسيلسوس، يبدو محافظا، هذا شئ طبيعي. أصحاب حقوق الإنسان في القرن العشرين، ربما يجدون أفكارهم أقرب إلى الوثني سيلسوس، منها إلى المسيحي أوريجانوس.

لقد ذكرت سابقا أن أوريجانوس ابن عصره. عقيدته كانت في خط مع الإيمان العام. الغريب أن تصدر عنه تعبيرات إبداعية غير مسبوقة. هنا يتفوق على كل معاصريه.

لكن بسبب هذه الإبداعات، رفض روفينوس ترجمة كتبه التي بها هذه الإبداعات إلى اللاتينية، قبل أن يحذفها، خوفا من أن يتهم أوريجانوس بالهرطقة.

أوريجانوس، هو أول لاهوتي يستخدم الأسلوب العلمي. وكما يقول ويليام فيرويزار، "داخل العقيدة المسيحية، هو الأول. وهو الوحيد المستقل الفكر والبنّاء" لقد كان بمثابة نقطة تحول في تاريخ فكر الكنيسة القديمة.

يقول عنه هارناك، "اللاهوت الأرثوذكسي، لم يتقدم قط خارج الدائرة التي رسمها عقل أوريجانوس. لقد اتهمته الكنيسة، وصححت كتابات مؤسسها. وكانت تظن أنها تستطيع حذف أفكاره الإبداعية، كأنها حواشي جاءت بالصدفة"

لقد كانت التربة ممهدة بكتابات فيلو باللغة اليونانية. وكان هدف أوريجانوس هو بذر حبوب الثقافة الهيلينية في الأرض الصالحة للزراعة. لكي يجعل الفكر الفلسفي المسيحي، يقف في وجه الغنوصية. وأيضا، لكي يدمج هذا الفكر مع الفلسفة الإغريقية.

الغنوصية أو العرفانية تقول بأن المعرفة والتنوير والحكمة والتوحد مع الله تأتي من خلال فعل الخير والزهد والتبتل والخشوع. العالم المادي المرتبط بالزمن، هو عالم زائل فاني. أما عالم الله السماوي العلوي فهو عالم أزلي يسمو بالروح إلى الكمال.

سيرا على خطى أستاذه، كليمنت، وجد أوريجانوس أنه من الضروري أن يجد فلسفة تصلح للمسيحية، تشبع الحاجة العقلية في ذلك الوقت. لاهوت يتناغم مع الحضارة الإغريقية والروح العلمية. ترتاليان، على العكس، كان يعارض بشدة الانفتاح على الحضارة الإغريقية.

كليمنت، أراد أن يطعم المسيحية بروح أفلاطون. لقد رأي الفلسفة الإغريقية، كتمهيد لفهم الإنجيل. أوريجانوس ذهب أبعد من ذلك، في تأييد استخدام العقل وقبول النقد والاستفادة من الحضارة اليونانية.

مثل إسبينوزا، كان أوريجانوس لا يقبل أي شئ يتعارض مع العقل. بعكس ترتاليان، الذي كان يؤمن إيمانا أعمى، وكان يقول: "أنا أومن، بغير المعقول".



أوغسطين

أما أوغسطين، فكان يقول: "لن أومن بالإنجيل، إن لم تجبرني الكنيسة الكاثوليكية على ذلك".

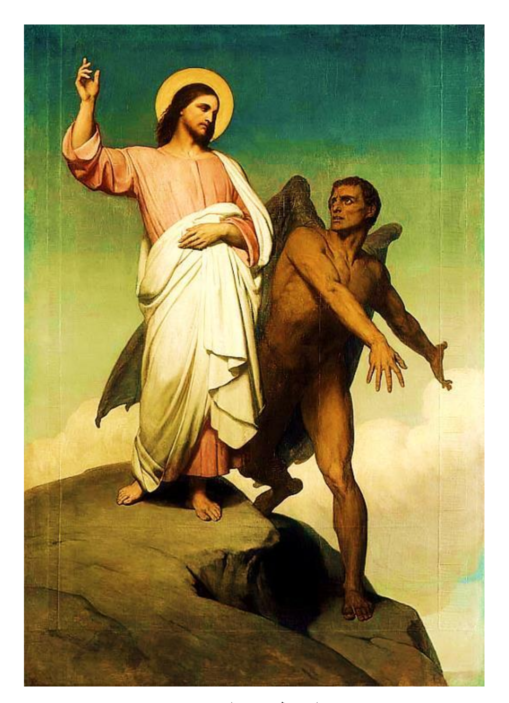
لقد كان إيمان أوريجانوس، إيمان بروتستانتي. يشبه إيمان مارتن لوثر، ولكن يضيف إليه: "إن الإيمان وحده غير كاف، بدون أن يقترن بالسلوك الأخلاقي. هذه هي تعاليم المسيح الحقة."

الأخلاق عند أوريجانوس، ليست مجرد نظريات جافة، لكن لها تطبيقاتها العملية التي مارسها على حياته الخاصة، والتي كانت صافية لا يشوبها حتى اللوم. كتب هارناك يقول: "هناك آباء قليلون للكنيسة، حياتهم توصف بالنقاء مثل حياة أوريجانوس"

مؤرخ آخر عظيم، موشيم، الذي اخترق ضباب الكنيسة الأرثوذكسية ، لكي يرى عظمة وصلاح أوريجانوس. كتب لنا يقول: "بالتأكيد، إذا كان هناك من يستحق أن يكون في مقدمة القديسين والشهداء، لكي يذكر ويعاد تكريمه كل عام. كمثال يقتدي به كل مسيحي، هذا الرجل، إذا استثنينا المسيح وحوارييه، هو أوريجانوس. فأنا لا أرى من بين القديسين، من يعلوه علما وخلقا وقداسة."

في تعليقاته وشرحه للكتاب المقدس، يبين لنا مدى ليبراليته بالمفهوم الحديث. في رفضه التفسير الحرفي للإنجيل يقول: "أي إنسان مدرك، يقبل وجود اليوم الأول والثاني والثالث، والمساء والصباح، بدون شمس وقمر ونجوم؟ أو أن الله قد مشى في الجنة في المساء، وأن آدم نفسه قد اختبأ من الله تحت شجرة؟

أو أن الشيطان أصعد المسيح إلى جبل عال، لكي يرى بنفسه ممالك الفرس والسكثيون والهند؟"



الشيطان والمسيح

وكتب أيضا، هناك بعض الفقرات، ليست صحيحة حرفيا، وهي أيضا كلام فارغ ومستحيلة".

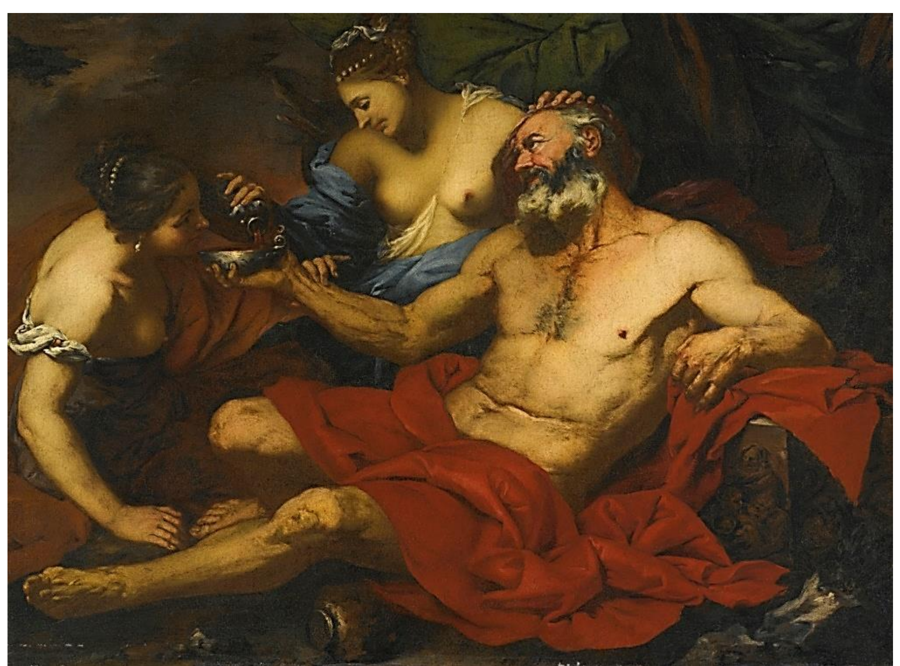
بالنسبة لما يعرف بشريعة موسى، كتب يقول، "أنا أستحي من قول إن الله قد أعطى مثل هذه القوانين. التي هي أدنى منزلة من تشريعات الإنسان"

لقد ثار أوريجانوس ضد تجسيم العهد القديم. وكان يعتبر حكاياته، مثل رؤية موسى الله، بأنها حواديت عجائز النساء.

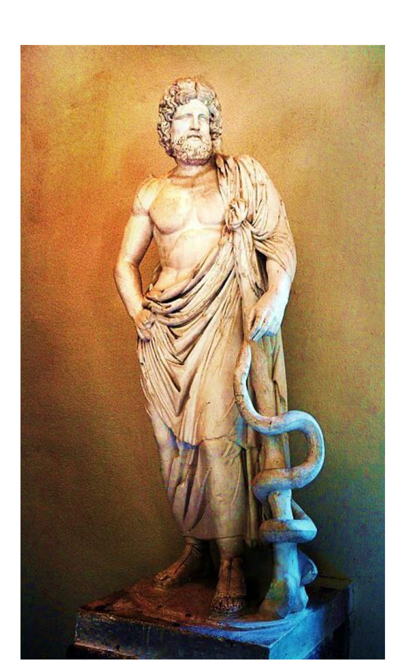


رؤية موسى الله

وكان ينصح بعدم قراءة حكايات، مثل حكاية وطئ لوط لبناته، وفعل إبراهيم الفاحش، وعشق يعقوب". يرى أيضا، أن وصية الإنجيل في سفر التكوين (17:14)، التي تفرض الختان على الأبناء، هو عمل بربري.


النبي لوط وبناته للرسام جيوفاني باتيستا

أما شروحة للعهد الجديد، فهي متقدمة بشكل ملحوظ. فقد أشار إلى التباين والتعارض بين الأناجيل. وقد كان من الأوائل الذين لم يتأثروا باليهودية والزرادشتية، في إيمانها بالآخرة. بالنسبة لأوريجانوس، وكذلك بولس، الخلود هو استمرار روحي وليس بعثا للجسد.


إله الطب أسكليبيوس

المعجزة، تأتي في المرتبة الثانية، وربما ليس لها أهمية عند أوريجانوس. فهو هنا يقول: "حتى لو فرضنا وجود جان اسمه أسكليبيوس، له مقدرة على شفاء الأبدان، أو يستطيع أن يتنبأ بالمستقبل.

مثل هذه القدرة في حد ذاتها، ليست بالخيرة أو الشريرة. لا يعني هذا أن الطبيب أو العراف، لا بد أن يكون رجلا صالحا وأمينا. القدرة على الشفاء، لا تعني شيئا ربانيا."

رأيه في الخلاص والأسرار السبعة، تختلف عن رأي أوغسطين فيما بعد. الأسرار عند أوريجانوس، ليس لها فعل السحر. ويأسف لأن "ليس كل من تعمد بالماء، يكون على الفور قد تعمد بالروح القدس." الناس تنجو أرواحها بالحياة الروحانية، وليس بالطقوس المقدسة ورش الماء."

أوريجانوس، العلامة الفيلسوف المصري ابن الإسكندرية، بات رجل المسيحية المنسي. لقد أصبح منسيا، لأن الكنيسة الأرثوذكسية منعت تدريس أفكاره، ونعتته هرطيقا.

إذا اتبعت المسيحية تعاليم أوريجانوس، بدلا من تعاليم أوغسطين، التعاليم الهيلينية بدلا من التعاليم الأفريقية، ولو اتبع المسلمون ابن رشد بدلا من الغزالي، لأصبحوا أكثر حرية وليبرالية وأقل عبودية للسلطة الدينية والسياسية. أكثر روحانية وقدرة على التفكير، وأقل بلادة وجمود فكر. أكثر انتقائية، وأقل جمودا وتعصبا.

في عام 313م، أصدر الامبراطور الروماني قسطنطين، مرسوما امبراطوريا بمقتضاه، انتشرت الكنائس المسيحية، التي تخلصت من أفكار أوريجانوس، وتمسكت بالطقوس والرسميات المتكلفة.

معارضة أوريجانوس كانت بسبب الجدل الدائر في ذلك الوقت بين أتباع الأريوسية الذين يعتبرونه منهم، وبين أتباع البيلاجيانية والنسطورية. مما جعل رجال الكنيسة الأرثوذكسية تتكاتف ضد أوريجانوس.



أريوس

الأريوسية مذهب مسيحي ظهر في القرن الرابع على يد الكاهن السكندري أريوس. الأريوسية لا تعترف بألوهية المسيح. منهم شهود يهوة.



الراهب بيلاجيوس

البيلاجيانية هي نظرية لاهوتية يعود اسمها إلى الراهب بيلاجيوس (354 - 420 م). تقول بأن الخطيئة الأصلية لم تؤثر على الطبيعة البشرية وأن إرادة الإنسان لا تزال قادرة على الاختيار بين الخير والشر بدون مساعدة إلهية خاصة .

النسطورية مذهب مسيحي يقول بأن يسوع المسيح مكون من شخصين ، إلهي هو الكلمة وإنساني هو يسوع. العذراء مريم لم تلد إلها، بل إنسانا حلت عليه كلمة الله أثناء العماد وفارقته عند الصليب.


مارتن لوثر

الأسقف ثيوفيلوس السكندري، في القرن الرابع الميلادي، كان يشارك في إدانة أوريجانوس. وكذلك مارتن لوثر في القرن السادس عشر. الذي كان يتساءل: "أليس مصيره العذاب الأبدي، بسبب عصيانه؟"



بيكو ديلا ميراندولا

لكن بيكو ديلا ميراندولا، عالم الإنسانيات العظيم، قد أصابه اللوم بسبب دفاعه عن أوريجانوس وقوله: "إنه يعتقد أن أوريجانوس قد نجت روحه وأنقذت."

منذ القرن السابع، وأوريجانوس يلام بآباء الكنيسة. إلا أن، القليل من الرجال في تاريخ المسيحية، هم الذين يوصفون بالخصال الرفيعة، التي تشبه خصال أوريجانوس.

جيروم يصف أوريجانوس بأنه أعظم أساتذة المسيحية بعد الحواريين. وبعد ذلك بخمسة عشر قرنا، يكرمه أسقف وستكوت قائلا: "حياته، صلاة لا تنقطع".

القديس جيروم

الكاهن فارار، قال عنه: "في تاريخ الكنيسة القديمة، لا يوجد من هو أنبل من أوريجانوس أو أعظم منه". قليل من الرجال، هم الذين قدموا مثل هذه الخدمات الجليلة للمسيحية. الذين من طفولتهم إلى شيخوختهم، عاشوا حياة الطهر والنقاء.

أوريجانوس، قديس ليس له مثيل، ملعون لقرون عديدة من الكنيسة. ضحية الجهل والغباء والتعصب، من أناس أقل شأنا. لا يقارنون به في علمه وثقافته ونقائه وإخلاصه لعقيدته.

يجب علينا إعادة تقييم الماضي. التاريخ المسيحي والإسلامي. يجب أن نجد تعريف جديد لمعنى عظمة الرجال. يجب أن نتخيل ما قد تكون عليه المسيحية والإسلام اليوم، لو اتبعا أوريجانوس وابن رشد أو المعتزلة. لا أن نحكم فقط على الأمور في ضوء ما قد حدث بالفعل.

إلى من يفضلون الروح الإغريقة على الروح الرومانية، أوريجانوس يجب أن يتوج بالفخار كقديس. فقد كان أول مسيحي ليبرالي.

أوريجانوس هو أول الليبراليين وأعظمهم على الإطلاق. محاربة الكنيسة المصرية لأوريجانوس، وقفل باب الاجتهاد، هو الذي شطر الكنيسة المصرية وحولها إلى طقوس وعبادات.

كذلك محاربة رجال الدين الإسلامي لفكر المعتزلة، وقفلهم باب الاجتهاد بالضبة والمفتاح إلى اليوم. النتيجة، داعش وأخواتها والانحطاط الفكري والإنساني الذي نحن فيه.

2

إراسموس (1466-1536م)

أيهما الأصوب: الثورة أم الإصلاح؟ "مارتن لوثر" أم "إراسموس"؟ الإجابة، بالطبع، تتوقف على ثقافة القاضي وفلسفته. فليس من العدل القول أن أحدهما صواب والآخر خطأ. التاريخ يعلمنا أننا نحتاج إلى كلاهما للتقدم والازدهار.



إراسموس

حساسية مفرطة في جسم هزيل. حَذرْ شديد، لا يصلح معه أن يكون بطلا ثائرا. هذا هو "إراسموس". عندما يعُم الخطب ويشتد الكرب، يتنحى جانبا، حتى لا يلزم نفسه بمسؤولية. تعاليه عن الخَطْب هذا، هو سبب سقوطه ونجاحه في نفس الوقت.

الليبرالية وحرية الفكر، هي كل ما يبغي. رفض أن يكون عبدا لأي فكرة أو عقيدة أو جماعة. الديموقراطية عنده، بكل جوانبها وظلالها، مزاياها وعيوبها، تصب في شئ واحد، هو الحرية الفردية. دراسة أعماله اليوم، تبين لنا بدون شك، أنه النبي الحقيقي لروح العصر الحديث. هنا تتجلى عظمته كمفكر ليبرالي. قلم "إراسموس"، أكثر من أي شئ آخر، عجل بحركة الإصلاح والحرية الدينية.

لكن ثورة "مارتن لوثر" وحدها، هي التي جعلت هذا الأمل يتحقق.



مارتن لوثر

كلاهما كان على حق، أليس كذلك؟ لقد وهب "إراسمس" حياته لخدمة السلام، والوحدة، والتسامح الديني.

كرهه للعنف وخوفه من الفرقة والتشرزم، جعلاه يكرس جهوده للدراسة والكتابة. لأنه كان يعتقد أن عصر الأنوار والإصلاح الديني، لابد أنه قادم لا محالة في الطريق. كان هدفه، الوحدة الدينية والوحدة السياسية. هو أول من تنبأ بالوحدة الأوروبية.

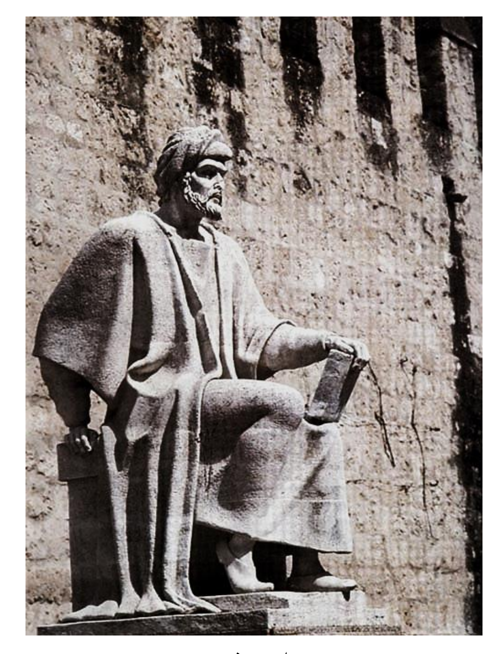
كان يقول: "أود أن أكون مواطنا للعالم كله، حتى أكون صديقا لكل الناس".



أريد أن أكون صديقا لكل الناس

حاول "إراسموس إصلاح المسيحية، بدمجها في الحضارة الإغريقية. هذا ما حاوله من قبل العلامة المسيحي "أوريجانوس" السكندري، المتوفي عام 245م.

كذلك فلاسفة المسلمين: الكندي والرازي والفارابي وابن سينا وابن رشد، وغيرهم. فقد حاولوا هم أيضا، دمج الحضارة الإغريقية في الفكر الإسلامي.



ابن رشد

ولد "إراسموس" في هولندا عام 1466م. هذا مكان يناسبه، لدمج الحضارة الهيلينية بالفكر المسيحي. ابن غير شرعي لكاهن مسيحي يدعى "جيرار". تعليمه الأولي كان في مدرسة مشهورة ب"ديفنتر".

مدينة ديفنتر بهولاندا

في عام 1484م، قبل في جامعة "رودولف أجريكولا" للدراسات الإنسانية، لأنه كان متفوقا في دراسته، وحصل على جائزة لقصيدة شعر قام بتأليفها. كان يرغب في الالتحاق بالجامعة، لكن ولي أمره أراد إلحاقه بالدير.



لورنزو فاللا

هناك، قام بدراسة المؤلفات اللاتينية. كان منبهرا بكتابات "لورنزو فاللا" ومعاصريه، التي ينتقدون فيها حياة الزهد والتمسك بالتعاليم الدينية الصارمة.

في ذلك الوقت، بدأ "إراسموس" الكتابة. يدعو إلى الوحدة بين الأديان والحضارات. بدأ يخطط لكتابه الرائع، "مدح الحماقة". كتاباته الأولى، رشحته لتولي منصب سكرتير أسقف "كامبراي". بعد ذلك بفترة وجيزة، تم تعيينه كاهنا في "أوترخت". لكنه مل هذه الوظيفة. في عام 1495م، التحق بجامعة باريس للدراسة.

لكن الجو الصحي هناك في كلية "مونتاجيو"، بالإضافة إلى جفاف المواد الدراسية، جعلاه يعود ثانية إلى هولندا للتعافي. بعد ذلك ، عاد إلى باريس مرة ثانية لكي يواصل الدراسة.

كون الكثير من الأصدقاء، منهم العالمان: "فوستوس أندريلينوس" و "روبرت جاجوين". باريس في ذلك الوقت، كانت مدينة الفسق والفجور. لكن، ليس هناك ما يدل على أن "إراسموس" كان قد انغمس بطريقة أو بأخرى في هذا الفجور.



وليام بلونت لورد مونتجوي

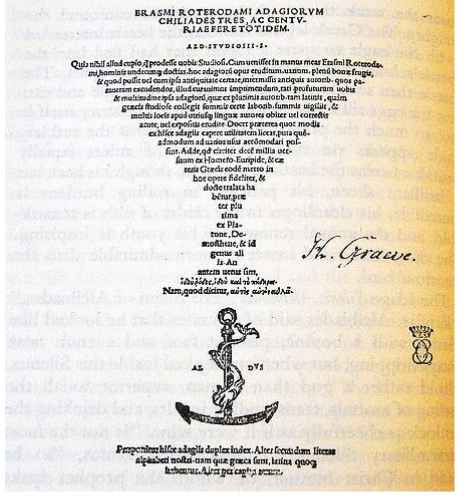
كانت تأتيه مساعدة مالية من أسقف "كامبراي"، وكان له تلاميذ. منهم "وليام بلونت"، لورد مونتجوي. اللورد، فيما بعد، أصبح مدرسا للملك "هنري الثامن".

في ذلك الوقت، كان الكاتب الاجتماعي يستشهد بجمل أو مقولات من: "حوريس"، "فيرجل"، "تاسيتوس"، "سينيكا"، أو "ليفي". أما رجل الدين، فكان يستشهد بآيات من الإنجيل.

كان "إراسموس" من أوائل الذين تنبهوا لكنوز الحكمة المدفونة في الكتابات القديمة للإغريق والرومان.


تنبه إراسموس إلى كنوز الحكمة المدفونة في كتابات الإغريق والرومان

بعد زيارة قصيرة لإنجلترا، عاد إلى باريس. أثناء مرضه بالحمى، بدأ في تجميع أقوال حكماء الإغريق والرومان في كتاب "أيدجيا"، ستة أجزاء. يحتوي على 4151 مثل وقول مأثور للقدماء. تمت إعادة طبع الكتاب في حياته 60 مرة، وفي القرن التالي أكثر من 75 مرة. لا يزال يطبع حتى اليوم حتى وصلنا للطبعة 1058.


ERASMI ROTERODAMI ADAGIORVM
CHILIADES TRES, AC CENTV-
RIAE FERE TOTIDEM.

ALD. STVDIOSIS. S.

Quia nihil aliud cupio, q̃ prodesse uobis Studiosi. Cum uenisset in manus meas Erasmi Roteroda-
mi, hominis undecunq; doctiss. hoc adagiorũ opus eruditum. uarium. plenũ bonæ frugis,
& quod possit uel cum ipsa antiquitate certare, intermissis antiquis autorib. quos pa-
raueram excudendos, illud curauimus imprimendum, rati profuturum uobis
& multitudine ipsa adagiorũ, quæ ex plurimis autorib. tam latinis, quàm
græcis studiose collegit summis certe laborib. summis uigiliis, &
multis locis apud utriusq; linguæ autores obiter uel correctis
acute, uel expositis erudite. Docet præterea quot modis
ex hisce adagiis capere utilitatem liceat, puta quê-
admodum ad uarios usus accõmodari pos-
sint. Adde, q̃d circiter decẽ millia uer-
suum ex Homero, Euripide, & cæ
teris Græcis eodẽ metro in
hoc opere fideliter, &
docte tralata ha
bẽtur, præ
ter plu
rima
ex Pla-
tone, De-
mosthene, & id
genus ali
is. An
autem uerus sim,
ἰδοὺ ῥόδος, ἰδοὺ καὶ τὸ πήδημα.
Nam, quod dicitur, αὐτὸς αὐτὸν αὐλεῖ.

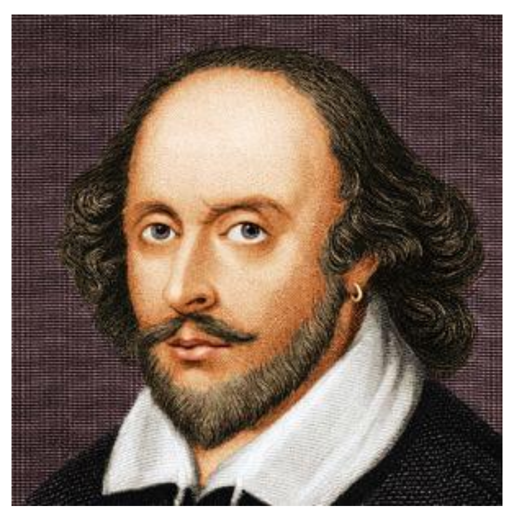
ALDVS

Præponitur hisce adagiis duplex index. Alter secundum literas
alphabeti nostri, nam quæ græca sunt, latina quoq;
habentur. Alter per capita rerum.

Th. Graeve.

الطبعة 1058 لكتاب أيدجيا لإراسموس

به أقوال ل"ميناندر"، "تيرتوليان"، "أرسطو"، "سينيكا"، وآخرين. ترجم من اللغة اللاتينية إلى الإنجليزية والألمانية والإيطالية والهولندية. وأصبح مرجعا هاما، أثر في فكر فلاسفة وأدباء آخرين مثل "مونتين" و"باكون" و"شيكسبير".

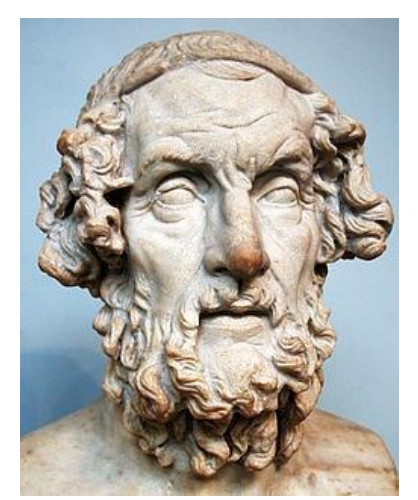

تأثر شيكسبير بكتاب أيدجيا لإراسموس

حين اكتشاف إراسموس للكنوز الإغريقية العظيمة، عكف على دراسة اللغة اليونانية حتى أصبح من كبار علمائها.


ماكتب باليونانية هو الينابيع العذبة الصافية

قال فيما بعد: "ما لدينا مكتوبا باللاتينية، يمثل جدولا صغيرا وبقعا عكرة من الماء. بينما ما كتب باليونانية، هو الينابيع العذبة الصافية، والأنهار التي تتدفق بالذهب الخالص.

لكي نفهم الكتاب المقدس وكتابات رجال الدين الأوائل بصدق، لابد من دراسة اللغة اليونانية. كتابات الفلاسفة الإغريق الأوائل والأدباء وكتاب المسرح، بدأت تظهر في شكل كتب بعد اختراع الطباعة.


هومير

كان "إراسموس" يقرأ هذه الأعمال ويستوعب محتوياتها بشغف. مثل أعمال "هومير"، "هيسيود"، "أرسطو"، "أرسطوفان"، "هيرودوت"، "بلوتارخ"، "أفلاطون"، "بندار"، "بوسانيوس"، وآخرين.

دراسته الدينية بدأت في نفس الوقت، لكنه لم يتعمق فيها. لم يجد ما يطلبه في قصص العهد القديم. كان يعتقد أنها مليئة بالشك، كتبت لعصر معين. تحول أنظار الناس عن المسيح وتعاليمة الحقة، والتي يجدها كافية.

هي ملاحظة تنطبق على ما يحدث الآن بالنسبة للأديان السماوية الثلاث، حيث يهتم رجال الدين بأساطير العهد القديم، أكثر من اهتمامهم بالقيم الخلقية والإنسانية التي جاءت في الأديان.

ترك "إراسموس" باريس عام 1501م، وعاد إلى هولندا لكي يمكث بها ثلاث سنوات. عرضت عليه وظيفة للتدريس بجامعة "لوفين"، لكنه رفضها. بينما كان في هولندا، كرس كل وقته لتأليف كتاب بعنوان "دليل الفارس المسيحي". وهو أول تعريف، من وجهة نظره، للحياة الدينية الحقة.

عقيدة "إراسموس" المسيحية، كانت مثل عقيدة أوريجانوس. وهي تتكون من مزج تعاليم المسيح، كما جاءت في الموعظة على الجبل، بالثقافة الإغريقية. القرن السادس عشر، لا يخرج عن ذلك.

نجد تأثير "إراسموس" في النزعات الصوفية والأفلاطونية التي ظهرت في ألمانيا والبندقية في ذلك الوقت.

الأفلاطونيون المسيحيون، مثل "ميراندولا"، يضعون العقل فوق الإيمان، ويقولون بأن التدين عبارة عن حياة وسلوك، لا مجموعة تعاليم وطقوس وثنية وتصديق لأشياء غير منطقية.



العقل فوق الإيمان والتدين عبارة عن سلوك لا مجرد تصديق لأشياء غير منطقية



توماس مور

عندما عبر "إراسموس" القنال الإنجليزي، يبدو أن هواء البحر كان قد شفاه من خبل العصور الوسطى. لقد ولد من جديد. أول زيارة، كانت دعوة من تلميذه، لورد "مونتجوي". الذي قدمه لإثنين من مفكري عصر النهضة ورجال القلم العظام: "توماس مور" مؤلف كتاب "يوتوبيا"، و"جون كوليت".

مع زيارات "إراسموس" إلى إنجلترا العديدة، زاد عدد أصدقائه وطلبته في الدوائر التعليمية والدينية. في عام 1511م، تم تعيينه مدرسا للغة اليونانية وآدابها في جامعة كامبردج. بعد ذلك، قبل وظيفة أستاذ كرسي بالجامعة. منحه أسقف كانتربيري راتبا سنويا مدى الحياة ومزايا أخرى عديدة.

لم يكن "إراسموس" يؤمن بالطقوس الوثنية التي كانت تجري في الكنائس قبل حركة الإصلاح الديني. مثل تقبيل عظام الموتى من القديسين والشهداء. عندما زار إيطاليا، كان الإيمان بالخرافات أشد وطأة. مما جعله يفكر في موضوع كتابه "مدح الحماقة".

السنة التي قضاها في إيطاليا، كانت مزدحمة بالدراسة والسفر ومصاحبة العلماء. المكتبات والجامعات في إيطاليا، كانت كافيه لكي تجعله يستوطن في روما أو فلورنسا باقي عمره، لولا أنه كان يتوقع منصبا من ملك إنجلترا الجديد، "هنري الثامن".

بعد عودته إلى إنجلترا، بينما كان يستريح في منزل صديقه، "توماس مور"، نشر كتابه "مدح الحماقة"، وهو أهم أعماله. يتهكم فيه على أحوال الناس في ذلك الوقت، يشبه كتابات "فولتير" الساخرة التي جاءت فيما بعد.

شمل نقد وسخرية إراسموس"، كل فئات المجتمع. الكنيسة وكتاب وفلاسفة ومحامون وعلماء وأعيان وجنود ورجال دين. بين في الكتاب، فساد الكنيسة والكهان وغباء رجال الدين. كان يوجه سهامه اللاذعة في قالب فكاهي تهكمي. ثورة "مارتن لوثر" ضد الكنيسة الكاثوليكية تعتبر حركة مسالمة، إذا ما قورنت بسهام "إراسموس" القاتلة.

هذا مثال لما جاء بكتاب "مدح الحماقة" وهو هنا ينتقد علماء الدين:

"سوف يخبرونك كيف خلق العالم. سوف يطلعونك على الشرخ الذي تسربت منه الخطيئة لكي تفسد البشرية. سوف يشرحون لك كيف خلق المسيح بدون أب... وأن قتل آلاف الناس، أقل جرما من إصلاح حذاء سائل يوم السبت. فناء العالم أفضل من كذبة صغيرة تتفوه بها امرأة"

يقولون أنه من دلالات القداسة، أن تكون أميا لا تعرف القراءة والكتابة. ثم ينهقون وهم يرتلون المزامير في الكنائس مثل الحمير. لا يعرفون كلمة واحدة مما يتلون. لكنهم يجودون الصوت حتى يطرب أسماع القديسين.



ينهقون وهم يتلون المزامير مثل الحمير

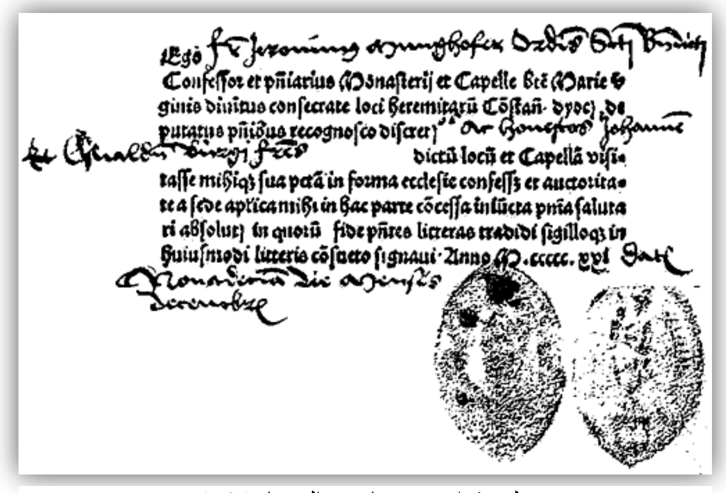
الرهبان المتسولون يهيمون في الشوارع يستجدون الصدقات. يدعون أنهم يتشبهون بحواري المسيح.



الرهبان المتسولون يهيمون في الشوارع

هم جهلة عجزة متشردون، في ثياب قذرة. يشغلون أنفسهم بالأمور التافهة مثل: كم عقدة في رباط الحذاء؟ ولون الثياب السفلى، وعدد القطع في غطاء الرأس، وعدد ساعات النوم. بالنسبة للأمور الأخري الخاصة بشخصية الإنسان، يتشاجرون ويسبون ويلعنون كل منهم الآخر.

"ماذا أقول عن صكوك الغفران؟ هي طريقة سهلة لشراء المغفرة. أي قاطع طريق، أو قاتل محترف، أو قاضي مرتشي، يمكنه الاستغناء عن جزء صغير من الأموال المنهوبة، لكي يشتري بها الغفران، ويصبح كأنه لم يرتكب جرما قط."


Ego fr Jeronimus ...
Confessor et pñiarius Monasterij et Capelle btē Marie v
ginis diuinitus consecrate loci Heremitarū Costan- dyoc; de
putatus pñibus recognosco discret' ...
dictū locū et Capellā visi
tasse mihiq; sua pctā in forma ecclesie confessu et auctorita
te a sede aplica mihi in hac parte cocessa iniūcta pnīa saluta
ri absoluij In quorū fide pñtes litteras tradidi sigilloq; in
huiusmodi litteris cosueto signaui Anno M.ccccc.xxi

صك غفران يرجع تاريخه إلى عام 1521م

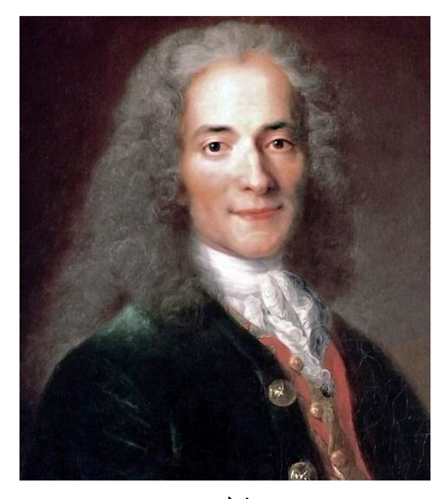
"باباوات روما، الذين يدعون أنهم نواب المسيح على الأرض، لو أنهم يحيوا حياته المثالية. حياة الفاقه والعري والجوع واحتقار العالم. لو أنهم علموا معنى كلمة بابا، لما تكالبوا على شراء الأصوات في الخفاء. الذين ينجحون بالرشوة، لا يستطيعون الحفاظ على الكرسي، حتى لو استخدموا المسدس والسم والعنف."

كيف تسنى لمن كتب مثل هذا الكلام النجاة من محاكم التفتيش؟ أحد الأسباب هو أن موقف "إراسموس" كان غامضا. هل عباراته التهكمية هي التي أغضبت الحمقى، أم نقده اللاذع؟ إذا اتهم بالهرطقة، يمكنه القول ببساطة، أنه لم يقل هذا. التي قالته "مدام حماقة". والناس لا تعتب على الحمقى.

هذا مثل حكاية جحا. حينما ضبط في مطحن الغلال وهو يأخذ دقيقا مطحونا من جوال جاره ويضعه في جواله، قال مبررا: "لا تؤاخذونني، لأنني أحمق".

لم تكن هذه أول أو آخر مرة يُستخدم فيها الأسلوب التهكمي في النقد. فكان لدينا أحمد رجب ومحمود السعدني وجلال عامر، ولدينا الآن غادة شريف وغيرها.


محمود السعدني



فولتير

في الماضي كان إبراهيم بن عزرا، المولود في الأندلس في القرن الثاني عشر، وبعده فولتير، في القرن الثامن عشر. يستخدمان نفس الأسلوب التهكمي في النقد.

سبب آخر لعدم القبض عليه، هو أن "إراسموس" هو "إراسموس". عندما يقرأ البابا كتابه، سوف يقول: "هذا هو صديقنا إراسموس لمرة أخرى". كان "إراسموس" يتمتع بشهرة كبيرة، ليس من السهل توبيخه معها. لذلك يجب كسب وده، لا عداوته.

في هذا الكتاب الصغير والأعمال التي تلته، اقترف "إراسموس" من التجديف والكفر ما يكفي لإرسال ألف مذنب إلى المحرقة. لكن كتاب، "مدح الحماقة"، لم يترك بدون معارضة.



رجال الدين نادوا بجمع الحطب لحرق الكتاب

رجال الدين نادوا بجمع الحطب استعدادا لحرق الكتاب، الكهنة شجبوه وأدانوه، الجامعات منعت الطلبة من قراءته.

لم يكن نقد "إراسموس" مجرد نقد سلبي، غير مصحوب بحلول إيجابية ومثالية. فهو لم يكن يرغب في الشقاق والفرقة. كان دائم الخوف من الثورة. ما يبغيه، هو الإصلاح من الداخل. كان يعتقد بأن تطور المسيحية يأتي عن طريق إظهار القيم النبيلة، التي تقبع دفينة، تحت تلال الخرافات المصحوبة بالإيمان الأعمى.

عندما سمع مقولة، أنه وضع البيضة التي رقد عليها "مارتن لوثر" لكي تفقس. قال: "نعم، ولكنها كانت دجاجة. ولوثر استخدمها في مباراة لصراع الديوك."

روح المسيحية، كما يقول "إراسموس"، لا تقع في الأمور الشكلية، إنما في الإيمان الداخلي للفرد. ليست هي الطقوس والتمسك الشديد بالتعاليم، إنما هي السلوك وحياة الرضا والتكامل مع النفس. الأهم من حضور القداس والحج وزيارة الأضرحة، هو أن تحيا حياة تتفق مع روح المسيح وتعاليمه.

عن طريق هذا الكتاب الصغير، "مدح الحماقة"، غزا "إيراسموس" كل أوروبا. تكرار طبع الكتاب، أعطاه شهرة دولية. مثل الشهرة التي حصل عليها "فولتير" بعد ذلك ب 250 سنة. في كل مكان في أوروبا، كان الناس يتطلعون إلى الرجل، الذي يستطيع أن يقودهم للدين الصحيح، وللبحث الصادق عن الحقيقة. يقودهم إلى ديانة عالمية جديدة تتوحد فيها كل الأديان.

كل أوروبا كانت تنظر إليه كرمز. لكنه لم يكن رجل ثورة وفعل. إنه يستطيع أن يوضح ويبين ويشير. لكنه لا يستطيع أن يحول ويشكل ويغير. يستطيع أن يمهد الأرض، لكن الحصاد وجني الثمار كان من نصيب آخرين.

في نفس الوقت، ظهر كتاب بدون اسم للمؤلف، بعنوان "يوليوس طُرِد من الجنة". لم يكن من الصعب معرفة أنه من تأليف إيراسموس. الكتاب في صورة حوار مسرحي، أصبح مشهورا لدرجة أنه قدم على مسارح باريس عام 1514م. في المسرحية، يقف "يوليوس الثاني" على باب الجنة، محاولا فتح الباب بالمفتاح للدخول.



هنري الثامن ملك إنجلترا

بعد أن رفض "إراسموس" عرض الملك "هنري الثامن"، ترك إنجلترا عام 1514م.

مؤلفاته جعلته يتربع على عرش الشهرة والمجد. كان يعتبر من رواد الأدب الإنساني في القارة الأوروبية. زياراته للمدن التي تقع على نهر الراين وبلجيكا، كانت عبارة عن انتصارات متوالية.

هو لا يزال راهبا، يتمتع بمعاش سنوي خاص منذ عدة سنوات. الآن، السلطة الكنسية اعتقدت أنه قد حان الوقت للتعامل مع هذا الكاهن المتمرد المهرطق. لكن "إراسموس" كان قد بلغ من الفكر والعلم، ما لا يسمح بأن يطلب منه الاعتراف بخطيئته أو المثول لتعاليم الكنيسة. لذلك، استمر سائرا في طريقه.

في بروكسل"، ستراسبرج، فرانكفرت، بازل، وأنتويرب، استقبل إراسموس بحفاوة بالغة. كانت تطلق عليه ألقابا مثل: "أمير التعلم"، "دكتور عالمي"، "أبو الدراسة"، و"نور العالم".

كل من كانت له علاقة بالثقافة، كان يمجده ويمدحه. غاية المنى، أن تحصل على خطاب منه بخط يده. من يقوم بالتحدث معه، يكون أسعد مخلوق على وجه الأرض. وهو شرف لم يكن يحلم به لوناردو دافنشي أو مايكل أنجلو فيما بعد.



شارلز الخامس ملك فرنسا

الأباطرة والملوك والباباوات والكردينالات، يتنافسون لمصلحته. شارلز الخامس ملك فرنسا، عرض عليه وظيفة في بلاطه. هنري الثامن وعده بقصر ومعاش سنوي لو استقر في إنجلترا. "فرديناند" قدم له عرضا مماثلا لو استقر في فيينا.

عروض أخرى مشابهة أتت من: هولندا، برابانت(مقاطعة في بلجيكا)، المجر، بولندا، والبرتغال. 5 جامعات أغرته بالأستاذية. عدد لانهائي من الهدايا والرشاوي. كان يقبل الهدايا. لكن بالنسبة للرشاوي، لم يكن من السهل شراء ضميره.

لم يكن إراسموس يهتم باستدرار عطف الجماهير أو انتباهها. لم يكن يرفع شعارات، أو يصرخ صرخات الحرب. لكنه كان تجسيدا لكل ما تعنيه كلمة النهضة.

كانت الروح الجديدة التي بدأت تسود في أوروبا، تظهر في دراسة التراث الإغريقي والعبري. عندما اتهم جون ريوخلين بالهرطقة، هب إراسموس للدفاع عنه.



الامبراطور ماكسميليان

ريوخلين، أستاذ اللغة العبرية، وأول من كتب قواعدها، وقام بنشر دراستها في أوروبا، قام بإقناع الامبراطور ماكسميليان لكي يسقط التهمة. لكن الرهبان الدومينيكان، قاوموا ذلك، وأقسموا على حرق ريوخلين حيا.

فشل الامبراطور، تحت الضغوط الشديدة، في إلغاء التهمة، واكتفي بسجن ريوخلين، ورفع الأمر للبابا. هنا قفز "إراسموس" إلى المعركة. كتب العديد من الرسائل إلى السلطات في روما. وراسل كل المشتغلين بالعلوم الإنسانية في ألمانيا.

بذلك، نجح في إثارة معارضة شديدة، ترفض حرق ريوخلين. تأجل البت في أمره. لكن في النهاية، تم نسيان الموضوع برمته في غمار ثور الإصلاح الديني.

في هذه الأثناء، لاحظ "إراسموس" أخطاء في ترجمة جيروم اللاتينية للعهد الجديد، نسخة "بيبل فولغات". فقام "إراسموس" بإعادة ترجمة العهد الجديد إلى اللاتينية ثم أهداه للبابا "ليو العاشر". بهذا الإهداء، كسب البابا في صفه.



البابا ليو العاشر

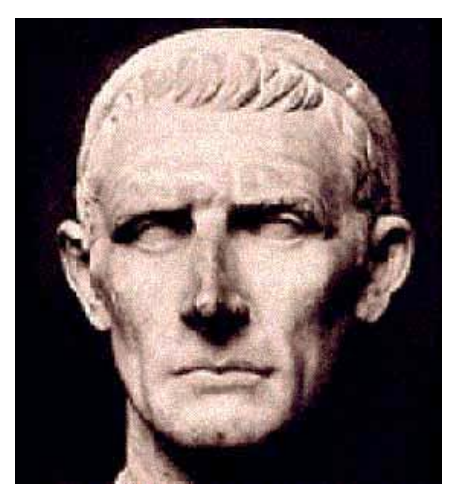
بعد ذلك، قام "إراسموس" بحركة إصلاح سلمي للكنيسة من الداخل. كان يريد إحياء المسيحية بطريقة، تجعلها تتطهر من الخرافات والطقوس التقليدية. الكتاب المقدس هو المرجع، الكهان يتم تعليمهم، إلخ. لكن فرض الإصلاح ليس سهلا. لذلك، كان من نصيب "مارتن لوثر". هنا نجد التطور يفسح مكانه للثورة.

مراجعة العهد الجديد، نسخة "فولغات"، كانت هي الفصل الأول من برنامج "إراسموس" للإصلاح الديني وجعله عقلانيا. لكن الأهم من وجهة النظر الإصلاحية، هو مراجعته وتنقيحه للنسخة اليونانية التي ظهرت عام 1516م.

ترتيبه ومراجعته وتصويبه للمخطوطات، وتعليقاته المصاحبة للنص اليوناني، تمثل حقيقة بداية نقد الإنجيل الحديث. لقد اكتشف عدم مطابقة الكثير من النصوص العقائدية والشروح للأصل اليوناني القديم. مثلا:

في رسالة يوحنا الأولى (7:5):
"لذلك هناك ثلاثة يشهدون في السماء، الآب والكلمة والروح القدس، وهؤلاء الثلاثة هم واحد." هذه الآية لا توجد في المخطوطات اليونانية. فقام "إراسموس" باستبعادها. يعتقد أن بريسيليان، المفكر الإسباني، قد أضافها عام 380م.

لم يتردد في وضع الجانب الأخلاقي للعهد الجديد، فوق الحكايات والأساطير الغير لائقة للعهد القديم. ويقول إن قراءة المؤرخ الروماني "تيتوس ليفيوس"، عام 218ق م، أفضل من قراءة العهد القديم.



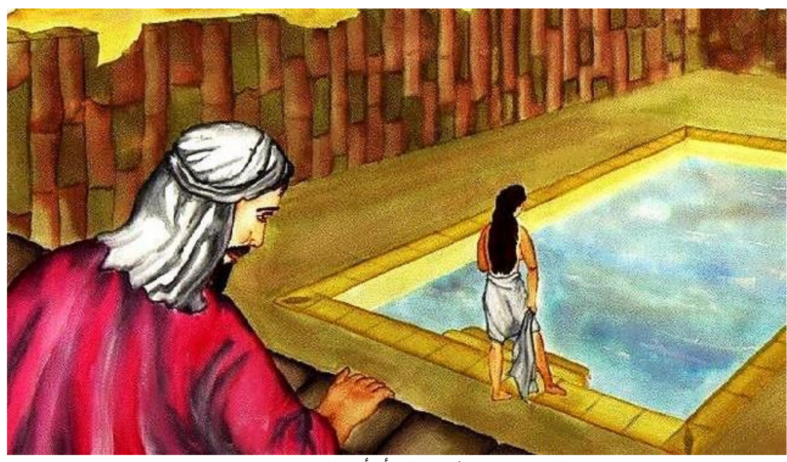
تيتوس ليفيوس

في فقرة من كتابه "أيدجيا"، كتب ما يلي:

"إذا قرأت في العهد القديم، أن آدم مصنوع من طين. وأن زوجته في السر، سحبت من جنبه بينما كان يغط في سبات عميق. وأن الثعبان قام بإغراء المرأة بفاكهة محرمة. وأن الله مشى في طراوة المساء. وأن الحراس تقف تحرس أبواب الجنة، لكي تمنع المتسللين. ألا تعتقد أن الأمر كله لا يخرج عن كونه حكاية من حكايات "هومير".


ألا تعتقد أنها حكاية من حكايات هومير

إذا قرأت حكاية لوط وزنا المحارم، أو قصة شمشون، أو وزنا داود، وكيف تُرَفِّه العذارى الفاتنات عن الملك المخرف، أليس هذا شئ فاحش يثير الاشمئزاز؟"


داود يشتهي بتشبع إمرأة أوريا وهي تستحم

من الأناجيل التي قام "إراسموس" بمراجعتها: العبرانيون، جيمس، الوحي، رسالة يوحنا الثانية والثالثة، ورسالة بطرس الثانية. رفض بشكل قاطع مذهب أوغسطينوس، الخاص بأصل الخطيئة والرذيلة الكاملة. وكان يرأي أنه مهما كانت جريرة آدم، فذنبه لا ينتقل إلى أحفاده والأجيال الجديدة.

هو أول العلماء، بعد "أوريجانوس"، الذي قام بالنقد العقلاني للإنجيل كله، وتطبيق روح التعاليم الدينية على جميع مناحي الحياة، لا التعاليم والطقوس الصارمة بطريقة حرفية. كان دائم الفصل بين تعاليم المسيح من جهة، وتعاليم الكنيسة والمؤسسة الدينية من جهة أخرى.

نسخة "إراسموس" اليونانية للعهد الجديد، قابلها الليبراليون في كل البلاد بحفاوة بالغة. في نفس الوقت، قابلت قوى الرجعية النسخة بمعارضة شديدة. هذا شأن كل جديد تقدمي في تاريخ البشرية.

نسخة "إراسموس" اليونانية، كانت هي أساس الترجمة الألمانية، التي أخذ بها "مارتن لوثر" والكنيسة الإنجليزية. الترجمات السابقة بما فيها ترجمة "ويكليف"، كانت تتم من ترجمة لاتينية، "فولغات". أي ترجمة لاتينية عن ترجمة لاتينية، مليئة بالأخطاء والمغالطات.

فقط بعد تحقيق الوثائق اليونانية، خلال الدراسات المقارنة للمخطوطات المتوافرة في ذلك الوقت، أمكن ترجمة العهد الجديد بدرجة ما من الدقة.

كان "إراسموس" بروتستنتي في عقيدته. يعتقد أن العهد الجديد يجب أن يكون في يد كل الناس. التفسيرات التي صاحبت العهد الجديد، قوبلت في أوروبا بحفاوة كبيرة من العلماء. "لوثر" نفسه، اعتمد عليها في البداية، لكنه بعد ذلك، رفضها لمذاقها العقلاني الليبرالي.

أسلوب وأصالة "إراسموس" تظهر في آخر كتبه، "ندوات مألوفة". وهو عبارة عن تعليمات في صورة حوارات موجهة للشباب. تهدف إلى تكوينهم الذهني والنفسي. لكنه أيضا، يستخدم في الكتاب أسلوب التهكم والنقد، بالنسبة للإيمان بالخرافات وممارثة الطقوس الوثنية، مثل كتابه السابق "مدح الحماقة".

من أعماله الهامة أيضا، تصحيحه لعلوم الإغريق والرومان، بدقة متناهية. يكفي أن نعرف أنه صحح أربعة آلاف خطأ في أعمال "سينيكا" وحده. أفضلها، دراساته عن الباباوية. تنقيحه لكتابات القديس "جيروم"، حياته وتسعة أجزاء من أعماله، يعتبر رائعة أعماله.


القديس جيروم

القديس "جيروم"، الذي جاء من أوروبا في القرن الرابع الميلادي، عاش زاهدا في بيت لحم، لكي يقوم بترجمة الكتاب المقدس. كان متخصصا في اليونانية واللاتينية. وكانت أفكاره وآراؤه، متقاربة مع أفكار وآراء "إراسموس"، مثل "أوريجانوس" السكندري.

بالإضافة إلى ذلك، كانت لإيراسموس كتابات سياسية، وعديد من المراسلات، إلى الباباوات والملوك والأباطرة والمفكرين في كل أنحاء أوروبا.


لوثر ثبّت معارضته على باب الكنيسة بالشاكوش والمسامير

كان "إراسموس" يعارض بشدة بيع الكنيسة الرومانية لصكوك الغفران. ربما كان أشد معارضة لها من "مارتن لوثر". لكن المعارضة بالتهكم والسخرية، لا تصل للناس. أما "لوثر"، فقام بتعليق معارضته على باب الكنيسة، وثبتها بالشاكوش والمسامير.

إراسموس كان قد اكتفي بمخاطبة العقل في الأوساط الثقافية، لكن "لوثر"، اخترق عواطف الجماهير ووصل إلى قلوبها. قواعد "لوثر" ال 95، المعلقة على باب الكنيسة، هي العلم الذي في رأسه نار، والذي بات يقود ثورة الإصلاح الديني.

كان "إراسموس" يتعاطف مع الثورة الدينية بقيادة "مارتن لوثر"، لكنه لم ينضم إليها. كان يقابل توسلات "لوثر" بالصمت. لأن الثورة لم تكن من طبعه. فهو رجل يؤمن بالإصلاح الداخلي. عندما طال انتظار "لوثر"، انقلب عليه، واتهمه بأنه عدو المسيح.

أثناء الثورة والقلاقل المصاحبة لها، أجبر "إراسموس" على ترك "بازل"، لأن المدينة بروتستنتية أكثر من اللازم. ثم أجبر على ترك "لوفين"، لأنها كاثوليكية أكثر من اللازم. عقل حر لا يجد وطنا له. هارب من ويلات الحرب الدينية التي تتقطع فيها الأوصال، لم يجد مأوى وملجأ سوى مكان في "فريبورج".

مدينة فيربورج

ظل ينتظر في "فريبورج"، بينما كان حلمه، بقيام ديانة مسيحية إنسانية عقلانية، يتحطم على صخرة العنف وإراقة الدماء. ظل يكتب ويؤلف ويرسل الخطابات، بدلا من الاشتراك في حرب يقودها التعصب وضيق الأفق.

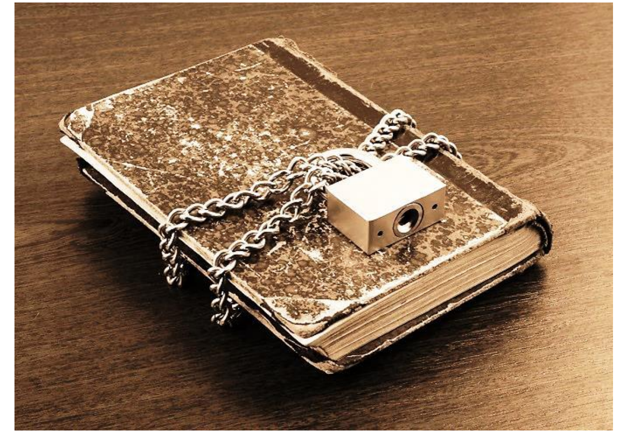
كيف نقيم موقف "إراسموس" من الثورة الدينية؟ وهل هو حقا يهوذا الإسخريوطي الذي خان المسيح؟


يهوذا الإسخريوطي الذي خان المسيح

وهل نلومه على موقفه هذا، إذا علمنا أن علماء ومفكرين ورجال قلم كبار، فقدوا حياتهم بسبب مواقفهم. منهم: "بيركوين"، "جون فيشر"، "توماس مور"، "زوينجلي"، "مونزير"، "تيندال".

لم يكن "إراسموس" مستعدا للشهادة، أو أن يقوم بدور الأنبياء . كان يفضل أن يظل عالم إنسانيات، يعمل على الإصلاح الداخلي بدلا من الثورة. هو يختلف عن الثوار في الأسلوب فقط. لم يكن يتبع فكر أي شخص أو حزب أو جماعة. حتى يظل حرا، له فكره الخاص.

بعد ذلك، وصفت الكنيسة الكاثوليكية تعاليم "إراسموس"، بالكفر والهرطقة، ووضعت كل كتبه وأعماله على رأس قائمة الممنوعات.

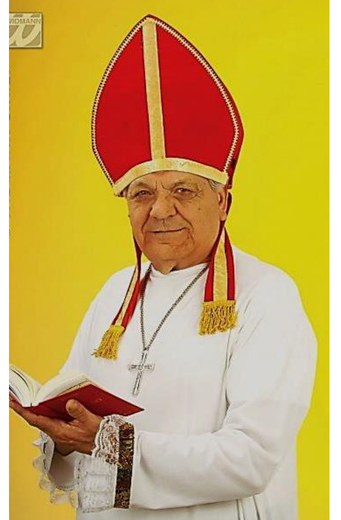

كتبه على رأس قائمة الممنوعات

لكنه بالنسبة للفكر الليبرالي، ظل نجم النهضة اللامع بدون منازع. الذي كان تأثيره على العالم المتحضر، أكثر من أي شخص آخر، منذ وقت الامبراطورية الرومانية، حتى وقتنا الحاضر.



إراسموس هو نجم النهضة اللامع

كانت رغبة "إراسموس" الأخيرة، هي العودة إلى بلده "برابانت"لكي يموت هناك. لكنه أجبر على المرور ب "بازل". قابل بعض الأصدقاء، هناك قضى أيامه الأخيرة، منبوذا من كلا الفريقين المتصارعين. عندما شعر بالوحدة القاتلة، قال: "أعدائي يزدادون عددا، بينما أصدقائي أصبحوا يعدون على الأصابع".



القبعة الحمراء عرضت على إراسموس

بينما كان على فراش الموت، جاءته رسالة من البابا في روما، يعرض عليه القبعة الحمراء. هذا ما حدث فيما بعد بالنسبة ل"فولتير". فقد عرض عليه نفس المنصب. لكن مثل هذه الرشوة، لها عواقبها التي لا يستطيع أيا منهما قبولها. لقد رفض "إراسموس" رشوة البابا، وفضل أن يموت كروح حرة. ثم ظل يكتب والقلم في يده، إلى فاضت روحه الطاهرة.

3

مونتسكيو (1689-1755م)

يعتبر كتاب "روح القوانين"، الصادر عام 1748م، من أعظم الكتب التي ظهرت في عصر الأنوار الذي سبق الثورة الفرنسية. مؤلف هذا الإنتاج الفكري الكبير، هو شارل لويس سيكوندا دي مونتسكيو، بارون دي لابريد، عندما كان في التاسعة والخمسين من عمره.



مونتسكيو

الكتاب عبارة عن ثمرة عمر كامل من الجهد والتجربة والخبرة، وأربعين عاما من الدرس والبحث، وعشرين عاما من التأليف والمكابدة والمراجة والمعاناة.

مبدأ فصل السلطات، يعمل به في معظم دساتير العالم اليوم، ويذكر في بلادنا أيضا من حين لآخر في بعض المقالات السياسية، أو يأتي ذكره على لسان بعض السياسيين وزعماء المعارضة، حينما يتحدثون عن تعديل الدستور.

لكن، من أين قد أتى هذا المبدأ، وماذا يعني؟ هذا المبدأ أو نظرية الفصل بين السلطات أتت من كتاب روح القوانين لمنتيسكيو. السلطات التي نعنيها هنا هي سلطات الحكومة الثلاث. السلطة التشريعة والسلطة التنفيذية والسلطة القضائية.

السلطة التشريعية (مجلس النواب مثلا) تسن القوانين، لكن لا تتولى تنفيذها.



السلطة التشريعية (مجلس النواب)، تسن القوانين لكن لا تتولى تنفيذها

السلطة التنفيذية (الرئيس والوزارة) تتولى التنفيذ، لكن لا تسن القوانين.



السلطة التنفيذية (الرئيس والوزراء)، تنفذ القوانين لكن لا تسنها

أما السلطة القضائية (المحكمة الدستورية العليا) فتقوم بتفسير القوانين والتأكد من مطابقتها لبنود الدستور. أي ليس لها دخل بسن القوانين أو تنفيذها.



السلطة القضائية (المحكمة العليا)، تفسر القوانين وتتأكد من مطابقتها للدستور

السلطات الثلاث تكون ما يعرف بالحكومة. فمن هو مونتسكيو هذا، وماذا جاء بكتابه "روح القوانين"؟

في يناير عام 1689م، ولد مونتسكيو في بلدة لابريد بالقرب من بوردو في مقاطعة مونتاني جنوب غرب فرنسا. كان أبوه، جاك دي سيكوندا، ضابطا من سلالة طويلة من النبلاء. وكان يعمل كبير قضاة في جودين.

قضى مونتسكيو الابن السنوات الثلاث الأولى من عمره بين فلاحي القرية. أرسل في سن الحادية عشرة إلى مدرسة على بعد عشرين ميلا من باريس. ثم عاد إلى بوردو في سن السادسة عشر ليدرس القانون. الصداق الذي قدمته أمه البروتستنتية، جين دي لارتيجيه، كان عبارة عن قصر لابريد وأرضها.

في ذلك الوقت، كانت إنجلترا دولة ملكية دستورية، منذ ثورتها العظيمة (1688-1689م). وكانت تكون مع إسكتلندا عام 1707م، مملكة بريطانيا العظمى. (إنجلترا ليست هي بريطانيا، وإنما جزء منها).

الفرق بين إنجلترا وبريطانيا والمملكة المتحدة

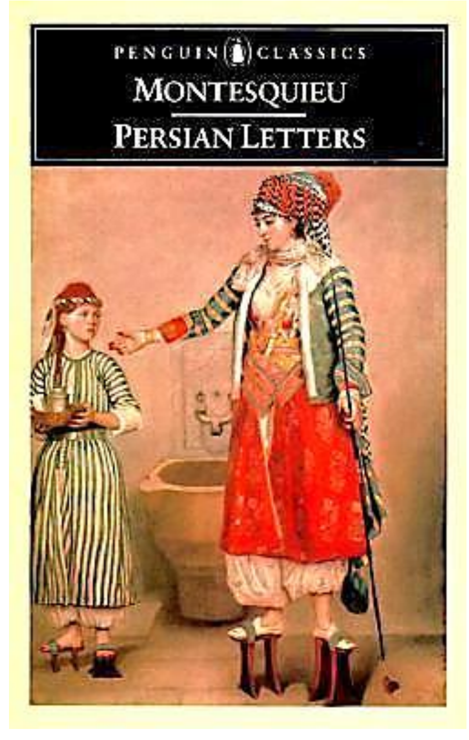

لويس الرابع عشر، صاحب أطول فترة حكم في تاريخ أوروبا

في عام 1715م، وبعد حكم فرنسا مدة طويلة ، توفي لويس الرابع، عشر ملك فرنسا، ليرث بعده لويس الخامس عشر الملك، وهو طفل في الخامسة من عمره. كانت لهذه الأحداث تأثيرا كبيرا على مونتسكيو، كان يشير إليها مرارا في كتاباته.

مات والد مونتسكيو وهو في سن الرابعة والعشرين، تاركا له ثروة طائلة. بعد ذلك بسنة، دخل برلمان بوردو كعضو وقاض. ثم ورث عن عمه عام 1716م ثروته ومنصبه كرئيس للبرلمان.

كان يقوم بالتجارب والأبحاث في الفيزياء والفسيولوجيا ويقدمها إلى أكاديمية بوردو، ويجمع بيانات عن جيولوجية الأرض، ساعدته في تأليف كتابه العظيم "روح القوانين". نلاحظ هنا أن الثروة الكبيرة لم تفسد مونتسكيو، إنما ساعدته على الدراسة والبحث والتأليف الذي أفاد البشرية كلها فيما بعد.

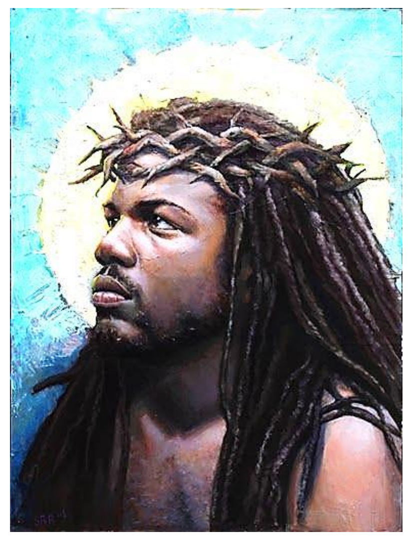
عندما كان يعمل مونتسكيو قاضيا بالبرلمان، نشر كتابا ساخرا بعنوان "الرسائل الفارسية" عام 1721م، تحت اسم مستعار لسائحين فارسيين يزوران فرنسا. هما ميرزا وأوزبك. ينتقد فيه بأسلوب تهكمي، سخافة المجتمع الباريسي المعاصر، ونقط الضعف فيه والأهواء والتحيز عند الفرنسيين. ويسخر ، في نفس الوقت، من حماقات السلوك والمعتقدات الشرقية.



كتاب الرسائل الفارسية لمونتسكيو يبين أن الملكية نظام شاذ غير سوي، ينتهي حتما إلى حكم استبدادي مطلق. الحاشية فاسدة، والنبلاء خاملون مبذرون يسيئون إدارة أموال الدولة.

كتاب الرسائل الفارسية لمونتسكيو

لكنه يمتدح جمهوريات اليونان وروما القديمة، وهولندا وسويسرا الحديثة. الحكومة شئ ضروري. شر لابد منه. لكنها يجب أن تكون قائمة على الفضيلة والأخلاق. (إنما الأمم الأخلاق ما بقيت – فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا). لكن انتقادات مونتسكيو الدينية كانت أكثر قسوة.



جاء في الرسائل على لسان أوزبك، أن الزنوج يتصورون أن الإله أسود البشرة غليظ الشفتين أكرت الشعر، وأن الشيطان أبيض البشرة أصفر الشعر أزرق العينين. بعكس صورتي الإله والشيطان عند الأوروبيين. وكان ينتقد عقيدة التثليث عند المسيحيين وحدوث المعجزات.

الزنوج يتصورون أن الإله أسود البشرة

الساحر "على بابا" يحث الناس على الاعتقاد بأن الخبز ليس خبزا والخمر ليس خمرا. ويسخر من اختلاف المذاهب المسيحية، والسبح وثياب الرهبان الفضفاضة. أفزعته محاكم التفتيش في أسبانيا والبرتغال حيث كانت تحرق الناس بدون رحمة مثل القش باسم الدين.



محاكم التفتيش وحرق الناس باسم الدين

امتناع الرهبان والراهبات عن الزواج وتحريم الطلاق سوف يعوقان ازدياد السكان في كل من فرنسا وإيطاليا وإسبانيا. الرهبان خاملون يستولون على كل ثروات الدولة تقريبا عن طريق الوقف، فلا تتداول هذه الثروات ولا تستغل في التجارة أو الصناعة.



كان يسخر مونتسكيو من الاضطهاد العنصري ويقول على لسان أوزبك: "أنت تعلم ياميرزا كيف أجبر الأرمن على مغادرة المملكة أو الدخول في الإسلام. اعتقادا منهم أن هؤلاء الكفار يلوثون المملكة.

أرمن العراق 1918م

اضطهاد هؤلاء الكفار عبدة النار جعلهم يفرون إلى
الهند الشرقية، مما حرم البلاد من شعب جاد نشيط. هذا التعصب الأعمى سوف يتسبب في تدمير الصناعة ومن ثم البلاد، حاملا معه الديانة التي نريد حمايتها.

LETTRES
ECRITES DE LONDRES
SUR LES
ANGLOIS,
ET
AUTRES SUJETS.
Par M. DE VOLTAIRE.

Suivant la Copie imprimée à Londres.
Se vend A AMSTERDAM,
Chez JAQUES DES BORDES.
MDCCXXXV.

بعد ثلاثة عشر سنة من كتاب الرسائل لمونتسكيو، كتب فولتير عندما كان في المنفي في إنجلترا، كتابا شبيها يصف فيه الحرية ونظام الحكم في بريطانيا، بعنوان: "رسائل عن الإنجليز".

رسائل عن الإنجليز لفولتير

كتاب الرسائل لمونتسكيو وكتاب الرسائل لفولتير هما

إنتصار لحرية الرأي، وإيذان ببداية عصر الأنوار في فرنسا. من حسن الحظ، كان الوصي على عرش فرنسا في ذلك الوقت متسامحا بعض الشئ.


الدوق دي بوربون

ترك مونتسكيو زوجته وراءه في لابريد، وذهب إلى باريس لكي يجني ثمار الشهرة بين الطبقة الراقية والصالونات. لذلك لم يكن من الصعب وقوعه في غرام أخت الدوق دي بوربون الذي أصبح رئيسا لوزراء فرنسا عام 1723م.

ألف لها قصيدة شعر بعنوان "معبد الحب" عام 1725م. انضم بسبب مساعدة حبيبته إلى مجمع الأربعين الخالدين عام 1728م.

ثم زار بعد ذلك إيطاليا والنمسا والمجر وسويسرا وهولندا وإنجلترا، في رحلة استغرقت ثلاثة أعوام. قضى نصف هذه المدة في إنجلترا. أثناء هذه الزيارة، عقد مونتسكيو أواصر الصداقة مع مجموعة من علية القوم.

اختير عضوا في الجمعية الملكية بلندن. واستقبله الملك جورج الثاني والملكة كارولين. وحضر جلسات البرلمان الإنجليزي، وأولع بالنظام السياسي البريطاني. عندما عاد إلى فرنسا، كان شديد الإعجاب، مثل فولتير فيما بعد، بالحرية التي يتمتع بها الإنجليز. رجع إلى لابريد وتفرغ لأبحاثه وكتاباته التي شغلت بقية أيام حياته.

لم يحظ كتاب مونتسكيو الثاني "نظرات في أسباب رفعة الرومان وسقوطهم" الذي صدر عام 1734م، بنفس النجاح الذي لاقاه كتابه الأول "الرسائل الفارسية". الكتاب الجديد كان محافظا بعض الشئ. كما أن الراديكاليون(المتطرفون)، لم يعجبهم التركيز على أهمية الأخلاق، ولم يكونوا مستعدين لفهم عبارات عميقة مثل "الذين لم يعودوا يخافون، في مقدورهم احترام السلطة". وهو تعتبر من روائع النثر الفرنسي.

الفناء قدر محتوم يصيب الأفراد والديانات والدول وحتى المعادن.


الفناء قدر محتوم

وكما كان إسحق نيوتن يبحث عن القوانين التي تحكم الطبيعة، كان مونتسكيو يبحث عن القوانين التي تحكم حركة التاريخ وتسبب نهوض وفناء الدول.

أحداث التاريخ لا يسيرها الحظ أو القدر وحدهما. لكن هناك أسباب مادية ومعنوية هي التي تسير التاريخ. الفرد ما هو إلا أداة للحركة العامة للتاريخ، أو لروح العصر كما أسماها هيجل.

القدر ليس قوة ميتافيزيقية، إنما هو محصلة عدة عوامل. وعلى المؤرخين والفلاسفة، الكشف عن هذه العوامل ودراستها. لماذا سقطت روما؟ لأنها تحولت من جمهورية إلى دكتاتورية.


لماذا سقطت روما؟ لأنها تحولت إلى دكتاتورية

الجمهورية تتوزع داخلها السلطات وتتوازن. لكن الدكتاتورية لا تصلح إلا للاعتداء على الجيران واستعمار الدول الأخرى.



الدكتاتورية لا تصلح إلا للاعتداء على الجيران واستعمار الدول الأخرى

الدكتاتورية تدمر الحرية وتشل نشاط المواطنين. هذا يؤدي بمرور الزمن إلى انتشار الخنوع والخمول والذل بين الجماهير. ويجعل الفقراء عالة على الدولة، ويضعف الأخلاق بسبب سوء توزيع الثروة وانتشار الفسق والفجور.



الدكتاتورية تؤدي إلى انتشار الخنوع والخمول والذل بين الجماهير

وتسبب الدكتاتورية وحكم الفرد فساد رجال الإدارة وزيادة الضرائب، وهجر المزارع والحقول.



الدكتاتورية تسبب فساد الإدارة وزيادة الضرائب

هي أيضا تستنزف الحيوية العسكرية للدولة وتجعل الجيش يسيطر على الحكومة المدنية. ويصبح اهتمامه تنصيب الحكام وخلعهم، بدلا من حماية أمن البلاد.



الدكتاتورية تجعل الجيش يهتم بالسيطرة على الحكم بدلا من حماية أمن البلاد

بعد مرور أربعة عشر عاما على كتاب مونتسكيو عن الرومان، صدرت أعظم أعماله، كتاب "روح القوانين". بدأ كتابته عندما كان في سن الأربعين. كان يكابد وهو يؤلف الكتاب وكثيرا ما طرحه جانبا أو قذف به بعيدا. حتى أنه كان يناغي ربات الفنون والعلوم، الموزيات، لكي يساعدنه قائلا: "الدرب طويل. لقد أضناني الأسى والإرهاق. فأدخلن على قلبي البهجة والانشراح لكي تدفعاني إلى الطريق الصحيح."


الموزيات التسعة ربات الحكمة والفنون

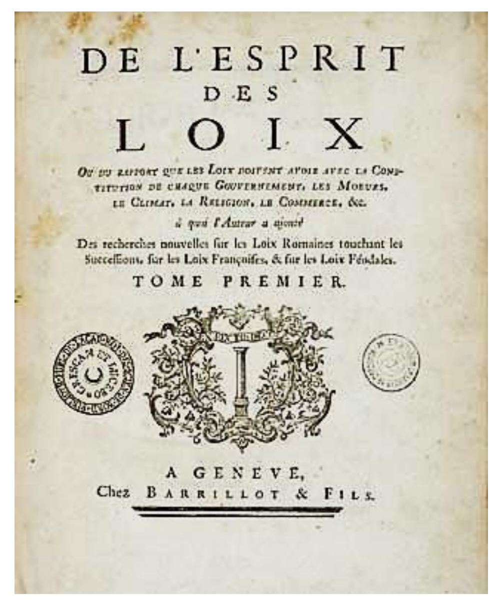
لقد بدأت هذا العمل دون خطة أو قاعدة. وكانت الحقائق تأتيني ثم تهرب مني ثانية. إذا صادف هذا العمل نجاحا، سأكون مدينا به لعظمة الموضوع وجلاله. لقد فقد مونتسكيو بصره كله تقريبا أثناء تأليفه هذا الكتاب، مما اضطره في النهاية إلى إملاء الأجزاء الأخيرة منه.

كانت مراجع مونتسكيو في تأليف روح القوانين، إلى جانب محاوراته مع الفلاسفة والمفكرين الذين عاصروه، العديد من المؤلفات منها: كتابي الجمهورية والقوانين لأفلاطون، السياسة والحيوانات لأرسطو، الأعمال الأخلاقية لبروتارخ، كتاب الأمير لميكافيللي، المدينة المثالية لتوماس مور.


هلفشيوس

وكان كلما كتب جزءا، عرضه على أصدقائه، ومنهم الوزير الأديب دارجنسون والأب جاسكو وهلفشيوس وفولتير.

كان الاعتراض على الأسلوب، لكن هلفشيوس كان ينصح مونتسكيو بألا يسئ إلى سمعته الطيبة بنشر كتاب ينتقد فيه الدين والمعتقدات المحافظة المستمسكة بالقديم. إلا أن مونتسكيو اعتبر هذه التحذيرات غير ذات موضوع. وتقدم لطبع الكتاب.



DE L'ESPRIT
DES
LOIX

Ou du rapport que les Loix doivent avoir avec la Constitution de chaque Gouvernement, les Moeurs, le Climat, la Religion, le Commerce, &c.

à quoi l'Auteur a ajouté

Des recherches nouvelles sur les Loix Romaines touchant les Successions, sur les Loix Françoises, & sur les Loix Féodales.

TOME PREMIER.

A GENEVE,
Chez Barrillot & Fils.

كتاب روح القوانين لمونتسكيو

ولأنه كان يخشى الرقابة الفرنسية، أرسل مخطوطة الكتاب إلى جنيف. هناك صدر الكتاب عام 1748م في مجلدين دون ذكر اسم مؤلفه.

ما أن ظهر كتاب روح القوانين حتي أحدث ضجة كبرى اجتاحت فرنسا من أقصاها إلى أقصاها. انقسم الفلاسفة ورجال الفكر والدين بين مؤيدين ومعارضين. لكن النقد المر،

جاء كالعادة من رجال الدين. بحجة أن ما جاء بالكتاب يتعارض مع ما جاء بالكتاب المقدس.

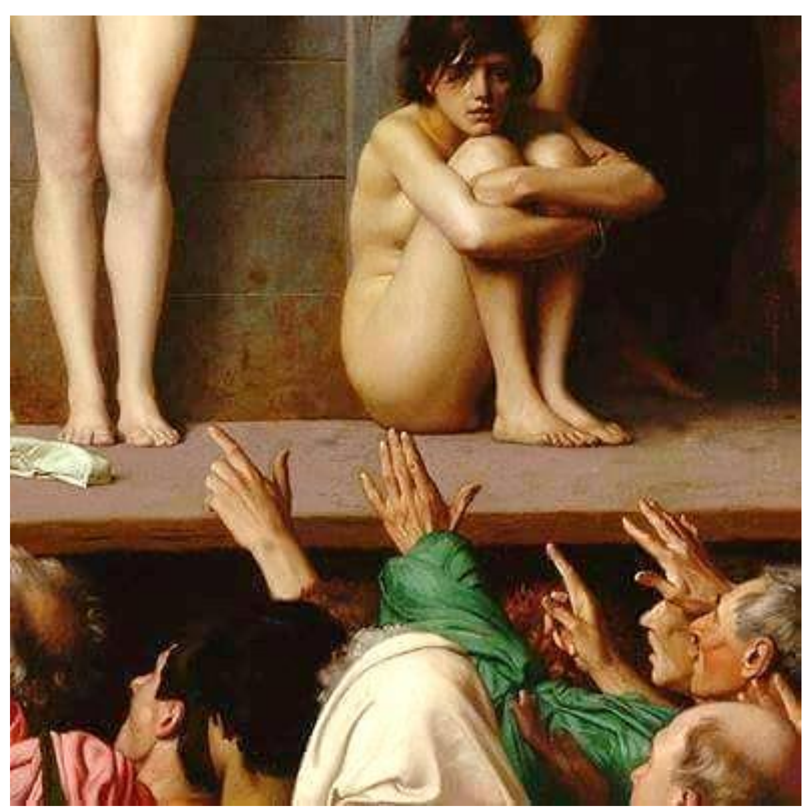
ثم أصدر رجال الدين بيانا يتهمون فيه مونتسكيو بالهرطقة وعدم الإيمان بالملائكة والوحي والرسل، إلخ. مما حدا بمنتسكيو إلى إصدار كتاب آخر عام 1750م، يدافع فيه عن كتابه "روح القوانين" بعنوان "دفاع عن روح القوانين".

أما الكنيسة الكاثوليكية في روما، فقامت بمراقبة "روح القوانين" بشئ من الاعتدال. وقام بفحصه علماء جامعة السربون دون نقده رسميا. في عام 1751م، وضعت السلطات الدينية في فرنسا الكتاب في قائمة الكتب المحرمة، وأصدرت الحكومة الفرنسية أمرا بمنع تداوله.

لكن، عندما عين رقيب جديد على المصنفات، قام برفع الحظر عن الكتاب. وسرعان ما شق طريقه إلى الأسواق لكي تصدر منه عشرون طبعة في عامين. بعد ذلك، تمت ترجمته إلى معظم لغات أوروبا.

كتاب روح القانون، يبين العلاقة بين القوانين ونوع الحكومة. ويوضح العلاقة بين القوانين والعادات والمناخ والدين وأسلوب التجارة وغيرها من العوامل. الكتاب عبارة عن بحث اجتماعي في العلاقات المتبادلة بين مكونات الحضارة.

طبيعة القوانين عند مونتسكيو يحددها مناخ البلاد وتربته. وكذلك طبيعة الشعب واقتصاده وحكومته ودينه وخلقه وعاداته.



سوق الجواري في الخلافة العثمانية، القوانين تحددها طبيعة الشعب وعاداته

القوانين عند مونتسكيو، هي العلاقة الضرورية التي تنشأ بين الأفراد والمجتمعات. لكنه يميز بين عدة أنواع من القوانين:

1- القانون الطبيعي، أو الحقوق الطبيعية لكل الناس بوصفهم مخلوقات لها عقل.
2- قانون الأمم الذي يحكم علاقاتها ببعض.
3- قوانين سياسية تحكم العلاقات بين الأفراد والدولة.
4- القانون المدني الذي يحكم علاقات الأفراد بعضهم ببعض.

في بداية المجتمعات البشرية، كانت أهم العوامل بالنسبة لقوانين البلاد، هو عامل الجغرافيا.



القوانين تختلف حسب طبيعة الأرض والمناخ

طبيعة الأرض وتضاريسها. هل هي غابة أم صحراء أم أرض زراعية، وهل هي أرض جبلية أم سهول، داخلية أم سواحل؟ القوانين التي تحكم سكان مصر مثلا، تختلف عن القوانين التي تحكم البدو سكان الصحراء. والمناخ أيضا من أهم العوامل التي تحدد اقتصاد الشعب وقوانينه وطبيعة شخصيته.

في البلاد الباردة، تجد الناس أكثر نشاطا وحيوية.



الناس أكثر نشاطا في البلاد الباردة

لذلك، تجدهم أكثر جرأة وشجاعة وثقة في النفس. الثقة بالنفس، تعطيهم شعورا بالتفوق والأمن. ومزيدا من الصراحة وقدرا أقل من الارتياب والشك. وليس مصادفة أن نرى أهل الشمال تقل رزائلهم وتكثر فضائلهم. بينما أهل الجنوب يتسمون بالأهواء والانفعالات والعنف.

في البلاد الحارة، يفقد الجسم بسبب العرق كثيرا من الماء، الذي يجب تعويضه بالسوائل الكثيرة لكي لا يتخثر الدم. لا يحدث ذلك في البلاد الباردة، لأن الجسم لا يفقد ماء بسبب العرق. لذلك لا يشرب أهل البلاد الباردة السوائل بكثرة. ويكون الدم لديهم عرضة للتخثر.

شرب الخمر قد يمنع تخثر الدم. لذلك يصبح ضروري في البلاد الباردة، بعكس البلاد الحارة. من ثم، يكون تحريم شرب الخمر، ملائما لبلاد العرب، وغير ملائم للبلاد الباردة.



شرب الخمر قد يمنع تخثر الدم في البلاد الباردة

في البلاد الحارة، تبلغ الفتيات في سن مبكرة، ويزول جمالهن في سن مبكرة أيضا. أي أن البنت تكون جميلة وهي صغيرة قبل أن ينضج عقلها. وعندما يتقدم بها السن وينضج عقلها، تكون قد فقدت شيئا من جمالها.

عندما تكون جميلة غير ناضجة عقلينا، تكون في تبعية للرجل. وعندما تكون ناضجة عقليا وينقصها الجمال ونضارة الصبا. تكون في تبعية للرجل أيضا. لذلك يصبح تعدد الزوجات أمرا طبيعيا في البلاد الحارة.



تعدد الزوجات أمر طبيعي في البلاد الحارة

لكن في البلاد الباردة، يتأخر سن البلوغ عند البنات. وتحتفظ البنت بمفاتنها ونضارتها مع نضوجها العقلي. وتقترب شيخوختها مع شيخوخة زوجها. لذلك لا تكون في تبعية له على الدوام.

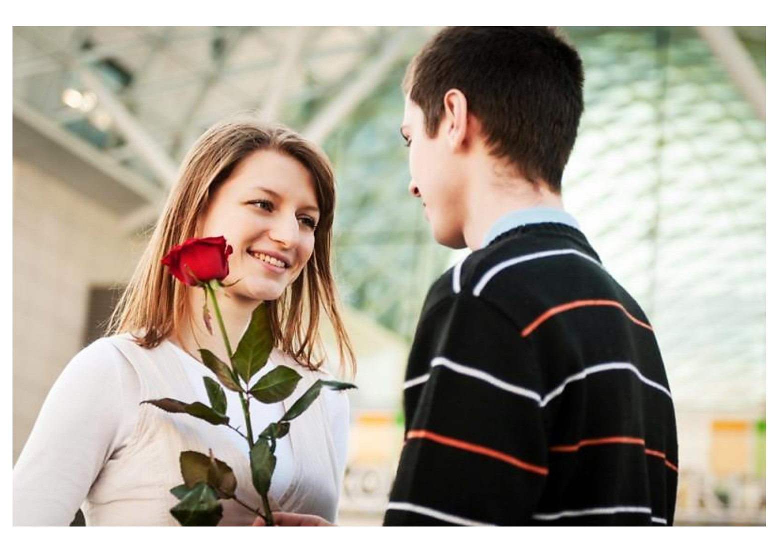
ويصبح مبدأ الزوجة الواحدة والمساواة بين الجنسين أمرا مقبولا في البلاد الباردة.

الزوجة الواحدة والمساواة أمر مقبول في البلاد الباردة

إننا نجد تعدد الزوجات ينتشر بسهولة ويسر في أفريقيا وآسيا، بينما ينتشر بصعوبة في أوروبا وأمريكا الشمالية.

حرارة الجو، تثير الشهوات. لذلك وجب إخفاء المرأة بالنقاب. ويكون اختلاط الجنسين غير مناسب في البلاد الحارة. لكن في بلاد الشمال، تكون العواطف باردة هادئة. من ثم يتسلط الحب على القلب.

إنها متعة أن تعيش في مثل هذه الأجواء التي تبيح الحديث مع الجنس اللطيف بدون مشاكل، ودون حصر العلاقة مع الجنس الآخر على العلاقة الجنسية فقط.



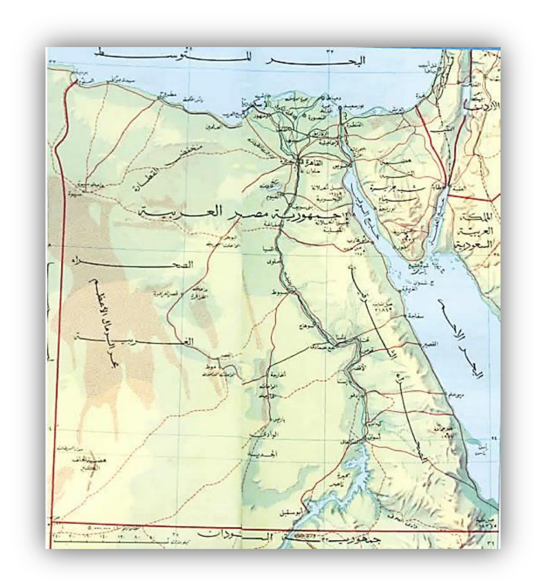
الحديث مع الجنس اللطيف بدون التفكير في الجنس متعة في حد ذاته

النظام الجمهوري يصلح في المساحات الصغيرة من الأرض. حيث يستطيع الزعماء فيها أن يجتمعوا للتشاور والتداول والعمل.



النظام الجمهوري يصلح للمدن محدودة المساحة
مثل مدينة أثينا

إذا اتسعت الرقعة، خضعت للحكم الملكي. وإذا ازدادت الرقعة اتساعا أكثر مما ينبغي، تحولت الملكية إلى نظام استبدادي، حتى تستطيع المحافظة على باقي المقاطعات تحت سلطانها.



إذا اتسعت رقعة الدولة تحول الحكم إلى نظام استبدادي

الجمهورية يجب أن تقوم على الفضيلة. الفضيلة عند مونتسكيو هي حب الوطن والمساواة بين مواطنيه.



الفضيلة عند مونتسكيو هي حب الوطن والمساواة بين مواطنيه

الديموقراطية يجب أن تحقق المساواة السياسية والإقتصادية بين المواطنين. الضرائب يجب أن تكون تصاعدية حتى تحقق العدالة الاجتماعية بين المواطنين.



الحكم المطلق يقطع الشجرة من جذورها

الحكم المطلق، يقطع الشجرة من جذورها لكي يجمع ثمارها. والحاكم المستبد، يستأصل أعظم الناس كفاءة ومقدرة لكي يحمي قوته وسلطاته.

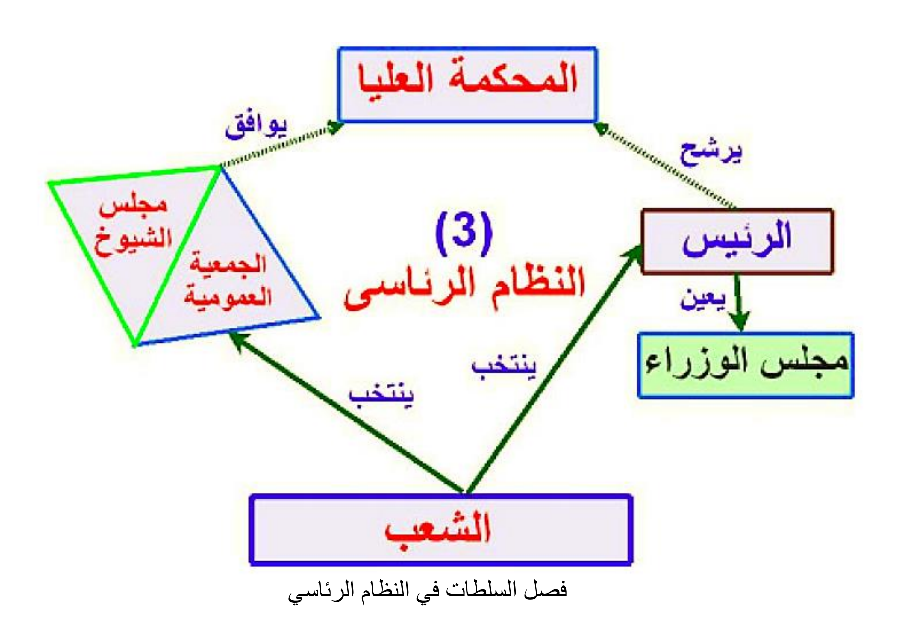
كره مونتسكيو للحكم المطلق، جعله يأتي بأشهر وأعظم نظرياته، نظرية الفصل بين السلطات الثلاث، التشريعية والتنفيذية والقضائية.



فصل السلطات الثلاث هو البديل للحكم المطلق

السلطة التشريعية تضم مجلسين: مجلس يمثل الطبقات العليا، وآخر يمثل العامة. يوجد أناس متميزون ثقافيا وعلميا واجتماعيا في كل مجتمع، النبلاء مثلا. إذا تساووا بعامة الشعب، يكون لهم صوت واحد مثل الباقين.

من ثم يفقدون اهتمامهم بمساندة الحكم. وتكون معظم القرارات الشعبية في غير صالحهم. لذلك يجب أن يكون لهم الحق في مقاومة إساءة استعمال عامة الشعب للسلطة.



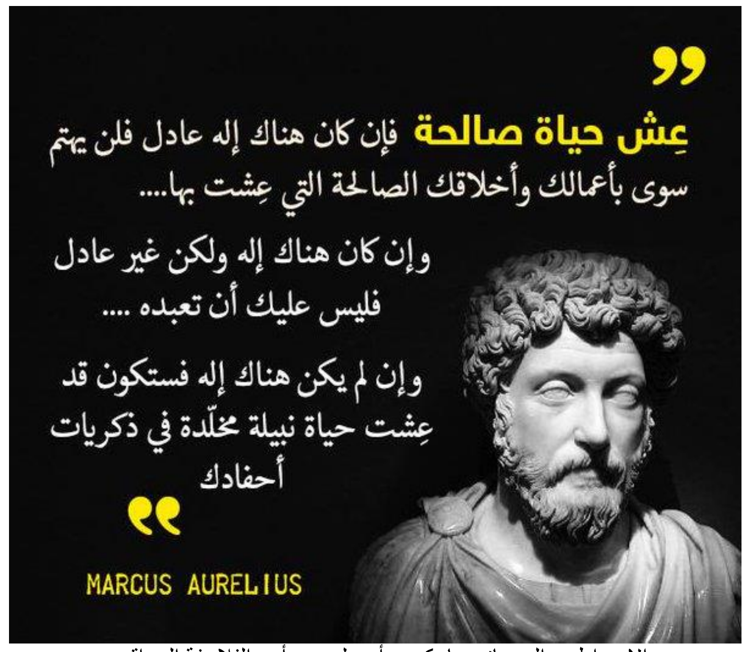
فصل السلطات في النظام الرئاسي

في نفس الوقت، يكون للشعب الحق في مقاومة أي اعتداء على حريتة من الطبقات العليا. من هنا تكون السلطة التشريعية في أيدي النبلاء وأيدي الذين ينتخبهم الشعب متوازنة. على أن يكون لكل هيئة صلاحياتها وآراؤها، وتكون منفصلة عن الأخرى.

عندما تفصل السلطات الثلاث، ويراقب كل منها السلطتين الأخريين، تتحقق حرية المواطن، وتلتئم مع عدالة الحكومة. هذه الأفكار نجد جذورها عند هارنجتون والجرنو وسيدني وجون لوك. لقد وجد مونتسكيو ضالته في نظام الحكم الإنجليزي. فالملكية يكبح جماحها مجلس العموم. ومجلس العموم يكبح جماحه مجلس اللوردات.


مجلس اللوردات البريطاني

كان مونتسكيو معجبا بمذهب الرواقيين، ويعتبر القضاء علي مذهبهم محنة ابتلي بهاالجنس البشري. لأن هذا المذهب وحده، هو الذي صنع المواطنين وعظماء الرجال.



الامبراطور الروماني ماركوس أوريليوس، أحد الفلاسفة الرواقيين

الحرية عند مونتسكيو حق لكل إنسان، طالما كانت في ظل القانون. وكان يستنكر الرق لأسباب أخلاقية.



الحرية حق لكل إنسان

كان يعترف مونتسكيو بالله كعقل تعبر عنه قوانين الطبيعة وروح القوانين. لكنه يعتقد أن المعجزات لا تلائم طبيعة الإنسان. لا يمانع من وجود شرائع دينية تكمل القوانين المدنية، بشرط أن لا تلغيها.

وجود القوانين المدنية تحد من استبداد الشرائع الدينية. كما يجب أن تكون الدولة والكنيسة كل منهما رقيبة على الأخرى، حتي يحدث التوازن.



فصل الدين عن الدولة حتى يحدث التوازن


ديدرو

في سنيه الأخير، حينما كان مونتسكيو مصابا بالعمى أو يكاد، قصد إلى باريس لإنهاء عقد إيجار بيته، لكنه أثناء الزيارة أصيب بالتهاب رئوي كان سبب وفاته في 10 فبراير عام 1755م، وهو في سن السادسة والستين. الأديب الوحيد الذي اشترك في تشييع جنازته، هو ديدرو.


جيبون

كتب جيبون:
"على مدي أربعين عاما منذ صدور روح القوانين، لم يقبل الناس على قراءة كتاب أكثر منه".

لقد استفاد كل من جيبون وبلاكستون وبيرك من كتابات مونتسكيو. وعدّه فردريك الأكبر أحسن الكتب بعد كتاب الأمير.

ورأت كاترين الثانية، امبراطورة روسيا العظيمة، أنه ينبغي أن يكون كتاب الصلوات اليومية للملوك.


كاترين العظيمة امبراطورة روسيا

لقد أصبح كتاب روح القوانين الكتاب المقدس عند زعماء الثورة الفرنسية. ونقل واضعوا مسودة الدستور الأمريكي عن مونتسكيو نظريته في فصل السلطات، ومبدأ استبعاد الوزراء وموظفوا الحكومة من عضوية المجالس النيابية.

على مدى جيل واحد من الزمان، كان مونتسكيو، لا فولتير، هو صوت العقل وبطله في فرنسا. كما يقول "وول ديورانت"، صاحب كتاب قصة الحضارة.

4

فولتير (1694-1778م)

قابل فيليب الثانى، الوصى على العرش الفرنسى، أيام لويس الخامس عشر، فولتير في أحد الحدائق العامة في يوم من الأيام وقال له: "سيد أرويه، أراهن على أننى أستطيع أن أريك شيئا لم تره من قبل" فقال فولتير: "ماهو؟" أجاب الوصي بسرعة: "سجن الباستيل من الداخل" وبالفعل، كان فولتير داخل الباستيل في اليوم التالي. فمن هو فولتير هذا؟



فولتير


دوق دي روشيليو

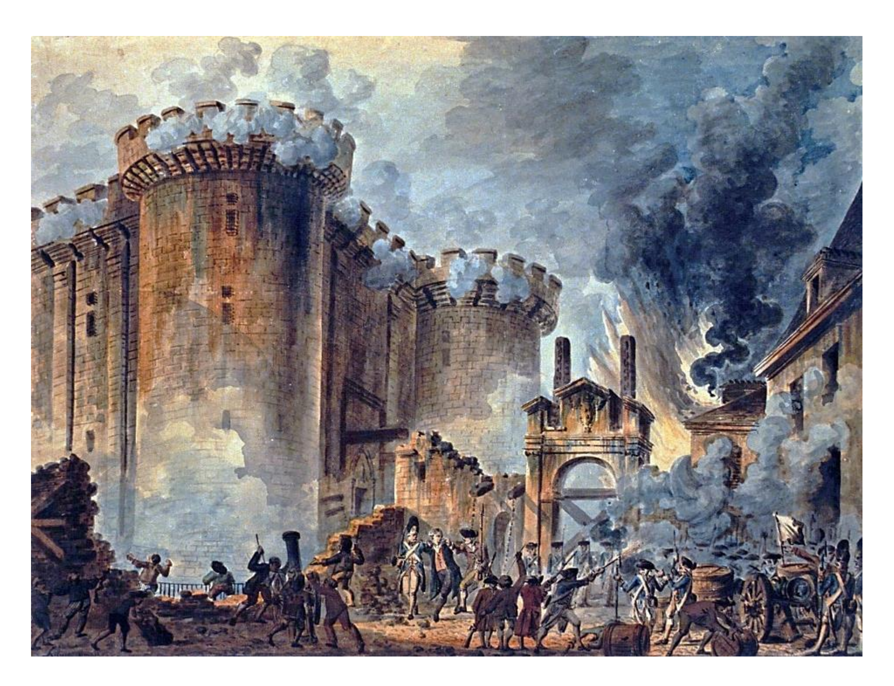
هو كاتب، وشاعر، وفيلسوف. يعده الأوروبيون واحدا من أبرز أدباء حركة التنوير في القرن الثامن عشر. اسمه الأصلي "فرانسوا ماري أرويه". ولد في باريس(1694-1778م). نشأ في وسط بورجوازى معارض. كان يعمل والده محاميا لدى دوق "دي روشيليو" ودوق "دى سان سيمون".

تعلم في معهد يسوعي، ودرس الأدب اللاتينى واللغات والمسرح. ورفض دراسة القانون وفضل دراسة الأدب والاشتغال به. عمل لفترة مساعدا لسفير فرنسا في لاهاي ثم عاد إلى باريس سنة 1714م.


فيليب الثاني الوصي على العرش

ثم عمل فترة أخرى في مكتب موثق عقود حيث تعرف خلالها على بعض النبلاء، وراجت بينهم أشعاره الساخرة، خصوصا ما كان يقرظه في هجاء "فيليب الثاني" الوصي على العرش. فتم سجنه بسبب ذلك لمدة عام في سجن الباستيل سنة 1716م.

في سجن الباستيل، اتخذ اسم "فولتير" لقلمه. وكتب أيضا ملحمته "هنرياديه"، التي تروي في الظاهر، قصة حصار "هنري الثالث" لباريس عام 1589م، لكنها بين سطورها، تنتقد السلطة الدينية في عصره.



سجن الباستيل

كان لا يسمح له بورق كتابة داخل السجن. فكان يكتب بين سطور أحد الكتب المطبوعة. أفرج عن فولتير في إبريل 1718م. عندما قرر الوصي على العرش أن سنة كاملة في سجن الباستيل تعتبر ثمنا عادلا لكتابة أغنية.

كتب مسرحية "أوديب" فلاقت نجاحا كبيرا، عرضت في أحد مسارح باريس لمدة 45 يوما متتالية، وهذا أمر لم تبلغه مسرحية أخرى في تلك الأيام. اعترف به كأعظم شاعر في فرنسا. وبلغت شهرته الآفاق، وأصبح حديث صالونات باريس.

في أحد حفلات العشاء، أشار إليه النبيل "شيفاليه دى روهان شابوت" متسائلا: "ما اسم هذا الشاب ذو الصوت العالي؟" فجاء الجواب سريعا من فولتير: "سيدي اللورد،

إنه واحد من اللذين لا يجرون أسماء طويلة خلفهم، لكنه يستطيع أن يحمي ويشرف الإسم الذي يحمله".

بعد يومين، قام اثنان من البلطجية، كان قد استأجرهما شيفاليه، بضرب فولتير علقة ساخنة. في اليوم التالي، ظهر فولتير في المسرح يعرج وهو مضمد بالأربطة. اقترب من شيفاليه، وقد كان حاضرا، طالبا منه المنازلة.

لم يكن شيفاليه خبيرا باستخدام السيف، لذلك تجنب المبارزة. لكنه في نفس الوقت رتب مع السلطة أمرا بالقبض على فولتير. في عام 1726م، وجد فولتير نفسه مرة ثانية في سجن الباستيل، لكن بعد عدة أسابيع، أفرج عنه بشرط أن يذهب إلى المنفي في إنجلترا.

كانت هذه نقطة تحول خطيرة في حياته. بذلك تكون أيام التهريج والفوضى قد ولت إلى غير رجعة، وجاء وقت النضج والمسؤولية. أصبح بحر المانش يفصل بين عهدين في حياته. عهد الهزل وعهد الجد.

بحر المانش أصبح يفصل بين عهدين

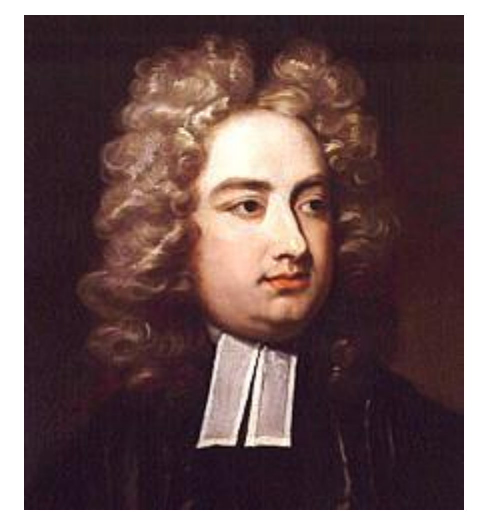
تحول نفي فولتير إلى إنجلترا من عقاب إلى مكافأة. فقد أصبحت إنجلترا لفولتير بمثابة وطنه الثقافي الرئيسي كما كانت "لإراسموس (Erasmus)" في القرن الخامس عشر.



ألكساندر بوب يكتب بدون خوف

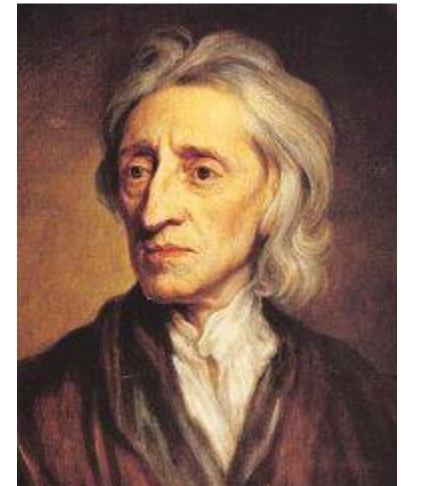
في عامه الأول، لاحظ أن صديقاه، "ألكساندر بوب" و"جوناثان سويفت"، يكتبان ما يحلو لهما بدون خوف أو مطاردة من السلطات.

فكتب إلى أحد أصدقائه: "هنا في إنجلترا يمكن للإنسان أن يستخدم عقله بدون خوف أو تذلل. هنا يوجد شعب مستقل ومتحضر، ثار على نظام الحكم القديم. فلا يوجد سجن الباستيل، ولا يوجد اضطهاد ديني.



جوناثان سويفت

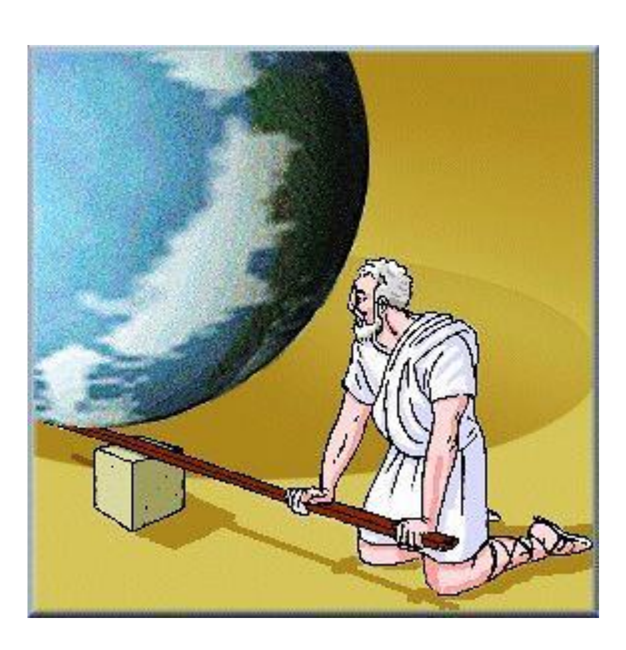
قام فولتير أثناء نفيه إلى فرنسا، بدراسة الدستور البريطاني، الذي يكفل الحرية والتسامح لكل الطبقات. وقضى وقتا كبيرا مع "بولنجبروك" و"سويفت" و"بوب" و"كونجريف".



درس بعمق مسرح شكسبير وفلسفة "لوك" ونظريات "نيوتن" العلمية. وتأثر تأثرا كبيرا بكتاب "الفهم الإنساني" "لجون لوك"، ومعقولية "فرانسيس بيكون"، وأفكار الإصلاح "لتيندال".

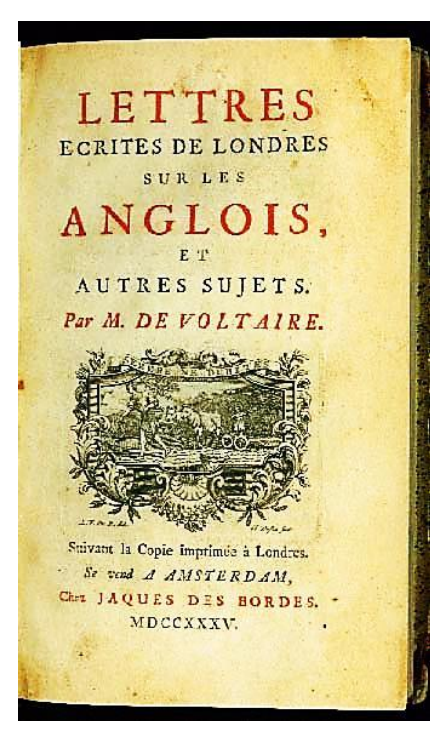
جون لوك

لقد حلق فولتير في عالم آخر من القيم الرفيعة الراقية. هنا أصبح الشاعر، مؤرخا وفيلسوفا. بعد أن اتسع أفقه، اتسع معه أفق القارة الأوروبية كلها. قال عنه "جورج برانديس": "أعطته إنجلترا نقطة إرتكاز أرشميدس خارج فرنسا، ومنها استطاع أن يرفع فرنسا ومعها القارة كلها".



أعطت إنجلترا فولتير نقطة إرتكاز أرشميدس

لكن أهم شئ في هذه القصة، هي إحساسه بالحرية في بلد حر ديموقراطي. الحرية الإنجليزية أصبحت بالنسبة له مثلا أعلى. هنا، لا أحد يمكن أن يفقد حريته بأي سلطة من السلطات. ولا أحد يمكن أن يعاقب بدون محاكمة.



LETTRES
ECRITES DE LONDRES
SUR LES
ANGLOIS,
ET
AUTRES SUJETS.
Par M. DE VOLTAIRE.

Suivant la Copie imprimée à Londres.
Se vend A AMSTERDAM,
Chez JAQUES DES BORDES.
MDCCXXXV.

رسائل عن الإنجليز

هنا حرية كاملة للكتابة والخطابة والصحافة. تسامح ديني كامل بين الأديان المختلفة. لقد رأى الآن الفرق بين نظامين. بدا واضحا في كتابه "رسائل عن الإنجليز" التي تعتبر نقطة انطلاق، وبداية الثورة الفرنسية.



لقد كتب، بالنسبة للحرية الدينية عند الإنجليز، أن الرجل الإنجليزى، يذهب إلى الجنة عن طريق الدرب الذي يختاره هو بمحض حريته.

بالنسبة للحرية السياسية، يقول إن إنجلترا هي البلد الوحيد على سطح الكرة الأرضية الذي تحجم فيه سلطة الملوك. فالحاكم تترك له كل السلطات لفعل الخير، وفي نفس الوقت تكبل يداه عن فعل الشر.

مدة النفي في إنجلترا كانت ثلاث سنوات. بعدها عاد فولتير إلى فرنسا. ليكتشف أن السلطات كانت قد أعدت أمرا كتابيا باعتقاله. وحتى لا يعيش مع فئران الباستيل مرة أخرى، فر هاربا من باريس.



الماركيزة دو شاتليه

اختبأ في سيريه عند الماركيزة "إيميلي دو شاتليه" التي وقع لتوه في غرامها.



لويس الرابع عشر

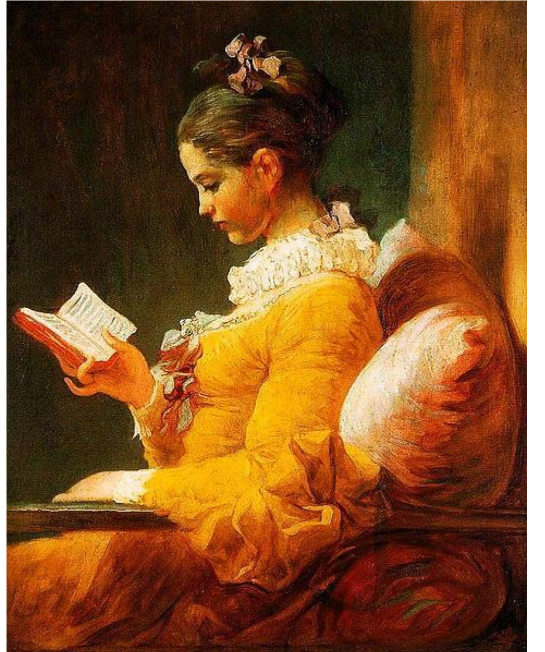
أقام عندها مدة 16 عاما. كانت كلها سنين إنتاج وسعادة. في خلالها، كتب تراجيديتيين وروايتين وكتاب عن حياة وعصر "لويس الرابع عشر" وبحث عن السلوك.

التاريخ الحديث لم يبدأ بكتابات "ويلز" و"روبنسن"، إنما بدأ بكتابات فولتير. هو أول من أضاف البعد الإنساني للتاريخ. وأول من صاغه على هيئة عمل درامي، وليس مجرد سرد لحقائق وتواريخ جامدة وأسماء معارك وملوك.



التاريخ من منظور إنساني

لقد رأي فولتير التاريخ من منظور التطور والنمو الإنساني. لذلك يعتبر فولتير أبو التاريخ الحديث عن جدارة.



عصر لويس الرابع عشر عصر إنجاز للفنانين والعلماء

لوحة للفنان الفرنسي جان اونوريه فراجونار

كان عصر لويس الرابع عشر بالنسبة له، عصر إنجاز للفنانين والعلماء والفلاسفة، لا عصر المغامرات الحربية والمناورات السياسية.

وقد كتب فريدريك الأكبر عن فولتير: "كتاباته التاريخية تعتبر كنوز للعقل. تدل على عبقرية في التأليف، وشرفا للعصر الذي نعيش فيه وللعقل الإنسانى بمجمله"



بوتسدام في ألمانيا

ذهب فولتير بناء على دعوة "فريدريك الأكبر" إلى بوتسدام في ألمانيا.

لكنه لم يستقر بها طويلا بسبب غيرة المنافسين وحسد الحساد. ذهب بعد ذلك إلى جينيف وقام بشراء فيلا على بحيرة هناك. لكنه لم يستقر بها أيضا بسبب الاضهاد الديني له. فقرر ترك جينيف والذهاب إلى فيرني، حيث قام ببناء وحدات سكنية للعمال ومصانع صغيرة، وقام بزراعة 4 آلاف شجرة، وتوظيف المئات من العمال اللاجئين.



الفيلسوف ليبنتز

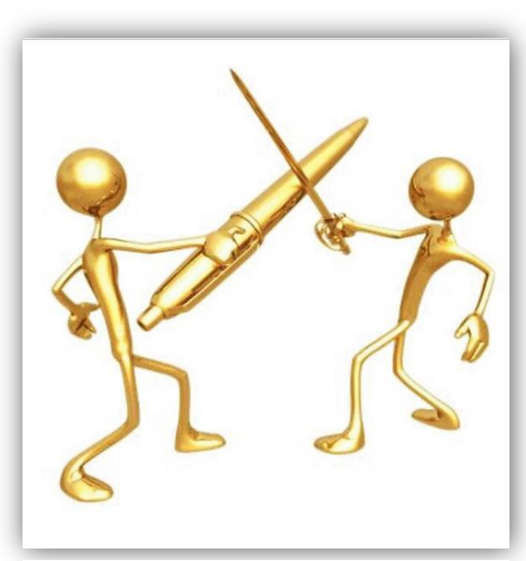
في هذه الأثناء كتب أشهر أعماله، رواية "كانديد". التي يسخر فيها من فلسفة "روسو" و"ليبنتز".

نحن نعيش في عالم، ليس فيه كل شئ على ما يرام. الحلول لا تكون إلا باستخدام العقل والعلم. رواية كانديد تمثل البحث عن شئ ذات معنى، في عالم مجنون مجنون مجنون.



عالم مجنون، أصل أنا عندي شعرة ساعة تروح وساعة تيجي، من فيلم اسماعيل يس في مستشفي المجانين

السلاح الوحيد الذي يمكن استخدامه ضد القوة الغاشمة والسلطة المستبدة، هو القلم والعقل والذكاء. القلم أمضى من السيف.



القلم أمضى من السيف

كانت كتاباته تتسم بالدقة والوضوح. هو أسلوب نجده واضحا في كتابات "فلوبرت" و"رينان" و"أناضول فرانس".

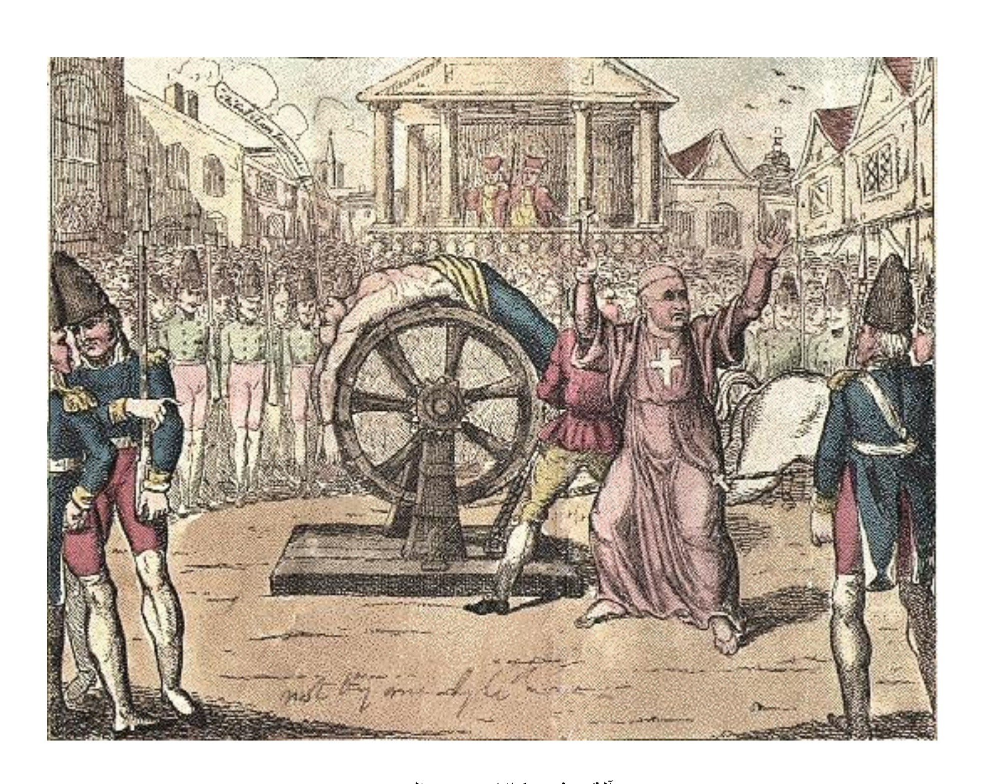
كان المسيحيون البروتستانت في تولوس فرنسا غير مسموح لهم بمزاولة مهنة الطب أو المحاماة، أو امتلاك محلات بقالة أو مكتبات، أو حتى مزاولة مهنة المولدات. في يوم من الأيام، ترك "مارك كالاس" الابن عائلته وذهب إلى أقرب كوخ ليشنق نفسه.

جاءت الشائعات تتهم "جين كالاس" الأب البروتستانتي الديانة، بقتل ابنه مارك بسبب تحوله إلى الكاثوليكية.


Jean Calas

سرعان ما تم القبض على الأب وباقي العائلة. حكم على الأب، بعد محاكمة سريعة غير عادلة لم يسمع فيها شهود النفي، بالتعذيب والإعدام.

تعرض الأب المسكين لعمليات تعذيب تفوق الوصف. فقد نزعت عظام يديه ورجليه من مفاصلها بآلة خاصة. وكان يضرب بقضبان الحديد على صدره لتحطيم ضلوعه. وزبانية الجحيم تراعي بقاؤه أطول مدة حيا حتى يتجرع من الآلام والعذاب أشده وأقساه. ثم بعد ذلك تم شنقه وحرق جثته.



آلة تعذيب كالاس حتى الموت

عندما وصلت الأخبار إلى فولتير، استشاط غضبا. أيقن أن بريئا تم تعذيبه وقتله شر قتلة ظلما. فقرر تبني هذه القضية والدفاع عن شرف هذه الأسرة وإعادة الاعتبار لها. فقام بالتفرغ لهذه القضية لمدة ثلاث سنوات متصلة. أخذت كل وقته وفكره وجزءا من ثروته.

قام خلالها بالاتصال بكل أصدقائه أصحاب النفوذ. منهم ملك بروسيا وامبراطورة روسيا. وأقنع الصحافة الإنجليزية بتبني القضية ونشرها في كل أوروبا. أخيرا نجح في إعادة المحاكمة بقضاة محايدين. قاموا بسماع شهود النفي لأول مرة. وانتهت بتبرئة الأب الذي قتل ظلما بسبب التعصب وضيق الأفق.

أعلن فولتير منذ ذلك الوقت الحرب على التعصب وعدم التسامح الديني الذي استعبد أوروبا آلاف السنين. كان يقول: "كفي حرق الكتب، والإطاحة برؤوس الفلاسفة وإعدام الأبرياء بحجة أنهم يدينون بديانات مختلفة. هذا عار يجب أن يمحى. الإنسان يحب أن يتحرر من خرافات العصور الوسطى، ومن سلطة الحكومة الدينية. الإنسان يجب أن يحكم بالحجة والعقل."

في رسالته عن التسامح الديني وفي كتابه قاموس الفلسفة، يؤكد حرية العقيدة، والأخوة الإنسانية. وينتقد الخطاب الديني الرسمي. وينادي بفصل الدين عن الدولة. ويبتهل إلى الله بالدعاء التالى:

"إلهي، ألتجئ إليك يا خالق كل شئ، أن لا تجعل الكره والبغضاء يستشري بين البشر، بسبب الفروق التافهة بين ملابسنا أو قوانيننا، أو لغاتنا المختلفة أو عاداتنا المضحكة أو آرائنا الغبية أو مراكزنا الإجتماعية. هذه فروق تبدو عظيمة لنا بسبب جهلنا، ولكنها متساوية وليست فروقا على الإطلاق بالنسبه لك. فاجعلهم يتذكرون دائما أنهم لايزالون إخوة وأخوات"



ألتجئ إليك يا خالق كل شئ أن لا تجعل الكره والبغضاء يستشري بين الناس بسبب اختلاف ملابسهم وعقائدهم

إيرانيات عام 1934م

تأتى النهاية في 30 مايو 1778م. لكن الكنيسة تقوم برفضت مراسم دفنه. فقام أصدقاؤه بدفنه خلسة في سيليريه. بعد 13 سنة، في عام 1791م، عندما كانت الثورة الفرنسية في أوجها، أصدرت الجمعية الوطنية الفرنسية أمرا بنقل جثمان فولتير إلى البانثيون إلى جوار رفاة "جان جاك روسو" وباقي عظماء فرنسا، وسط مراسم دفن عظيمة حضرها 600 ألف فرنسي. كتبت على عربة الدفن هذه العبارة: "شاعر وفيلسوف ومؤرخ. أعطى العقل الإنساني دفعة هائلة، وأعدنا للحرية"

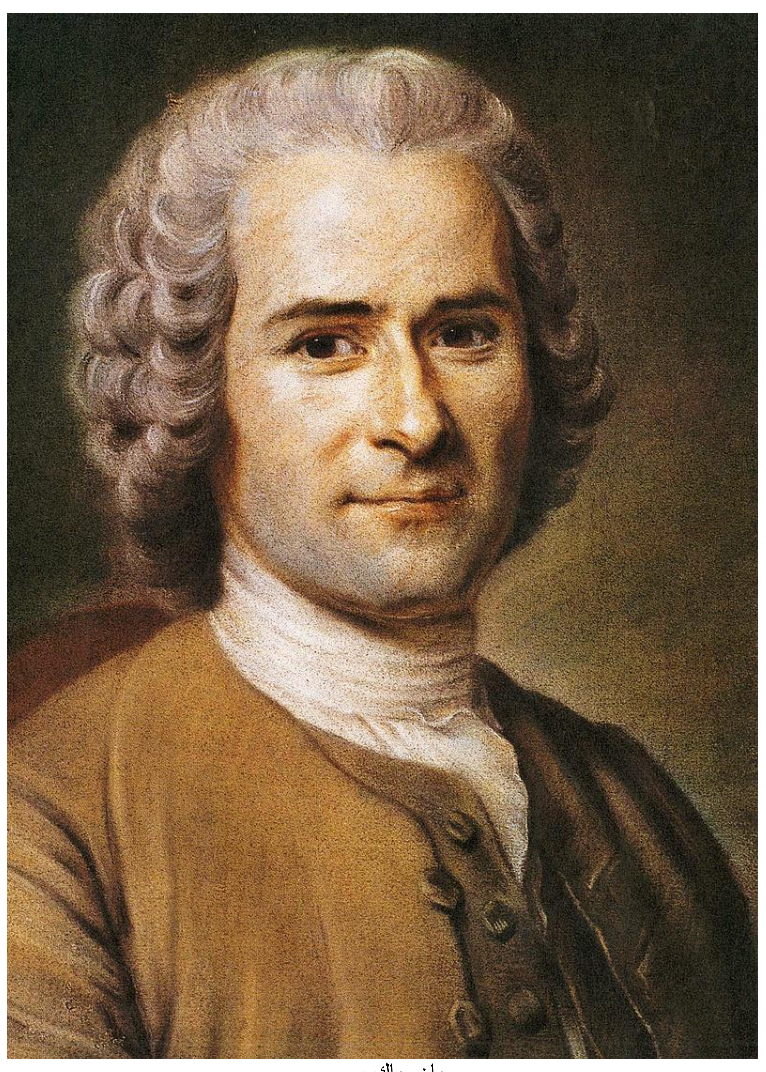
هذا الرجل، كتب يوما إلى "جان جاك روسو": "أنا لا أتفق مع كلمة واحدة تقولها. لكنني أدافع حتى الموت عن حقك في قولها"

على قبره، كتبت لافتة تقول: "حارب المتعصبين والمتزمتين، ودعا إلى روح التسامح الديني، وطالب بحقوق الإنسان ضد العبودية، وحارب نظام الإقطاع. شاعر، ومؤرخ، وفيلسوف. جعل آفاق النفس البشرية تتسع، وتتعلم معنى الحرية ."

5

جان جاك روسو (1712-1778م)

جان جاك روسو، فيلسوف ومفكر وأديب وموسيقي، ورائد من رواد حركة التنوير، التي مهدت للثورة الفرنسية عام 1789م. مؤلف كتاب العقد الإجتماعي الذي يعتبر أهم مصدر من مصادر الفكر السياسي الحديث في العالم اليوم.



جان جاك روسو

عاش فقيرا بائسا ومات فقيرا معدما، لا يملك شروي نقير. اضطر إلى إرسال أطفاله الخمسة فور ولادتهم واحدا تلو الآخر إلى الملجأ لعدم قدرته على إعالتهم ورعايتهم صحيا. رفض تلقي راتبا من أحد الملوك، أو أي راتب آخر بدون أجر، على خلاف الكثير من معاصريه الفلاسفة والأدباء.

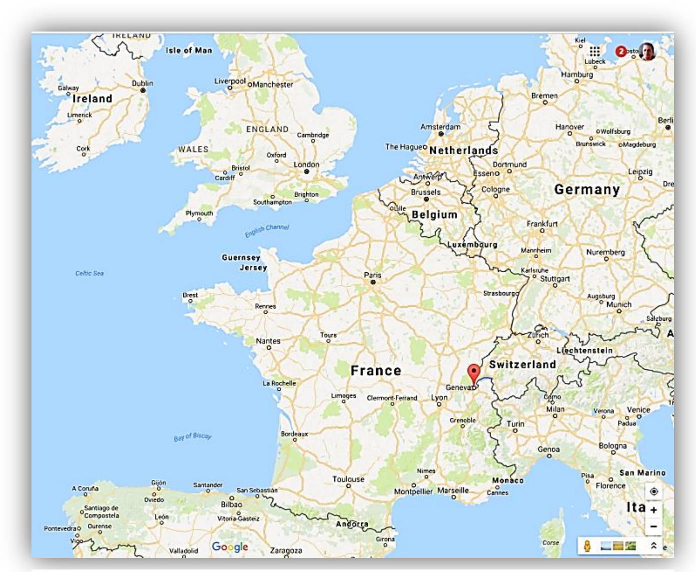
عندما تقرأ أعماله، تجد فيها الصفاء والنقاء والصوفية.



أعماله فيها الصفاء والنقاء والصوفية

هو يدعو إلى تنوير متوازن يراعي الجسد والروح، العاطفة والعقل. يسحرك حين يتحدث عن الإخاء والمساواة بين البشر. فمن هو جان جاك روسو هذا؟

ولد جان جاك روسو في مدينة جنيف بسويسرا عام 1712م.



مدينة جنيف بسويسرا

عائلته من أصل فرنسي. ووالده ساعاتي ومعلم رقص في نفس الوقت. توفيت والدته بعد مولده بثمانية أيام. قام الوالد بتعليم طفله جان جاك القراءة والكتابة حتى سن السادسة.

كان يقرأ الأب لولده بعد العشاء كتب الأطفال وقصص المغامرات. بعد ذلك كان يقرأ له كتب جده، لمؤلفين مثل فونتنيل وأوفيد ومولير وبلوتارك. وهي مطالعات أثّرت في ثقافتة المبكرة.

الأخ الأكبر لجان جاك، ترك منزل العائلة في سن الثالثة عشر بغير رجعة. أما الأب إسحق روسو، فبعد مشاجرة مع ضابط فرنسي، هرب من ملاحقة العدالة. تاركا جان جاك، وهو في سن العاشرة، في رعاية عمه، الذي أرسله إلى مدرسة داخلية في بوساي، كان يرأسها قسيس بروتستانتي. مكث بها سنتين، عاد بعدهما إلى جنيف.

أُرسل جان جاك لكي يتعلم مهنة حرفية يتكسب منها عند نقّاش عنيف أناني، كان يمنع عنه الطعام حتى تعلم السرقة. لكنه في ذلك الوقت كان قد أولع بالمطالعة ولعا شديدا. لذلك، قرر ترك جينيف والهرب من النقّاش.

في سن السادسة عشر عام 1728م، كان يهيم على وجهه في الحقول بغير مأوى. وبتوصية من الأب يونفير، أُرسل إلى السيدة المحسنة مدام دي وارانس، التي تقيم في مدينة أنس.

كانت مدام دى وارانس بروتستانتية تزوجت في سن مبكرة ولم توفق في حياتها الزوجية التي دامت 12 سنة، ثم تحولت إلى الديانة الكاثوليكية. كانت تتعيش على الراتب الذي قرره لها ملك سردينيا نظير تحويل الناس من المذهب البروتستانتي إلى الكاثولويكي.

قام جان جاك بالتحول إلى الكاثوليكية. بعد عدة مغامرات غير ناجحة، عاد إلى مدام دي وارانس التي لم ترغب في أن تبقيه عندها. فأرسلته إلى إحدى المدارس الإكليركية لكي يلتحق بجوقة الكاتدرائية الموسيقية.

في هذه الأثناء ، تعرف على أسقف يوناني كان يجمع التبرعات للقبر المقدس، واتخذ جان جاك سكرتيرا له في تجواله. لكن سرعان ما تم القبض على الأسقف بتهمة النصب والاحتيال. عندما تبينت براءة روسو، تم الإفراج عنه.

ظل روسو يهيم على وجهه بين المدن. تعرف على راهب كلفه بنسخ قطعا موسيقية بأجر لا بأس به. ثم وجد عملا في دائرة مساحة في شامبيري. لكن حبه للموسيقى جعله يدرس ويمارس الموسيقى بجانب عمله في المساحة، وكان ينظم حفلا موسيقيا كل شهر بمساعدة مدام دى وارانس.

هذه الأيام السعيدة بالقرب من مدام دى وارانس، التي كانت تسبغ عليه عطفها وحنانها لم تدم. فقد تبين له أن قلب السيدة مضيفته مشغول بفتى سويسري ضخم البدن أشقر الشعر مفلطح الوجه يعمل مزين. لذلك كان عليه إخلاء مكانه كحل وحيد.

سافر روسو غير آسف إلى لكي يعمل معلم خصوصي في مدينة ليون. بعد سنة في وظيفته الجديدة، حاول مساعدة مدام دي وارانس بعد أن أصابها ضنك مالي عسير. فكر في ابتكار نوتات موسيقية جديدة تستند إلى الأعداد. ظن أنه قد يحصل على ثروة من نشر تلك النوتات. إلا أن المجع العلمي لم يجد طريقة روسو عملية أو مفيدة.

وجد روسو وظيفة سكرتير لدى سفير فرنسا في البندقية، إلا أنه لم يستمر طويلا في هذه الوظيفة، فعاد إلى فرنسا لزيارة والده. هناك تعرف على زوجته تيريز لوفاسور التي تعمل في غسل الملابس والبياضات في أحد الفنادق. لم تكن تيريز تعرف القراءة أو الكتابة. حاول عبثا تثقيفها لكن دون فائدة. كانت والدتها تسعى لاستغلاله بالقيام بأود سبعة أو ثمانية أشخاص من أقربائها.

حاول روسو فتح بعض أبواب الرزق له. أقيمت له حفلة موسيقية لعزف بعض أغنياته بدون نجاح.


خشي على حياة أطفاله الخمسة من الفقر والفاقة فأودعهم في الملاجئ

عند ولادة طفله الأول من تيريز، خشي على حياة الطفل من الفاقة والمرض، لذلك بادر إلى إيداعه أحد الملاجئ. فعل نفس الشئ بالنسبة لباقي أطفاله الخمسة من تيريز.

كانت نسبة الوفيات في الملاجئ تصل إلى 50%. عندما استعلم روسو عن مصير أولاده بعد عشر سنوات، لم يقتفي لهم على أثر. عندما صار مشهورا وصاحب نظرية في التعليم وتربية الأطفال، استخدم منتقدوه حادث تخلصه من أولاده في نقده بشده، كان أولهم فولتير.

لا شك أن روسو ندم ندما شديدا فيما بعد، وذاق وخز الضمير. في كتابه إميل يقول: "لا فقر ولا أنشغال ولا حياء بشري ولا شئ من ذلك يستطيع أن يعفي الأب من أن يكفي أولاده معاشهم، ومن أن يقوم بتربيتهم هو بنفسه".


لا شئ يعفي الأب من مسؤولياته اتجاه أولاده



في عام 1749م عندما كان روسو يقترب من سن الأربعين، توثقت عُرى الصداقة مع الفيلسوف ديدرو القريب منه في السن، والذي يشبهه في ضنك العيش.

ديدرو

كان على صلة ب دالامبير وكونדياك. شارك ببعض المقالات في دائرة المعارف التي كان يصدرها ديدرو ودالامبير. ثم اشترك في مسابقة بمقال عن تأثير النهضة العلمية والفنية على الأخلاق، حصل بها على الجائزة الأولى. جاء فيه أن تقدم العلوم والفنون يفضي إلى فساد الأخلاق.

استعاد روسو جنسيته كمواطن في جنيف بعد أن ارتد إلى المذهب البروتستانتي، مذهب أجداده. ثم أقام مع زوجته ورفيقة عمره تيريز. كانت تيريز ملازمة له للعناية به، لأنه كان مريضا يشكو من نوبات المرارة وآلامها الحادة.

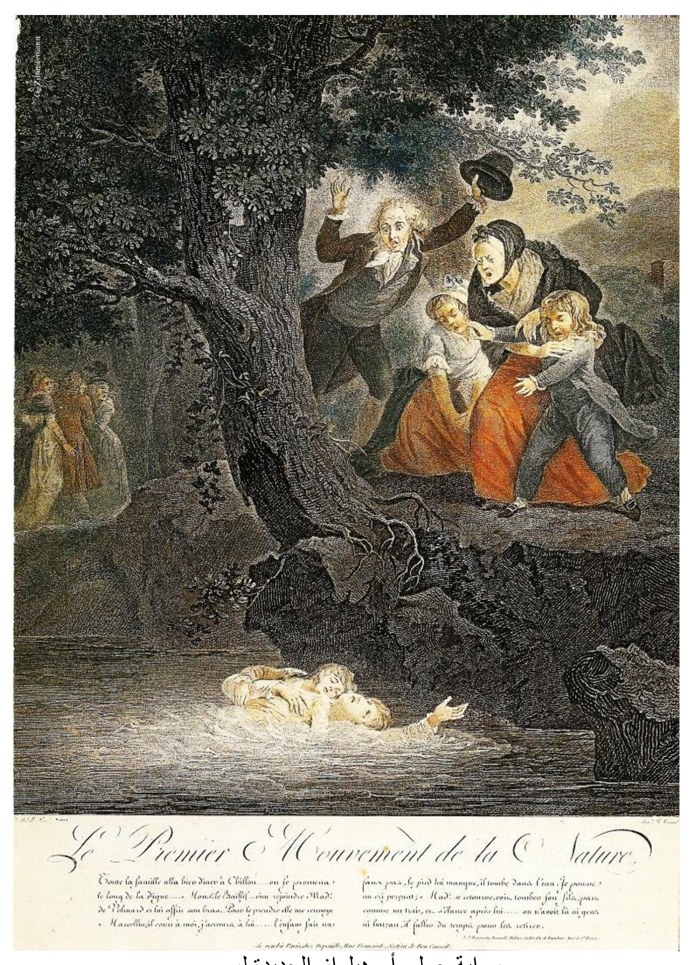


بعث بنسخة من دراسة قام بها لفولتير، كان موضوعها "التفاوت بين الناس". فأجابه فولتير: "...أنت تجعلنا مثل البهائم. يود الإنسان عندما يقرأ بحثك أن يمشي على أربع".

أجابه فولتير: أنت تجعلنا مثل البهائم

بعد ذلك، انتقل روسو إلى ضيافة المارشال دي لوكسمبورج وزوجته، وكتب أهم مؤلفاته. فأكمل رواية جولي أو "هيلواز الجديدة"، ونشر كتاب "العقد الإجتماعي" و"إميل". الرواية الأخيرة، إميل، أثارت ضجة وسخط المتدينين والملحدين والمسيحيين والفلاسفة على السواء.

قصة جولي أو "هيلواز الجديدة"، كان لها تأثير بالغ في تنبيه أوروبا لمفاتن الطبيعة وروائعها.



رواية جولي أو هيلواز الجديدة لروسو

فقد تميز روسو بالإحساس المرهف بجلال الجبال وجمال ألوان السماء. فهو قد ولد في أحضان أروع مناظر أوربا وقعاً في النفوس. كان قد مشى من جنيف متجولاً في سافوي عبر الألب إلى تورين، ومن تورين إلى فرنسا.



تميز روسو بالاحساس المرهف بجمال الطبيعة

استمتع بمشاهد الريف وأصواته وعبيره؛ وأحس بكل شروق شمس كأنه انتصار الإله على الشر والشك. وقد تصور توافقاً صوفياً بين حالات مزاجه والمزاج المتغير للأرض والهواء.



كل شروق شمس انتصار للإله على الشر والشك


عانقت نشوة حبه كل شجرة وزهرة، وكل ورقة عشب.


عانقت نشوة حبه كل شجرة وزهرة

تسلق الألب إلى نصف ارتفاعها، ووجد نقاء في الهواء، خيل إليه أنه يطهر أفكاره ويجلوها. وصف هذه التجارب بإحساس وحيوية جعلا تسلق الجبال في سويسرا، رياضة من أكبر رياضات أوربا. برواية جولي أو "هيلواز الجديدة"، بدأت الحركة الرومانسية تحديها للعصر الكلاسيكي.

أما كتاب روسو "العقد الإجتماعي" فهو أهم أعماله. يبين فيه الأساس القانوني للحكم الجمهوري. ما أن صدر عام 1762م، حتى أصبح أهم مصدر من مصادر الفكر السياسي الحديث في العالم الغربي.

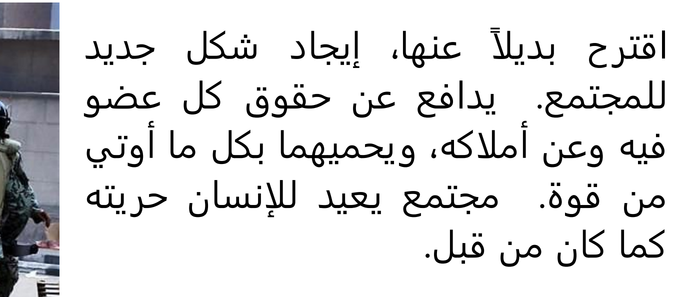

ولد الإنسان حرا لكنه مكبلا بالأغلال في كل مكان

كلنا يعرف الصيحة الجريئة التي استهل بها الفصل الأول: "ولد الإنسان حراً لكنه مكبلا بالأغلال في كل مكان". هذه العبارة أصبحت شعار قرن بأكمله.

افترض روسو وجود حرية و"حالة طبيعية" بدائية للإنسان لم يكن فيها يعرف قوانين أو قيود.


الدولة تدمر الحرية

اتهم الدولة القائمة وسلطاتها بتدمير تلك الحرية.


اقترح بديلاً عنها، إيجاد شكل جديد للمجتمع. يدافع عن حقوق كل عضو فيه وعن أملاكه، ويحميهما بكل ما أوتي من قوة. مجتمع يعيد للإنسان حريته كما كان من قبل.


مجتمع يدافع عن ويحمي حقوق كل عضو فيه

يقول روسو إن هناك عقداً اجتماعياً يأتي من اتفاق الأفراد على أن يخضِعوا رأيهم وحقوقهم وسلطاتهم، لإرادة مجتمعهم ككل. كل شخص يصبح طرفا في مثل هذا العقد، إذا قبِل حماية القوانين العامة التي تحكم هذا المجتمع.


العقد الاجتماعي يخضع الأفراد لإرادة المجتمع وكل فرد يصبح طرفا فيه

السلطة العليا في أي دولة، هي سلطة المجتمع، أو روح الجماعة. القانون يجب أن يعبر عن روح الجماعة لكي يصبح المجتمع الحر أمرا ممكنا. طاعة القانون، وليس طاعة الفرد، هي التي تحرر الإنسان من العبودية.

الدولة تصبح دولة متى حكمتها القوانيين. أما إذا كان الحاكم هو الذي يضع القوانين وينفذها، فليست هناك دولة، بل طاغية يحكم عبيدا.



إذا كان الحاكم هو الذي يضع القوانين فليست هناك دولة

رفض روسو فكرة "الاستبداد المستنير" أو "الحاكم العادل"، كسبب لدفع الحضارة والإصلاح.

العقد الإجتماعي يسمح بالملكية الخاصة بشرط رقابة الجماعة. يجب أن تحتفظ الجماعة بحقها في مصادرة الأملاك لخير المجتمع.


يجب إعادة توزيع الثروة حتى تحدث العدالة الاجتماعية

يجب أن تحدد الملكية وإعادة توزيع الثروة عن طريق الضرائب التصاعدية حتى تحدث العدالة الاجتماعية.

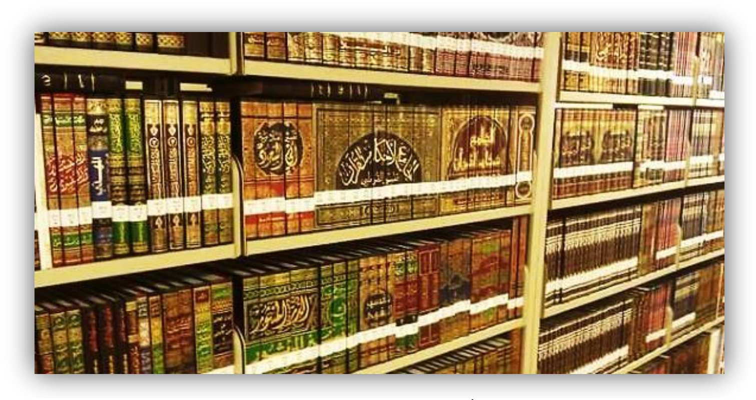
الأفراد يجب أن يكونوا متساوين في الحقوق الاجتماعية والقانونية. ويجب أن تفرض الضرائب العالية على الكماليات. ومن حق الشعب أن يطيح بحكومة تصر على مخالفة الإرادة العامة.



رجل الدين لا يجب أن يكون فوق القانون

الدين في رأي روسو، لا غنى عنه للفضيلة. وما قامت دولة بدون أساس ديني. إلا أن رجل الدين لا يجب أن يكون فوق القانون، حتى لا ينقسم ولاء الوطن بتعدد الأديان.

يختلف روسو مع رجال الدين في أن الدين يجب أن يكون بسيطا واضحا دون شروح ملتوية وتعقيدات.



الدين يجب أن يكون بسيطا دون شروح ملتوية

الدين يجب أن يركز على الإيمان بوجود إله قادر وحياة أخرى وعلى الخلق النبيلة. في نفس الوقت، يجب أن يمجد العقد الاجتماعي والقوانين الصادرة عنه. فروسو يتسامح مع الأديان التي تتسامح مع غيرها.

من يدعي أن دينه فقط هو الصواب، أو يقول بأنه لا يوجد خلاص خارج الكنيسة، يجب طرده من الدولة.

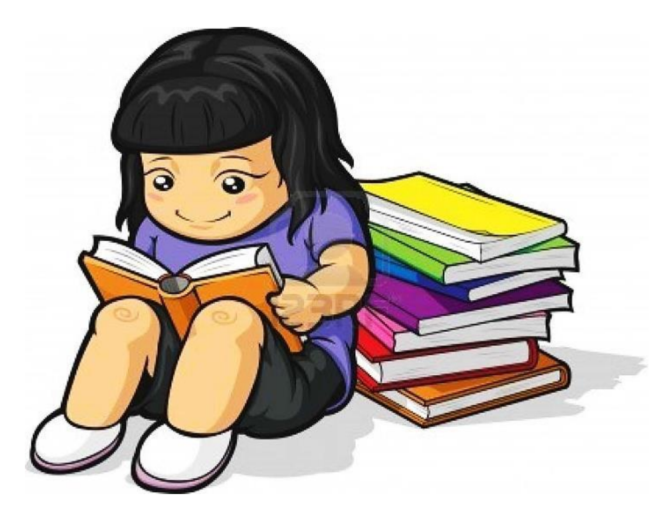


من يدعي أن دينه فقط هو الصواب يجب طرده من الدولة

لذلك يجب أن نقبل الدين على أنه في مجموعه هداية للبشر. لا حاجة بنا إلى أن نعلق أهمية كبرى على الفروق بين المذاهب والشيع التي مزقت الأديان. فكلها خير إذا حسّنت السلوك وغذّت الرجاء.

من السخف أن نفترض أن أصحاب العقائد والأديان الأخرى سوف يحكم عليهم بالهلاك، "فلو لم يكن على الأرض سوى دين واحد صحيح؛ ولو حكم على كل الخارجين عنه بالعقاب الأبدي..لكان إله ذلك الدين أظلم الطغاة وأقساهم."

في رواية "إميل" نرى رأي روسو في التربية والتعليم للأطفال. فهو يرفض الأسلوب الذي يعتمد على الحفظ لأفكار بالية فاسدة. والتي تحاول جعل الطفل آلة طيعة في مجتمع منحل. وتمنع الطفل من التفكير والحكم بنفسه.



يرفض روسو أسلوب التعليم الذي يعتمد على الحفظ

أسلوب الحفظ يشوه أفكاره ويهبط بمستوى قدراته إلى الحضيض. التعليم يجب أن يكون تجربة سعيدة للطفل، تنمي قدراته البدنية والعقلية وتقوده نحو حياة أفضل. تعتني بصحته وخلقه وذكائه وقدراته على التفكير.

لم يخلق البشر لكي يتكدسوا مثل كثبان الرمل. لكن لكي ينتشروا في الأرض ويفلحوها. كلما حشدوا معا فسدوا. المرض والرزيلة هما سمتان محتومتان للمدن المزدحمة.



المرض والرزيلة من سمات المدن المزدحمة

إذا استمر الحال على ما هو عليه، سوف ينحط الإنسان إلى الدرك الأسفل. مالم يجدد نفسه بالعيش في الريف والبعد عن الهواء الفاسد.

شجعوا أولادكم على حب الطبيعة والعيش في الخلاء وأكل ما يقومون بزرعه بأنفسهم، والإقلال من اللحوم. والإستيقاظ المبكر والنوم المبكر.



شجعوا أولادكم على حب الطبيعة

كتابه "إميل"، يعتبر أمتع كتاب ألف في التربية على الإطلاق.

لم يمض عشرون يوما على نشر كتاب "إميل" في هولاندا، حتى حكم عليه برلمان باريس بالحرق. وحكم على مؤلفه بالسجن عام 1762م. ففر روسو إلى سويسرا بلد الحرية، لكن بعد أربعة أيام من قدومه، حكم مجلس مدينة جنيف بمصادرة كتابين له. وفي عام 1764م، قذف الفلاحون بيته بالحجارة.

في عام 1766م، ذهب روسو إلى إنجلترا. فاستقبله دافيد هيوم الفيلسوف البريطاني، وأسكنه بالقرب من العاصمة لكي يكمل كتابه "اعترافاتي". لكنه بدأت تعتريه نوبات عصبية وهواجس. فقرر عام 1767م، العوده إلى فرنسا ضيفا على الماركيز ميرابو.



دافيد هيوم

ساءت حالة روسو الصحية بعد عودته إلى باريس، وفي عام 1778م، داهمته الوفاة بسبب مضاعفات مرض إلتهاب المرارة الذي كان يلازمه طوال حياته.


انطفأة شمعة التنوير عام 1778م بعد حياة كلها عذاب

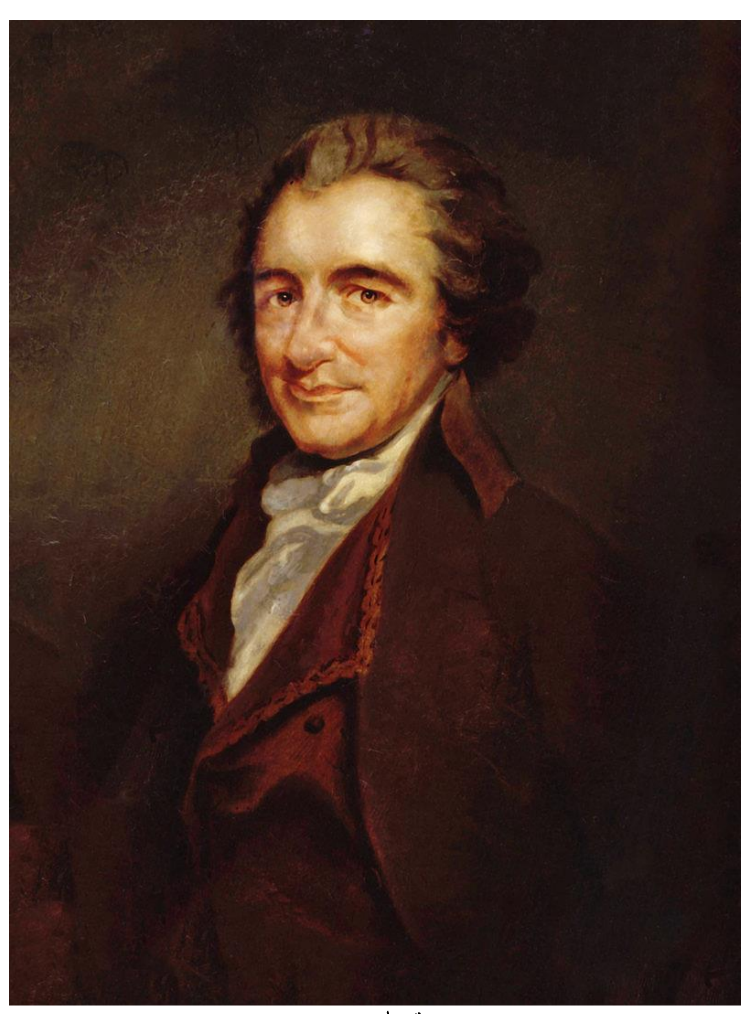
مات فقيرا بائسا غريبا بين البشر. وانطفأت شمعة من شموع التنوير، عاشت تتعذب وتحترق لكي تضئ للبشرية طريقها إلى الحرية والمساواة والسعادة.

في عام 1794م، قررت الحكومة الفرنسية نقل رفات روسو في إحتفال كبير إلى البانثيون حيث كانت رفات فولتير قد سبقته منذ ثلاثة أعوام.

6

توماس بين (1737-1809م)

عندما قال جون آدمز: "أينما توجد الحرية، يكون وطني" أجاب توماس بين: "لا، بل أينما تغيب الحرية، يكون وطني" هذا جواب رجل بدون وطن. كان كفاحه من أجل الحرية يشمل ثلاث دول.



توماس بين

توماس بين، كبريطاني، وضعت إنجلترا جائزة على رأسه. وكفرنسي، كان على وشك الصلب بالمقصلة. وكأمريكى، انتهي به الأمر إلى عدة تهم. هذا هو الرجل الذي أعطى الولايات المتحدة اسمها.

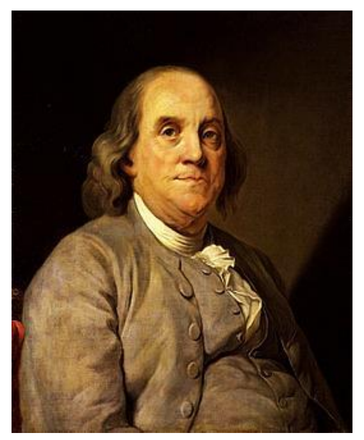
مؤلف كتاب "حقوق الإنسان"، الذي بين أن للإنسان في كل أنحاء الأرض، حقوق طبيعية، من الواجب حفظها وحمايتها.



للإنسان في كل مكان حقوق طبيعية

وهو أيضا مؤلف كتاب "عصر العقل" الذي حارب به الخرافات، والذي فشلت كتب التاريخ في تقديره حق قدره.

ولد توماس بين عام 1737م في إنجلترا لأسرة فقيرة . ترك المدرسة وبدأ عمله في الثالثة عشر من عمره، ثم عمل كمحصل جمركي في لندن في التاسعة عشر من عمره، غير أنه فصل من العمل بعد ذلك.



بنيامين فرانكلين

فقد زوجته الأولى بالوفاة، والثانية بالفصل القانوني. في عام 1774م، كان وحيدا فقيرا. نصحه بنيامين فرانكلين، عندما كان في لندن، بالتوجه غربا إلى أمريكا.

هناك عندما كان معظم الشباب مشغولين بتأمين مستقبلهم المالي والاجتماعي، كان توماس بين يهب نفسه كلية إلى خدمة الإنسانية.

عندما وصل توماس بين إلى فيلاديفيا في الولايات المتحدة، كتب في بعض المجلات مقالات تناهض الرق وتطالب بإلغائه.

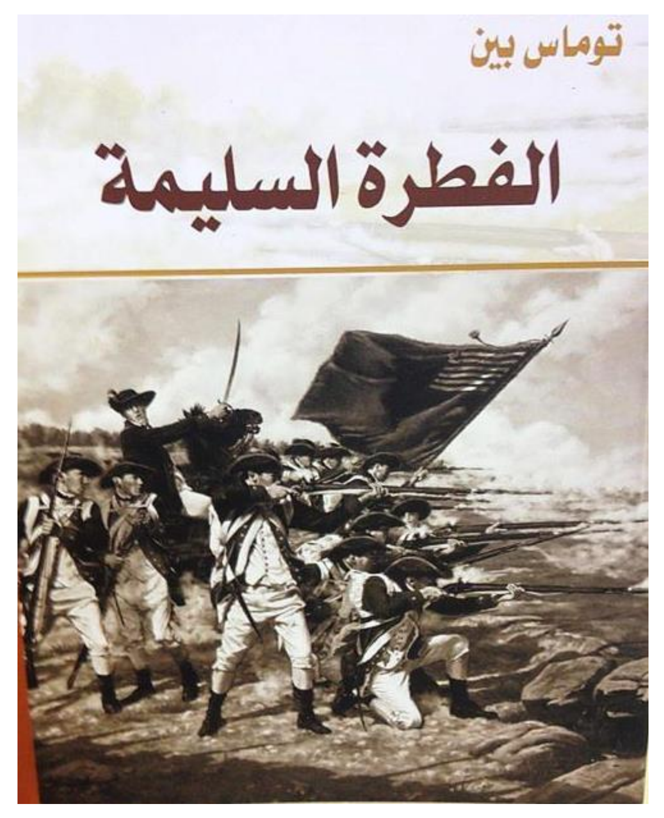


الرق في الولايات المتحدة

كانت صدق كتاباته تزيد من حجم توزيع المجلات. فتم تعينه مديرا لتحرير أحد المجلات. عندها قام بتحويل المجلة إلى منبر للإصلاح.


كتاباته كانت تسخر من المنازلة بين الأفراد

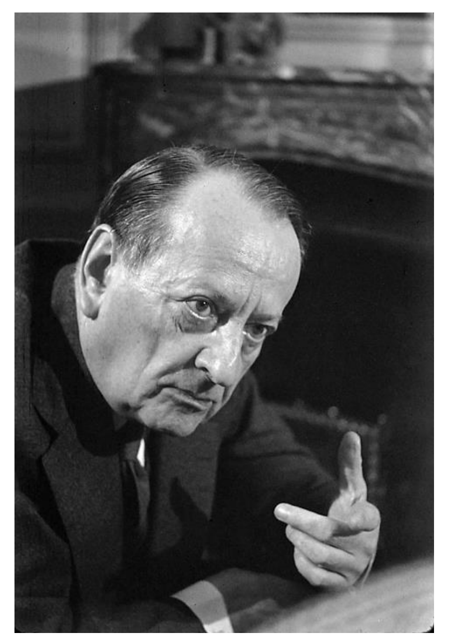
كانت كتاباته تنادي بإلغاء الحروب والرق، وتحارب الفقر، وتطالب بإصدار قانون دولي لحفظ حقوق المؤلفين، وتناهض الحكم الفردي، وتسخر من ممارسة المبارزة والمنازلة بين الأفراد.



كتيب الفطرة السليمة لتوماس بين

تنبه توماس بين، قبل واشنجطون وجيفرسون، بوجوب الاستقلال عن إنجلترا. وأصبح المتحدث باسم الولايات الأمريكية، بعد إصدارة كتيب "الفطرة السليمة – Commom Sense"، الذي ساهم مساهمة كبيرة بدوره في الاستقلال عن بريطانيا.

كتيب الفطرة السليمة، بيعت منه 120 ألف نسخة في ثلاث شهور. حصيلة هذه المبيعات، أعطيت إلى جورج واشنجطون للمساهمة في تسليح جيشه. لم يكن "توماس بين" يقبل أي دخل من كتاباته لنفسه، وكان يتبرع بها لتحقيق الهدف الأمريكي.


أندريه مارلو

كان كتاب "الفطرة السليمة"، بمثابة الطلقة التي سمع دويها في جميع أركان العالم. وكان بمثابة أول دعوة تنادي بالاستقلال عن إنجلترا. وكما قال أندريه مارلو الكاتب الفرنسي الكبير: "يرجع الفضل في الاستقلال الأمريكي إلى قلم "توماس بين"، وسيف جورج واشنجطون".

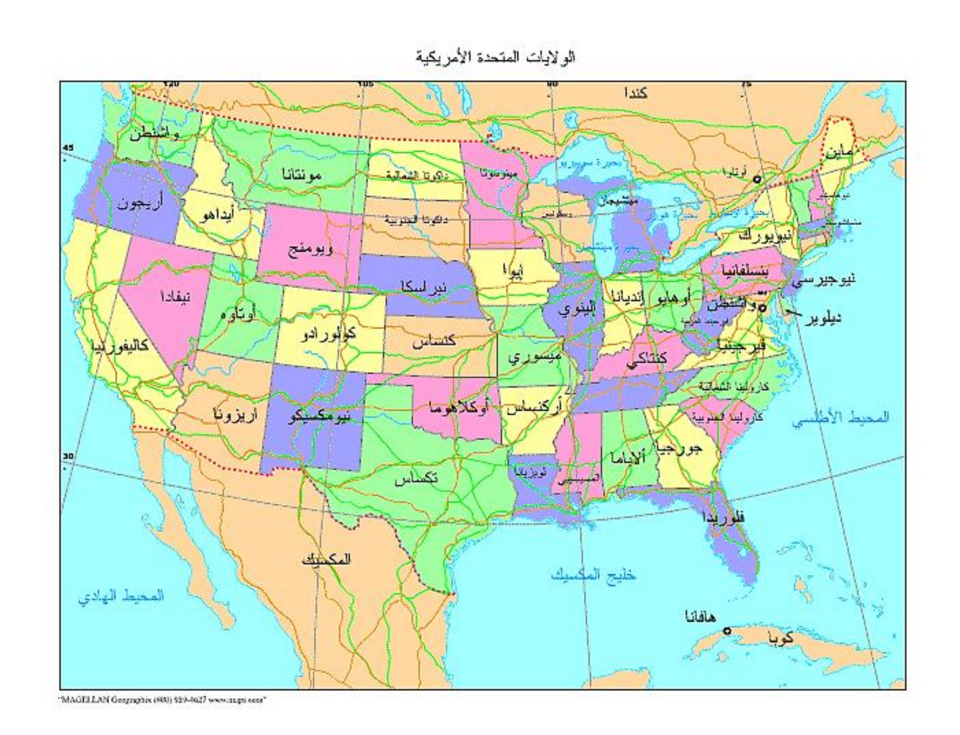
"مهما يقال عن من كتبوا وثيقة إعلان الاستقلال، إلا أن الكاتب الحقيقي لها هو توماس بين" لأن ما جاء في وثيقة إعلان الاستقلال الأمريكية، هي أفكار توماس بين التي جاءت في كتاب "الفطرة السليمة".

IN CONGRESS, JULY 4, 1776.

The unanimous Declaration of the thirteen united States of America.

وثيقة إعلان الاستقلال الأمريكية

كان توماس يطلب ويلح من جيفرسون أن تتضمن وثيقة الاستقلال، بندا ينص على إلغاء الرق. إلا أن هذا البند لم يمكن إضافته، بسبب معارضة ولايتي جورجيا وجنوب كارولينا.



بعد ذلك انضم توماس بين إلى جيش جورج واشنجطون. كان يصدر مذكرات بعنوان "الأزمة"، جاء فيها: "تلك هي الأزمة التي تمتحن نفوس الرجال ... الاستبداد كالجحيم تماما، ليس من السهل التغلب عليه".

كان واشنجطون يقرأ المذكرات بصوت عال على جنوده لزيادة حماسهم وإلهاب مشاعرهم في أحلك الأوقات، مما ساهم في النصر. جمعت مذكرات الأزمة ونشرت في ثلاثة عشر طبعة. كانت حصيلة مبيعاتها 300 ألف جنيه، تم التبرع بها بالكامل إلى جيش واشنجطون.

في هذا الوقت، تم تعيين "توماس بين" في وظيفة سكرتير لجنة الشئون الخارجية في الولايات الأمريكية. كان نشاطه ومراسلاته الدبلوماسية خلال هذه الفترة، تتضمن نصائح قيمة لو اتبعت لكان لها تأثير عظيم في مجالي الحرب والسلم. ثم تقلد بعد ذلك عدة مناصب صغيرة هنا وهناك. قام خلالها بخدمة الشعب الأمريكى بإخلاص.

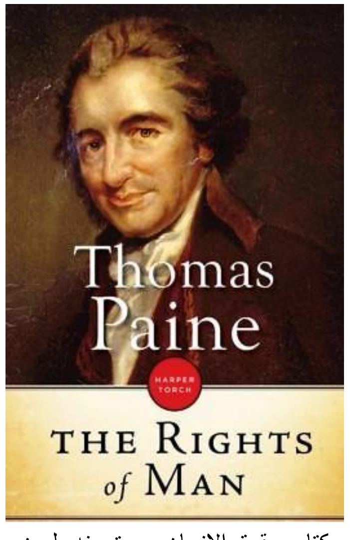
وقام أثنائها بعبور الأطلسي سرا معرضا حياته للخطر، لو وقع في أيدي البحرية البريطانية، وذلك لكي يحصل على قرض لأمريكا من فرنسا.

بعد نهاية حرب الاستقلال عام 1787م، قام "توماس بين" بزيارة أوروبا لرؤية والديه، ولكي يكمل مشروعه في تصميم وبناء كوبري. في هذه الأثناء، كتب العديد من الرسائل والمنشورات، وشغل نفسه ببعض المشروعات الهندسية.

عندما ذهب إلى فرنسا هذه المرة، قام بمقابلة كوندورسيه ودانتون ومفكرين آخرين راديكاليين. في يوليو عام 1789م، سقط سجن الباستيل إبان الثورة الفرنسية. وقام الجنرال الفرنسي دي لافايت بتسليمه مفتاح السجن لإعطائه إلى جورج واشنجطون كرمز للتحرير.



الجنرال دي لافايت



كتاب حقوق الإنسان، بيعت منه مليون نسخة في إنجلترا

عندما صدر كتاب "حقوق الإنسان" لتوماس بين في إنجلترا، بيعت منه مليون نسخة.

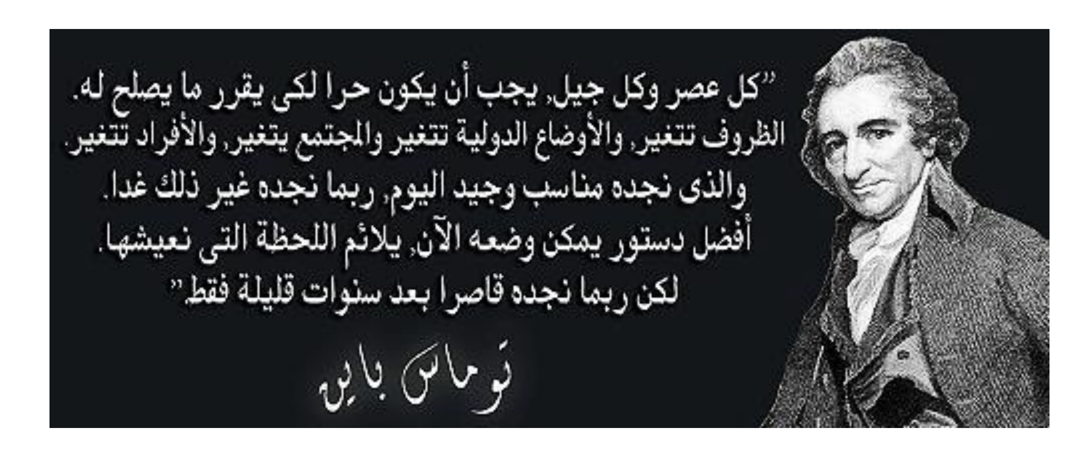
عندما تنبهت السلطات البريطانية لخطورة هذا الكتاب، قامت بمصادرته، ثم وجهت الاتهام للناشر، وطالبت بمحاكمة المؤلف بالخيانة العظمى. لكن الكتاب انتشر إنتشار النار في الهشيم، وجن به العامة، فانطلقت تهتف في الشوارع وتنشد الأناشيد التي يقول مطلع أحدها: "جاء المصلح العظيم جاء".



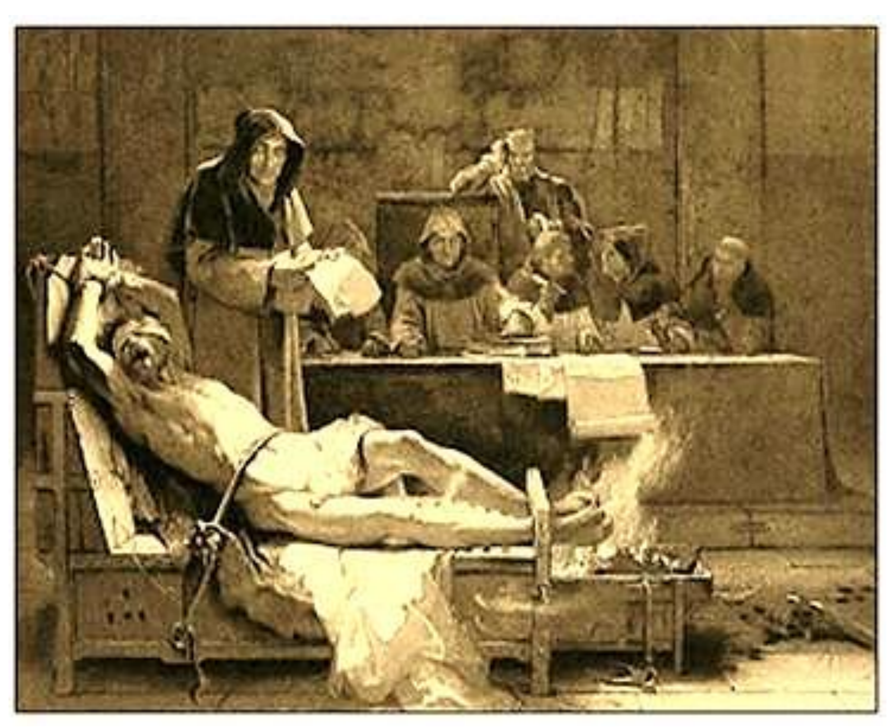
في أمريكا، لاقى كتاب "حقوق الإنسان" إعجاب كل أبطال الاستقلال الأمريكيين. ووصفوه بأنه عمل أسطوري وطالبوا أن يكون توماس بين ضمن أفراد الحكومة الأمريكية.



جاء في كتاب "حقوق الإنسان" أن الإنسان يولد وله حقوق طبيعية. لكن هذه الحقوق قد سلبت منه عن طريق السلطة الحاكمة والسلطة الدينية. الثورة الفرنسية والثورة الأمريكية قامتا لإرجاع هذه الحقوق لأصحابها.



الكنيسة الكاثوليكية وتعاليمها الصارمة هي العدو الحقيقي للحرية.



تعاليم الكنيسة الكاثوليكية الصارمة هي العدو الحيقي للحرية

التهم التي يوجهها رجال الدين إلى الناس، ليست خصائص موجودة في الدين المسيحي أو في أي دين. إنما هي قوانين وفتاوي وتعاليم صارمة أضيفت، لكي تجعل رجال الدين تتحكم في مصائر الناس بالقوة. خذ من الأديان تشريعاتها القاسية الرادعة هذه، وأنت تحول كل دين إلى دين سلام وتقدم.



جيمس الأول ملك إنجلترا وأيضا جيمس السادس، صاحب مقولة الحق الإلهي في الحكم

الحق الإلهي وتوريث الحكم شئ مضحك. عن طريق هذا النظام، أي عبيط يمكنه أن يعتلي العرش وفقا لهذا الحق.

العداء بين الدول ما هو إلا عداء بين سياسة حكوماتها. كل حكومة تتهم الأخرى بالتآمر والغدر، وذلك لشحذ الهمم ودفع مواطنيها للحرب. الإنسان ليس عدوا للإنسان، إنما العداء يحدث بسبب سياسات الحكومات العفنة.

الضرايب يجب أن تكون تصاعدية وفقا للدخل، هذا هو العدل. نقابات العمال لازمة للدفاع عن العمال وحفظ حقوقهم. العمل يجب أن يتوفر لكل الأيدي القادرة على العمل. المعاشات لكل كبار السن.

التعليم يجب أن يكون مجاني وإجباري لكل أفراد الشعب (كالماء والهواء كما كان يقول عميد الأدب العربي طه حسين). المعاشات لكل كبار السن.



العلم كالماء والهواء، طه حسين

هذه هي حقوق الإنسان الطبيعية عند توماس بين. تتأكد بمناداته بأن الأوضاع الجديدة تتطلب قوانين جديدة. الدساتير والمؤسسات يجب أن تتغير وفقا للظروف. قوانين الديموقراطية والليبرالية، يجب أن تكون ديناميكية تلائم طبيعة المجتمع والعصر الذي نعيشه.

القوانين لا يجب أن تقتصر على حقبة واحدة من التاريخ، أو مكان معين، دون باقي الأماكن. لذلك من الواجب مراجعتها من حين إلى حين. إن المطلوب هو المشروب، لا القارورة. ليس من حق جيل واحد أن يملك كل الحق، لكي يقرر الشكل النهائي للدستور والحكومة والقوانين. لكي تظل سارية إلى نهاية الزمن.



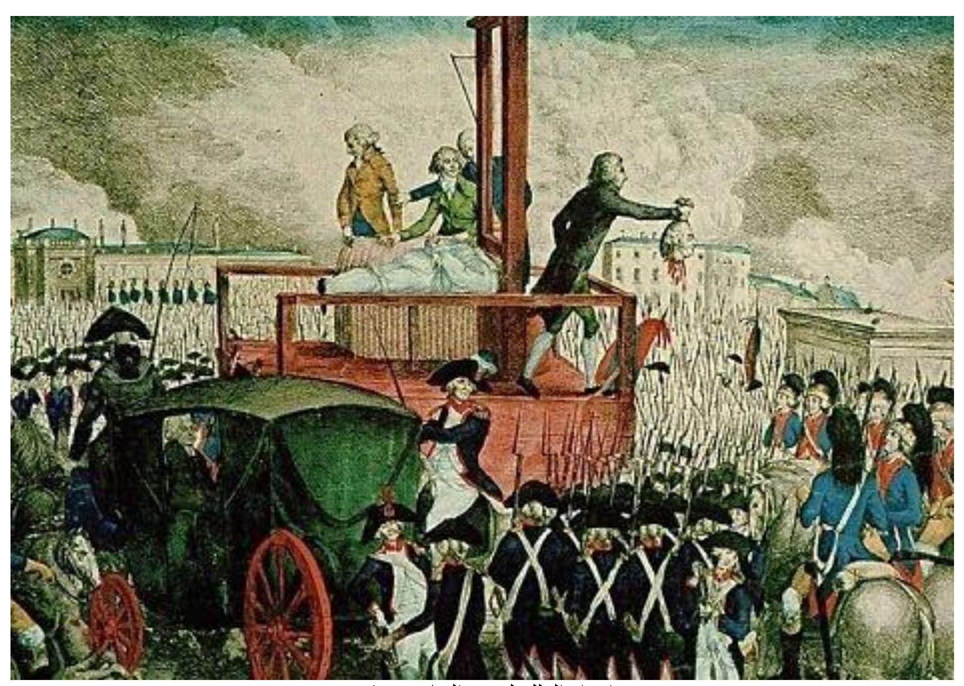
عمرو موسى رئيس لجنة الخمسين يسلم مشروع الدستور إلى الرئيس المؤقت عدلي منصور

كل عصر وكل جيل، يجب أن يكون حرا لكي يقرر ما يصلح له. الظروف تتغير، والأوضاع الدولية تتغير والمجتمع يتغير، والأفراد تتغير. الذي نجده مناسبا وجيدا اليوم، ربما نجده غير ذلك غدا. أفضل دستور يمكن وضعه الآن، يلائم اللحظة التي نعيشها. لكن ربما نجده قاصرا بعد سنوات قليلة فقط.

اعتبر الإنجليز كتاب حقوق الإنسان، كتاب تحريض ضد الحكومة البريطانية. سرعان ما تم توجيه الاتهام للمؤلف. الذي فر هاربا من إنجلترا إلى فرنسا. هناك، استقبلته فرنسا

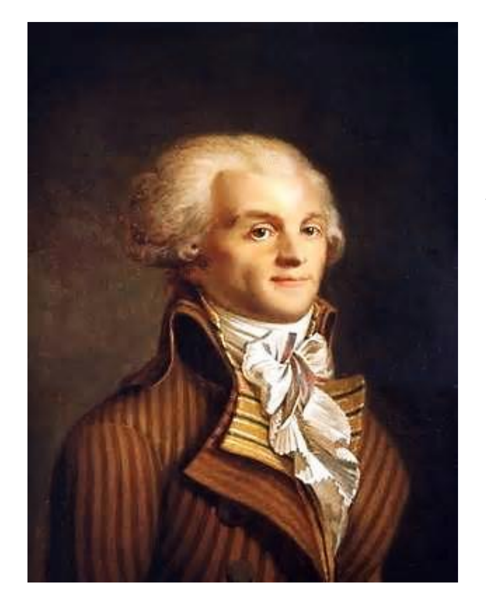
بالترحاب وإطلاق المدافع وعزف الفرق الموسيقية. وأنعمت عليه بالجنسية الفرنسية وضمته إلى المؤتمر الوطني.

تم اختيار توماس بين ضمن اللجنة المشكلة لصياغة الدستور الفرنسي. هناك، قابل كوندورسيه الفيلسوف وعالم الرياضيات وآخر مفكري حركة التنوير الفرنسيين. كان توماس بين الوحيد ضمن اللجنة، الذي عارض إعدام الملك لويس السادس عشر.



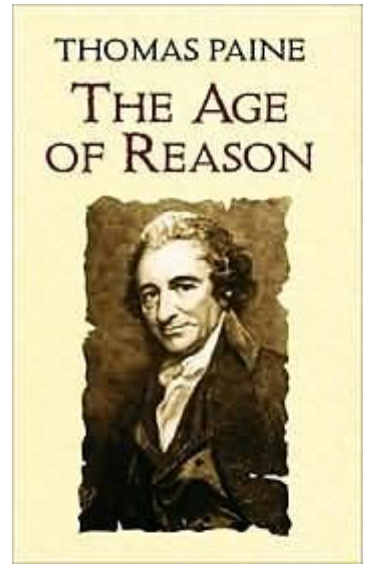
إعدام الملك لويس السادس عشر

كانت حجته، أنه ضد الملكية وليس ضد الملك. معارضته الشديدة لقوبة الإعدام بصفة عامة والملك بصفة خاصة، أثارت عليه حفيظة "مارا" و"روبسبير" وبعض قادة الثورة الراديكاليين. مما جعل حياة توماس بين تصبح في خطر بالغ.



روبسبير

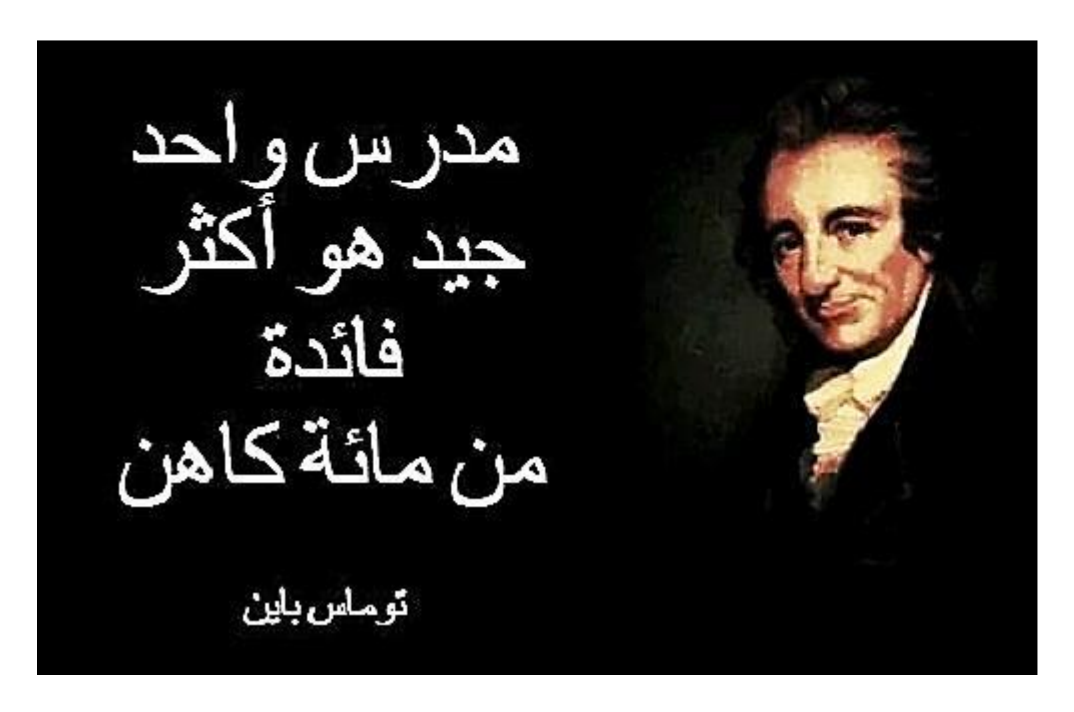
أرسل لويس السادس عشر إلى المقصلة. وصعد روبسبير إلى قمة السلطة عام 1793م، ثم بدأت المجزرة. شمل التطهير غالبية قادة الثورة الفرنسية والمنادين بالجمهورية، فيما عدا "توماس بين".



عصر العقل لتوماس بين

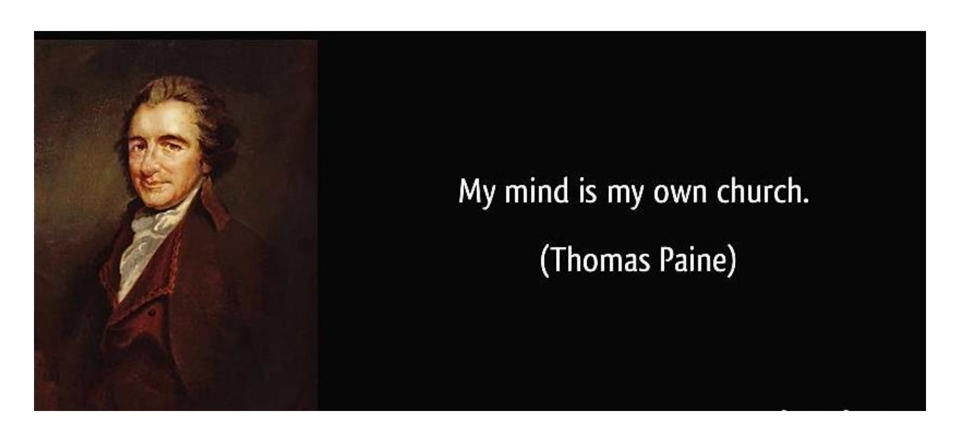
فقد خجل روبسبير من إرسال مؤلف "حقوق الإنسان" إلى المقصلة. لكن توماس بين لزم مسكنه، وتفرغ لكتابه الجزء الأول من كتابه الخطير "عصر العقل".

أنه يهدي "عصر العقل" عام 1794م إلى رفاقه الأمريكيين قائلا: أؤيد بشدة حق كل إنسان في إبداء رأيه مهما كان مختلفا معي. إن من ينكر على الآخرين حقهم في إبداء رأيهم إنما هو عبد لرأيه الحالي. لأنه يسلب نفسه حق تغيير هذا الرأي. إن العقل أمضى سلاح ضد الخطأ. لم يحدث أبدا أن استخدمت سواه. إنني واثق أنني لن أستخدم مستقبلا سواه".

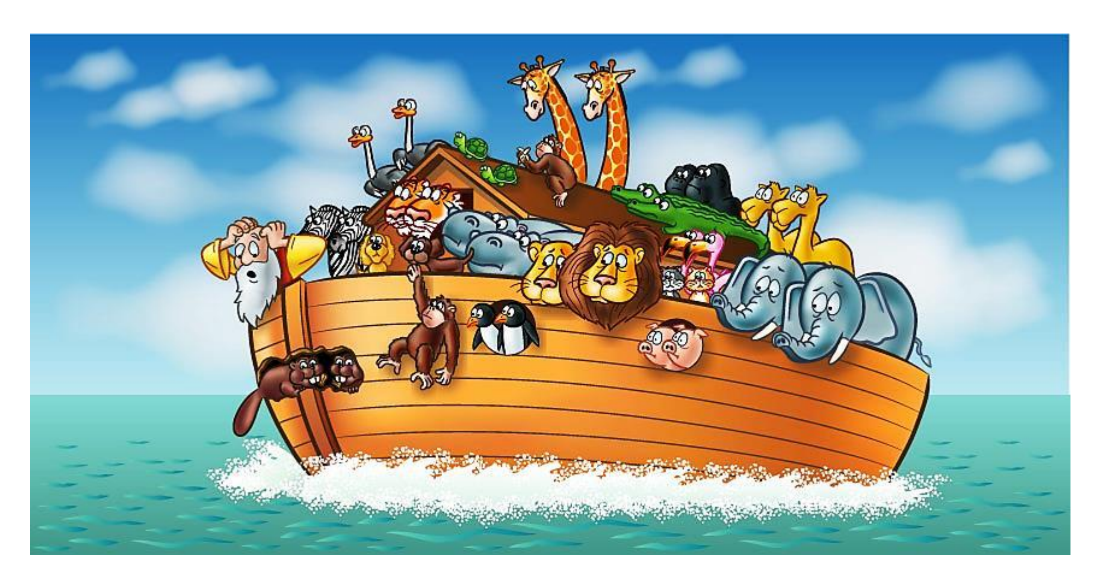


في مقدمة كتابه يقول "بين" أنه لا يهدف إلى مناهضة الأديان، إنما يبغي من كتابه منع الفساد الناتج عن تداخل الخرافات في الأديان، مما يسبب تدميرا للنظم الإجتماعية. "اللاهوت الزائف، مثل نظم الحكم الزائفة، تفقدنا الأخلاق والإنسانية والدين الحق."

ويضيف: "إنني أؤمن بالله الواحد، وآمل في تحقيق السعادة بعد هذه الحياة. إنني لا أؤمن بالمؤسسات الدينية. عقلي هو كنيستي. أما الباقي فهي بدع أقيمت لإرهاب البشر واستعبادهم، لاحتكار السلطة وتحقيق المكاسب المادية."



أساطير الأديان الحالية، لا تختلف عن أساطير القدماء أيام الوثنية. يستخدمونها لخدمة أغراض السلطة الدينية. من واجب العقل والفلسفة أن يبطلا هذا الدجل. ثم قام توماس بين بالهجوم على قصص الكتاب المقدس وخصوصا قصص العهد القديم. وفندها وتهمها بأنها مجرد خرافات لا تتفق مع العقل.



أساطير الأديان الحالية لا تتفق مع العقل

أفكارنا عن الله لا يمكن أن نكتشفها إلا عن طريق التأمل في خلقه. إن الخلق يتحدث لغة عالمية توضح عظمة الخالق. هذه العظمة، تتجلى في سنن الكون التي لا يعتريها تبديل والتي تحكم كل شئ.

باختصار، أتريد أن تعرف الله؟ إبحث عنه في نفسك وفي الخلق لا في الكتب المقدسة.

إبحث عن الله في خلقه لا في الكتب المقدسة

ثم لحقه بعد ذلك بالجزء الثانى من كتابه "عصر العقل". وكرسه لتوجيه نقد حاد للكتاب المقدس. وأضاف قليلا لنقد أفكار وردت في دراسات أكاديمية. لذلك وجد نفسه بلا تكريم في وطنه الأصلي ووطنه الجديد.

عندما عاد عام 1802م إلى نيويورك، ووجه باستقبال بارد. عاش في وحدة وعزلة. فأدمن الشرب في السنوات السبع الأخيرة من عمره. ثم مات في نيويورك عام 1809م.

بعد موته بعشرة أعوام، قام وليم كوبت بنقل رفاته إلى إنجلترا. حيث ظلت كتبه تلعب دورا هاما في المعارك التي خاضها الشعب الإنجليزي إلى أن تمخض كفاحها عن صدور مرسوم الإصلاح عام 1832م.

7

كوندورسيه (1743-1794م)

ظهر الماركيز دي كوندورسيه في العصر الذي أنجب فولتير و"توماس بين" وروسو وديدرو. بالرغم من أن شهرته لا تبلغ شهرة هؤلاء، إلا أن كوندورسيه كان يمثل بصدق وأمانة عصر الأنوار الأوروبي. هو آخر فلاسفة التنوير الفرنسيين.



الماركيز دي كوندورسيه

في كتابه "نشرة تمهيدية لجدول تاريخي بمراحل تقدم العقل البشري"، والذي يعتبر "الماجنا كارتا" للديموقراطية الحديثة (أي الوثيقة العظمى). فهو الذي كرس حياته لمبادئ حرية التعبير، والمطالبة بحكومات دستورية، وبالتسامح الديني، وحرية العمل، وحرية الصناعة والتجارة. والمطالبة بإلغاء الرق، والعمل على نشر السلام العالمى بين الدول.

هو من اقترح إقامة محكمة دولية لفض المنازعات بين الدول. لتقوية الروابط السلمية والإنسانية، وإفساد شهوة السيطرة والحروب بينها.



محكمة العدل الدولية

هو المنادي بإلغاء عقوبة الإعدام، وهو المقترح لبرنامج الإصلاح والتهذيب لتأهيل السجناء. يمكن مقارنته ببرامج الإصلاح في الدول الحديثة اليوم.



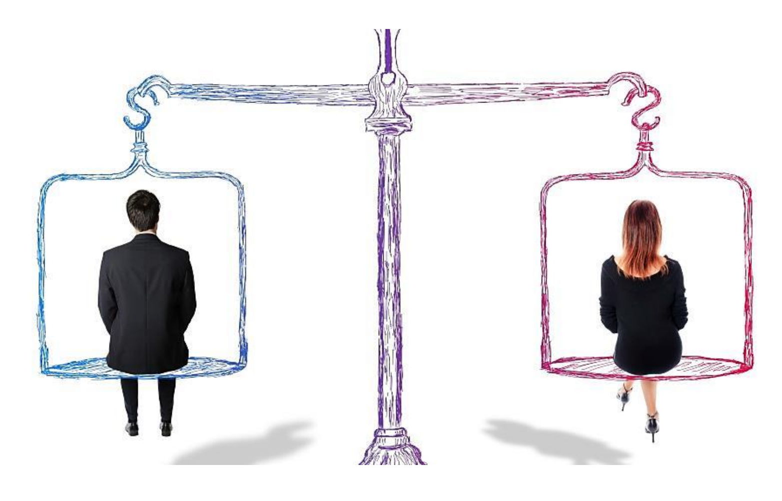
هو المنادي بإلغاء عقوبة الإعدام

الدين بالنسبة لكوندورسيه، يجب أن ينحصر في أمور الهداية والأخلاق فقط، ولا يجب أن يتدخل في الأمور الفكرية والسياسية والتشريعية



إعدام ثلاثة بسبب سب الله عز وجل

هو رائد تحرير المرأة ومساواتها بالرجل في كل الحقوق، ومنها الحقوق السياسية.



المساواة بين الرجل والمرأة


التعليم المجاني للجميع

هو بطل التعليم العام المجاني لكل أفراد الشعب.


إعادة كتابة التاريخ بطريقة موضوعية

والمطالب بإعادة كتابة التاريخ بطريقة موضوعية خالية من العواطف والتحيز.

كتابه هذا، "النشرة التمهيدية"، وكذلك كتاب فولتير "مقالات عن السلوك"، يعتبر عمل فلسفي عن الحضارة الحديثة. يبين حركة التاريخ عن طريق التقدم الحضاري للشعوب، وقدرة الإنسان المطلقة على التقدم على مر التاريخ.

لذلك يمكننا القول بأن كوندورسيه، عالم وفيلسوف مهموم بمشاكل البشر. ورائد من رواد الليبرالية، وأحد مكوني عقل وضمير الإنسان الحديث.



مناطق فرنسا

ولد الماكيز دي كوندورسيه، واسمه الأصلي "جان أنطوان نيقولا كاريتا"، في بيكاردي شمال فرنسا عام 1743م.

من أسرة عريقة في دوفينيه. تلقى تعليمه في المدارس اليسوعية في رامس وباريس. فقد والده في سن مبكرة، وتربى في حضن أمه المتدينة. سرعان ما بدت عليه موهبة الكتابة وعلوم الرياضيات.


دي لامبرت

عندما بلغ السادسة عشر من العمر، ظهرت مقدرته التحليلية التي نالت إعجاب عالم الرياضيات دي لامبرت.

سرعان ما بدأ كوندورسيه في الدراسة على أيدي دي لامبرت عام 1765م لمدة عشر سنوات. في عام 1765م، نشرت له أول دراسة علمية في رياضيات التفاضل والتكامل، والتي نالت إعجاب الجميع.

انتخب عضوا في جمعية أكاديمية العلوم وهو في السادسة والعشرين من عمره، وأصبح فيما بعد سكرتيرا دائما لها. في عام 1785م، نشرت له دراسة في نظرية الاحتمالات سبق بها نظرية مالتوس، واقترح فيها تحديد النسل كعلاج لمشكلة تزايد السكان.

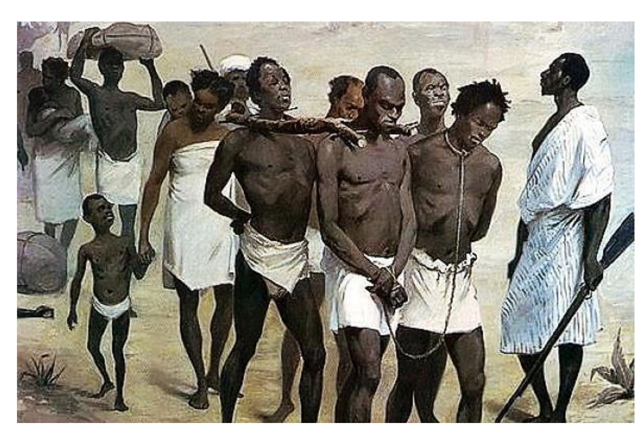

جاك تيرجو

استمر كوندورسيه في دراساته الرياضية وأبحاثه في نظريات الاحتمالات، إلى أن قابل عام 1772م، جاك تيرجو الإقتصادي الفرنسي. وسرعان ما أصبحا صديقين حميمين.

عندما تبوأ تيرجو منصب وزير المالية في بلاط لويس الخامس عشر عام 1774م، تم تعيين كوندورسيه في وظيفة مفتش عام في باريس، عندها بلغت شهرته الآفاق في فرنسا وخارجها. وكان عضوا شرفيا في العديد من المحافل العلمية والأكاديمية في فرنسا والمانيا وروسيا والولايات المتحدة.

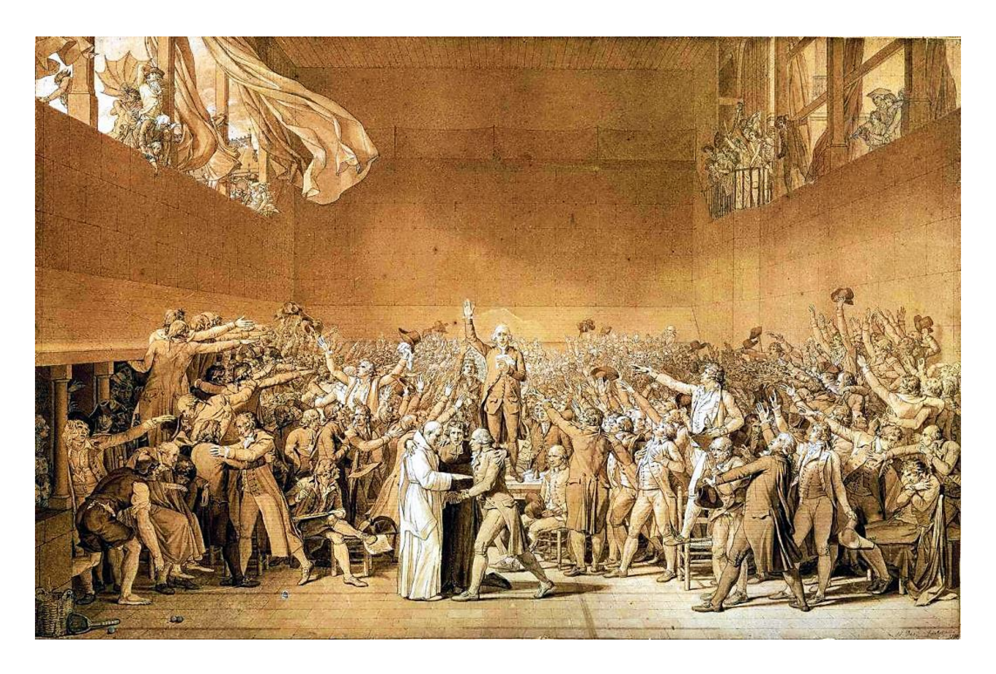
في السنوات التي تلت، بات كوندورسيه، ليس مجرد عالم رياضيات وإحصاء فقط، إنما أيضا فيلسوفا وسياسيا. يتبنى قضايا حقوق الإنسان وخصوصا المرأة والعبيد والسود.

كان كوندورسيه يؤيد نظام الحكم الجديد في الولايات المتحدة. يشارك باقتراحاته السياسية والاقتصادية في الإصلاح المنشود في فرنسا.


شارك في محاربة تجارة الرقيق

كان من الرعيل الأول في الحملة التي شنت على تجارة الرقيق عام 1781م.

عندما قامت الثورة الفرنسية، كان كوندورسيه في طليعة المؤيدين لها. في عام 1790م، أختير للمجلس البلدي، ثم أنتخب عضوا في الجمعية الوطنية التشريعية التي حكمت فرنسا من أكتوبر 1791م إلى ديسمبر 1792م، وأصبح في مدة قصيرة رئيسا لها.


الجمعية الوطنية التشريعية

وَضع، بصفته رئيسا للجنة التعليم العام، تقريرا يوضح خطة قومية للتعليم الإبتدائي والثانوي العام. عندما وطد نابليون سلطته، جعل تقرير كوندورسيه أساسا للتعليم الجديد في فرنسا.

وجد كوندورسيه نفسه فجأة وسط العاصفة السياسية التي كانت تتجمع فوق فرنسا، والتي أطاحت عند انفجارها بكل شئ. بالرغم من ذلك، نجده يؤيد بحماس الديموقراطية، ويعمل جاهدا على تطبيقها ونشرها. ولم يمل كتابة المنشورات التي تطالب بالإصلاح وتعديل الدستور.

لم يُتح لكوندورسيه مكانة مرموقة في المؤتمر القومي الذي حل محل الجمعية الوطنية التشريعية. وعندما هرب الملك وأسرته عام 1791م إلى فارين، كان كوندورسيه أحد المنادين بإلغاء الملكية وإقامة الجمهورية في فرنسا. وهو الأمر الذي أبعد عنه أصدقاءه القدماء في الحزب الدستوري.

لم يكن كوندورسيه ينتمي إلى حزب معين في فرنسا. لكن سمعته كانت تعطيه زخما كبيرا. كان هو و"توماس بين"، أبرز الشخصيات في لجنة الثمانية المكلفة بصياغة مسودة الدستور الفرنسي عام 1793م.

لكن المسودة التي قدمها هو و"توماس بين" للمؤتمر الوطني، الذي سيطر عليه اليعاقبة، أثارت جدلا عنيفا عند مناقشتها انتهي بالرفض. وفُضّلت عليها المسودة الأكثر تطرفا والمقدمة من عضو آخر (مسودة شيللى). عند ذلك كتب كوندورسيه نشرة، غفلا من التوقيع، ينصح فيها المواطنين برفض مشروع الدستور الجديد.

توقف العمل على صياغة الدستور الجديد بسبب أحداث القبض على الملك لويس السادس عشر ومحاكمته وإعدامه.



لويس السادس عشر ملك فرنسا

كان كوندورسيه يعارض الوضع القانوني للمؤتمر الوطني في محاكمة لويس السادس عشر، ويشجب في نفس الوقت مبدا عقوبة الإعدام بصفة عامة. بالرغم من كونه يدين الملك بسبب موقفه من قضايا الحرية. كان يرى عقوبة أخرى للملك غير عقوبة الإعدام.

وسط هذا الجو الملئ بالرعب والمشحون بالشك والتربص، لم يستطع كوندورسيه الحفاظ على حياده بين المعتدلين والراديكاليين من قادة الثورة الفرنسية. نقده الشديد لمسودة الدستور البديلة الذي تبناها المؤتمر، وشجبه لعمليات القبض العشوائي على الأعضاء المعتدلين من الأحزاب الأخرى، ومعارضته لأعمال العنف، وجو الرعب الذي يعم البلاد، كل هذا مهد إلى اتهامه بالخيانة العظمى ومعاداته للجمهورية. وفي 8 يوليو عام 1793م، أمر المؤتمر الوطني بالقبض عليه.

حينئذ، فر كوندورسيه هاربا. وفر له بعض الأصدقاء ملجأ في منزل مدام فيرنيه، أرملة الفنان التشكيلي كلود جوزف فيرنيه. بعد أن تأكدت أنه رجل شريف، وقبل أن تسأل عن اسمه، قالت: "دعوه يأتي ولا تضيعوا الوقت.

إذ ربما ونحن نتكلم يقبض عليه." لكن كوندورسيه خاف أن يعرّض هذه السيدة الكريمة للخطر باختبائه عندها. لأنه خارج عن القانون في نظر السلطات. إذا تم اكتشاف مكانه، قد تتعرض السيدة لنفس المصير البائس الذي ينتظره. لكن السيدة أجابت بما يهدئ من روعه.

قامت مدام فيرنيه بمراقبة كوندورسيه منذ اللحظة الأولى، خشية أن يهرب من منزلها ويعرض نفسه للخطر. حاولت شغل فكره بالقراءة والكتابة. فقام في هذه الأثناء بتأليف كتيبا يصلح تلخيصا لحركة التنوير، وكتاب تخطيط للمجتمع المثالي القادم. وقام أيضا بإتمام أشهر أعماله "نشرة تمهيدية لجدول تاريخي بمراحل تقدم العقل البشرى" جاء فيه:

إن التاريخ ينقسم إلى عشر مراحل:

1 - اتحاد الأسر في قبائل لزوم الصيد

2 - الرعى والزراعة

3 - اختراع الكتابة

4 - الحضارة اليونانية

5 - الحضارة الرومانية

6 - العصور المظلمة حتى الحروب الصليبية

7 - من الحروب الصليبية حتى اختراع الطباعة

8 - من إختراع الطباعة حتى الثورة الفلسفية التي أنجزها ديكارت

9 - من عصر التنوير حتى الثورة الفرنسية

10 - عصر الفكر الحر

كان كوندورسيه، مثل فولتير، يشجب العصور الوسطى ويناهض سيطرة الكنيسة على الفكر الأوروبي. يتهمها بتخدير الناس بسحر القداس وعبادة القديسين. مع إنه كان يؤمن بالله، إلا إنه كان يرى أن تقدم المعرفة يقوض من سلطة الكنيسة وينشر الديموقراطية ويرتقي بالأخلاق.

الخطيئة والجريمة بسبب الجهل. الأمل في التعليم الجيد وحرية الفكر والتعبير، واستقلال الشعوب، والمساوات أمام القانون، وإعادة توزيع الثروة.



الأمل في التعليم الجيد وحرية الفكر والتعبير

تنبأ كوندورسيه بأهمية سلطة الصحافة واستقلالها كصمام أمان ضد طغيان الحكومة. كان يؤمن بدور التأمين والمعاشات الاجتماعية في بناء دولة الرفاهية. يطالب بتحرير المرأة ونيلها لحقوقها السياسية.

يؤمن بالتقدم العلمي والطبي، وانتشار النظم الاتحادية بين الدول، وتحرير الشعوب وتحويل الاستعمار إلى معونات أجنبية تقدم للدول الفقيرة.

كان ينادي أيضا بتطبيق العلوم والإحصاء في الحكومة والمؤسسات، حتى تتم القرارات على أسس سليمة. ويقول: ليست هناك نهاية للتقدم، الإنسان يسعى دوما للكمال.

استمر كوندورسيه في مخبئه مدة 9 شهور. لكن بعض الأحداث جعلته يعتقد أن منزل مدام فيرنيه غير آمن وربما يكون مراقبا من السلطات. وحتى لا يعرض حياة مضيفته للخطر، أودعها مخطوطة وغادر بيتها متنكرا رغم اعتراضاتها المتكررة.

بعد أن تشرد ثلاثة أيام على أطراف باريس، ذهب بملابسه الممزقة ورجله الدامية، تبدو عليه علامات الجوع والإعياء، إلى حانة طالبا طبق بيض "أومليت". عندما سأله صاحب الحانة عن عدد البيض المطلوب، قال: "دسته". حينئذ، سأله صاحب الحانة عن عمله. فقال: "نجار". فأجاب صاحب الحانة: "النجار ليس لدية يدين مثل يديك، ولا يطلب دستة بيض في طبق الأوملت".

حينما عجز كوندورسيه عن تقديم ما يثبت شخصيته، تم القبض عليه وتسليمه للسلطات. أثناء نقله إلى زنزانة السجن الباردة، أغمى عليه ووضع على حصان تبرع به أحد المزارعين شفقة ورحمة.

في اليوم التالى وجد ملقى على ظهره في الزنزانة ميتا. فهل مات منتحرا بالسم الذي كان يحمله في خاتمه؟ أم قتل من قبل السلطة التي كانت تخشى إعدامه العلني بالمقصلة بسبب شعبيته وحب الناس له؟ أم مات قضاء وقدرا من الجوع والإعياء والقهر؟ لا أحد يعرف بالتأكيد.



وجد كوندورسيه ميتا في زنزانه

في عام 1989م، تم نقل جثمان كوندورسيه إلى البانسيون وسط احتفال مهيب بمناسبة مرور 200 سنة على الثورة الفرنسية. إلا أن تابوت هذا العالم المفكر الفيلسوف الإنسان، آخر الرجال المحترمين وخاتم عمالقة التنوير، وجد خاويا . لأن جثمانه كان قد فقد في القرن التاسع عشر ولا ندري كيف.

8

جون ديوي (1859-1952م)

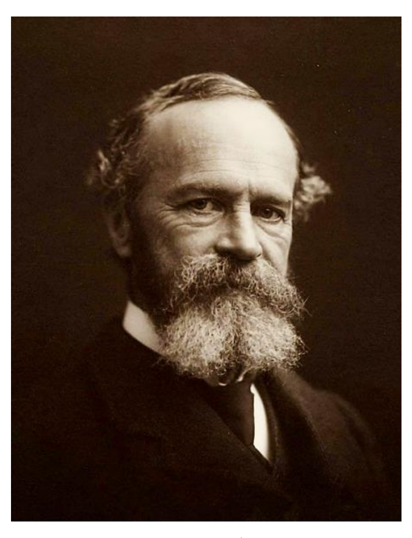
ولد الفيلسوف وعالم النفس وخبير التربية والتعليم جون ديوي، في مدينة برلنجتون في ولاية فيرمونت بالولايات المتحدة. في نفس العام الذي ظهرت فيه أعمال جون ستيوارت ميل وشارلز داروين وكارل ماركس.



جون ديوي

أهمية جون ديوي التاريخية بالنسبة للفكر الإنساني، تأتي من كونه قد قام بالتحرر من الأفكار السائدة في المجتمع، لم يلتزم بثقافة من سبقوه، وتقاليدهم المتعارف عليها. قام بنفسه باختبار القيم السائدة في عصره، وفحص صلاحيتها لمعرفة مدي فائدتها في حل مشاكل المجتمع. سلاحه في هذا، هو المنطق والأسلوب العلمي.

تبع جون ديوي المذهب الواقعي (Pragmatism)، الذي يعتمد على الممارسة والتدريب، أسوة بتشارلز ساندرز بيرس، ووليام جيمس. الثلاثة أمريكيون.


وليام جيمس

تأثر أيضا بالمذهب التجريبي (Empiricism)، الذي يقول بأن المعرفة تأتي فقط من الحواس، وبالمذهب النفعي (Utilitarianism)، الذي يقول بأن كل نظرية أو فكرة أو مفهوم، نقبلها أو نرفضها بناء على مدي نفعها أو فائدتها للمجتمع بصفة عامة.

قضى جون ديوي صباه في ولاية فيرمونت.


ولاية فيرمونت بالولايات المتحدة

حيث بساطة الريف ووداعته وهدوئه، وجمال الطبيعة وسحرها الخلاب. وسط مجتمع يعشق تراب الوطن ويحترم حرية الفرد وحقوقه الطبيعية في الحياة والمساواة وطلب السعادة.



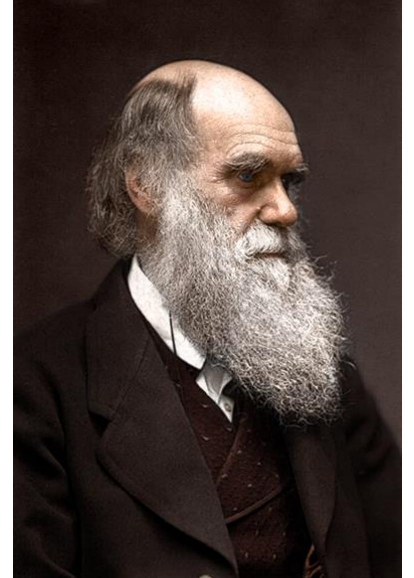
ولاية فيرمونت الأمريكية

خلفية ديوي الدينية كانت ذات نزعة ليبرالية. لذلك لم يعان كثيرا في تبني العقلانية منهجا، ورفض الخرافات والأساطير التي يتسم بها الفكر الديني.


عمانويل كانط

بعد تخرجه من جامعة فيرمونت عام 1879م، قام بالعمل مدرسا بولاية بنسلفانيا لمدة عامين، وسنة أخرى بولاية فيرمونت. لكن حبه للفلسفة جعله يلتحق بجامعة جون هوبكنز للحصول على إجازة الدكتوراه في فلسفة عمانويل كانط عام 1884م.

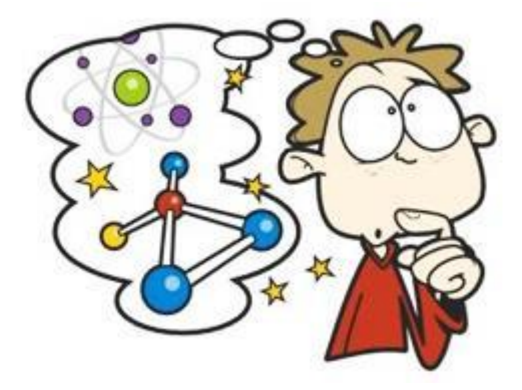
ثم عمل رئيسا لقسم الفلسفة والتربية في جامعة شيكاغو. أنجب ستة أطفال من زوجته الأولى أليس تشيبمان، وزوجته الثانية كانت روبرتا جرانت.


تشارلز داروين

تأثر جون ديوي ب تشارلز داروين، وكان يعي بعمق معنى التطور ومعنى الأسلوب العلمي في حل المشاكل.

كان يرى أن الإنسان، ككائن حي، يتأثر بالمجتمع. من ثم، يمكن بناء وإعادة تشكيل الفرد عن طريق تطوير المجتمع الذي يعيش فيه. وكان يعتبر الفلسفة سلطة تشريعية، مهمتها نقض القيم الحاضرة، وإيجاد قيم جديدة، تلائم ما يحدث في المجتمع من متغيرات.

لذلك تأتي هنا أهمية العلوم الاجتماعية. لأنه عن طريقها يمكن فهم المجتمع والتحكم في أفراده. مثل علم الفيزياء، عن طريقه يمكن فهم عناصر الطبيعية والتحكم فيها.



علم الاجتماع مثل علم الفيزياء

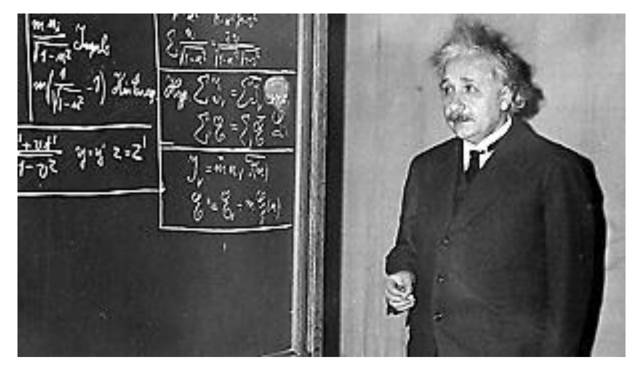
ليس هناك شئ اسمه الصواب أو الخطأ المطلق. المعرفة وكل شئ نسبي.



المعرفة نسبية تمثل جزء من الحقيقة

الخبرة هي السلطة العليا التي نعول عليها. الرقي بالمجتمع يأتي فقط عن طريق التعليم الجيد. التعليم هو الطريق الوحيد للتقدم والحضارة، وأسلوب تنظيم الذكاء في المجتمع.

التفكير العلمي يبدأ بالفروض، لا بالنتيجة. الفروض قد تكون صحيحة أو خاطئة.



العلم، فروض قد تكون صحيحة أو خاطئة

التفكير الديني يبدأ بالنتيجة، لا الفروض. النتيجة لابد أن تكون صحيحة.



الدين، نتيجة لابد أن تكون صحيحة

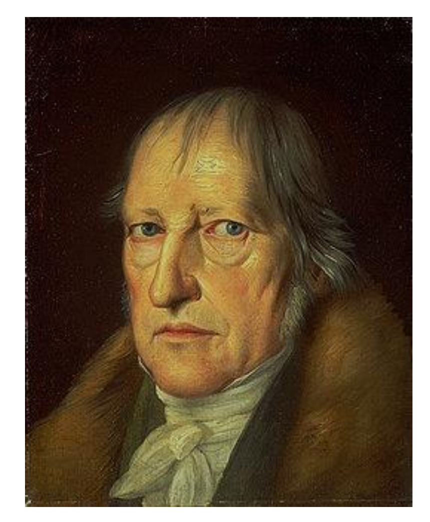
الديموقراطية هي مستقبل البشرية. تساعد كل فرد لكي يساعد نفسه.



تطبيق الديموقراطية مشكلة في العالم العربي


مشاكل الدول تحل بالتجارب العملية

مشاكل الدولة تحل بالتجارب العملية، لا الأفكار النظرية والتعميم.


هيجل

ثم عرج على هيجل لدراسة فلسفة التاريخ، وفلسفة وحدة الإنسان مع الطبيعة. تحت تأثير هيجل، بدأ يفقد الثقة في فكرة الازدواجية. الخير والشر، الروح والجسد، الإله والشيطان. وبدأ ينظر للإنسان على أنه وحدة متكاملة من الطاقات الإيجابية.

عندما انتقل ديوي إلى ولايتي مينيسوتا وميشجان، اكتشف أن حياة الناس في الغرب، ليست ببساطة الحياة التي تعود عليها. مشاكل عديدة وصراع للبقاء يستعصي على الفهم أو التبرير. لذلك كان لا بد من عمل الدراسات الاجتماعية التي تعتمد على التجارب، لفهم سلوك المجتمع. النظريات بدون تجارب لا تسعفنا هنا.

طبّق جون ديوي مبادي الفلسفة البراجماتية لوليام جيمس في التعليم من سنة 1894 إلى سنة 1904م. بداية بالمدرسة التجريبية بشيكاغو التي كان يديرها.

كان أسلوبه في التعليم، لا يعتمد على الحفظ، إنما على الفهم والوصول إلى الحقائق بالتجربة. لا في المواد العلمية فقط، ولكن في كل مجالات المعرفة والثقافة والأدب والفن.



التعليم عن طريق الفهم لا الحفظ

بلغت شهرة جون ديوي الآفاق. لا في الولايات المتحدة وحدها، ولكن في الغرب وروسيا وبلاد الشرق الأقصى أيضا. كتابه "مدرس ومجتمع" عام 1899م، يحكي الحكاية كلها ويبين تجربته في التعليم.

بسبب جهوده في التربية والتعليم وإسهاماته في علم النفس التجريبي، عين بقسم الفلسفة بجامعة كولومبيا بمدينة نيويورك عام 1904م، واستمر يشغل هذا المنصب حتى تقاعده سنة 1930م.

كانت تتوالى الدعوات له لكي يدير برامج التعليم في بلاد مثل اليابان والصين والمكسيك وروسيا وتركيا وحتى جنوب أفريقيا. في عام 1929م، تمت دعوته لإلقاء محاضرات في جامعة إيدينبره باسكتلنده.

اتسمت شخصيته بالبساطة وتواضع العلماء. يتبادل الحديث والمناقشة مع كل الناس وينزل إلى مستواهم لكي يوصل أفكاره لهم، سواء كان محدثه فلاح أو مدرس أو صاحب حانوت أو رئيس قسم في جامعة.

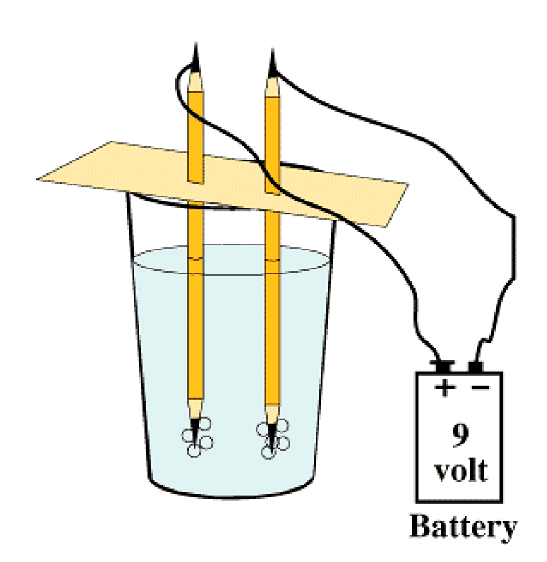
بالرغم من بساطته وتواضعه، لا يحيد عن الحق ولا يجامل ولا يتنازل عن أفكاره بالبحث عن حلول وسط، لكي يرضي من يخالفوه، سواء كان هذا المخالف صحفيا أو سفيرا أو وزيرا. عندما يدافع عن مظلوم، ينقلب إلى أسد هصور لا يهاب أحدا في الحق والعدل.



ينقلب إلى أسد هصور في الحق والعدل

له أكثر من 25 كتاب في التعليم والفلسفة وعلم النفس. ليبرالي الهوى والفكر، وديموقراطي النشأة والسلوك، يؤمن بأن الديموقراطية هي حالة اجتماعية لا تتحق إلا بالكفاح لتحقيقها طوال الوقت.

أكبر مشكلة واجهت الفكر الفلسفي في تاريخه، هي مشكلة معرفة أصول الفكر ومنابعه. هل المعلومة تأتينا ساعة تجلّي وصفاء بالاعتقاد، أم بالتفكير والاستنتاج؟ أم المعلومة تأتينا بالتجربة والمشاهدة؟



تجربة تحليل الماء إلى أكسوجين وهيدروجين بالكهرباء

اختار جون ديوي التجربة والمشاهدة كمصدرين للمعرفة. طبقهما في مجالي الدين والأخلاق. فهو ليس لديه حقيقة مطلقة أو كمال مطلق. قبول المفكرين المحدثين للمطلق والميتافيزيقا، بالنسبة للمعرفة والأخلاق، هي سبب فشلهم في حل مشاكلهم وفي الوصول إلى أية نتيجة.

من الناحية الاقتصادية، التجربة والمشاهدة ضرورية في فهم عوامل الإنتاج والبناء وإصلاح التربة والتصنيع، إلخ. لكن بالنسبة للعقيدة والمطلق، يظل المطلق ثابتا لا يلين كالصخر. يعض عليه الناس بالنواجذ طلبا للأمان. هذا، كما يقول ديوي، مظهر من مظاهر الضعف لا القوة.

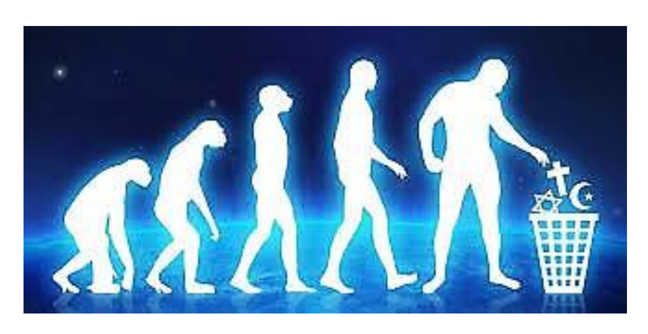
تتنوع الأديان والمعتقدات مع تنوع البشر، كل منا يعتقد أنه على صواب، والباقي على خطأ. لكن، ليس هناك ما يثب صحة أيا منها بالتأكيد، وإلا كان الكل قد آمن بها. لا يبقى لنا سوى الاختيار بناء على الإيمان والأمل في أن يكون اختيارنا هو الصواب. الله عند ديوي هو وحدة كل القيم العليا التي تسمو بالإنسان وتعلو من شأنه.



تتنوع الأديان مع تنوع البشر

السلطة الدينية، لا يجب أن تأتي من خرافات وتفاسير سابقة لا تناسب عصرنا وحياتنا، إنما يجب أن تأتي من تجارب كل مجتمع في كل عصر، لكي تفي بحاجة المجتمع، ولكي تساعد على حل مشاكله. الدين ليس فقط عبادات وإطاعة أوامر وهروب من المشاكل، بقدر ما هو تفاعل الإنسان مع مجتمعه ومع الطبيعة المحيطه به.

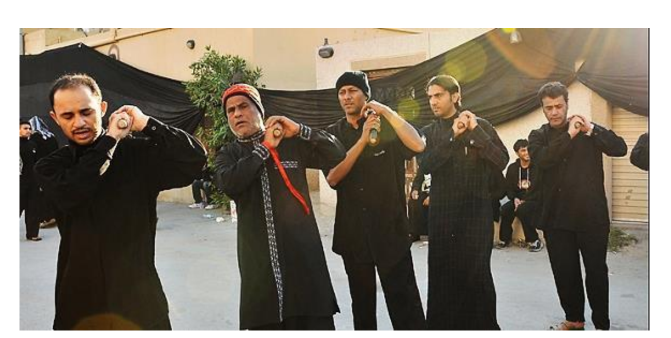
إذا ربط الإنسان فهمه للقيم الدينية، بسلوكه ونشاطه العملي، بدلا من التمسك بأفكار سابقة جامده، لن يجد صعوبة في تقبل النظريات العلمية الجديدة. ولن يكون هناك تعارض بين الفكر الديني والعلم.



المتدين لا يجب أن يتمسك بأفكار سابقة جامدة تتعارض مع العلم

لا يعارض جون ديوي التدين، ولكنه يرى الدين طريقة لتفاعل الفكر الإنساني مع تعاليم الرب ومع الطبيعة، حتى يسمو الإنسان على هذه الأرض.

الدين عند ديوي نشاط وفعل ومشاركة في الحياة، وإيجاد حلول للمشاكل، لا مجرد إطاعة أوامر وطقوس وزي معين.



الدين مشاركة في الحياة لا مجرد طقوس، الشيعة في عاشوراء يضربون أنفسهم بالسلاسل

كان جون ديوي معارضا لنظم التعليم القديمة في المدارس والجامعات. الذي تأتي فيه المعلومة جاهزة ومعلبة مثل علب السردين.



المعلومة تأتي جاهزة مثل علب السردين

كان من رأيه أن التعليم الحقيقي يأتي فقط عن طريق الممارسة والفعل، أي التجربة والخطأ. من هنا جاءت أهمية التعليم والتدريب أثناء الوظيفة.

جاء في كتاب جون ديوي "كيف نفكر وكيف نحل المشاكل"، خطوات حل أي مشكلة هو الآتي:

1. الشعور بالمشكلة
2. تعريف المشكلة وتحديدها
3. وضع الفرضيات واقتراح الحلول
4. اختبار الفرضيات بالتجربة
5. الوصول إلى النظرية والتعميم.

ليس هدف التعليم، محو الأمية فقط. إنما هو هدف يبغيه الفرد طوال حياته.


التعليم هدف يبغيه الفرد طول حياته

إجابة سؤال "لماذا" أهم من إجابة سؤال "كيف". التعليم ليس عبارة عن جمع وتكديس للمعلومات، ثم يتوقف بعدها الفرد عن التعلم قانعا بما يعرف. لكن التعليم فعل مستمر، من المهد إلى اللحد. في حالة استمرار.

وظيفة المدرسة هي إمداد الطالب بالأجهزة والكتب والنصيحة. الباقي يأتي خارج المدرسة. الهدف من التعليم هو اكتساب الخبرة والقدرة على حل المشاكل. التعليم من أجل التعليم لا يعني شيئا. التعليم، حسب تعريف ديوي، هو تنظيم الخبرات بطريقة تؤدي إلى زيادتها.

التعليم يجب أن يكون للجميع، صغار وكبار ، رجال ونساء. ويكون بكل الوسائل، مدارس وجامعات ومعاهد ومراكز أبحاث وإعلام، ورحلات كشافة وزيارات للمتاحف ومشاهدات للمسرح والأوبرا، إلخ.


التعليم من خلال زيارة المتاحف

التعليم بالنسبة للصغار، يكون بهدف إعداد الطفل لكي يستطيع الحياة وسط المجتمع. ليس الهدف حشو رأسه بمعلومات غير مهضومة وغير مفهومة.

التعليم يكون بهدف إعداد الفرد لكي يعيش في المجتمع تحت أي ظروف. من ثم، يقاس النجاح في التعليم بما يحققه من تقدم في سلوك وشخصية الفرد، لا بمقدار ما يحفظه من معلومات.



التعليم بهدف إعداد الفرد لكي يعيش في المجتمع

مواد الدراسة يجب أن تكون ملائمة للعصر. الطفل يجب أن يكون شغوفا ومحبا للتعليم. المواد الدراسية يجب أن تكون عملية، تنتقل إلى التلميذ بأسلوب تعاوني ومشاركة، لا عن طريق الضرب والأوامر.

هدف جون ديوي، هو بناء مجتمع ديمقراطي. وإيجاد توازن بين قيم الفرد وقيم المجتمع عن طريق التربية والتعليم. كان يرى أنه هناك علاقة وثيقة بين التقدم العلمي والنظام الديمقراطي. الديموقراطية عند ديوي، ليست مجرد صناديق اقتراع، ولكنها تأتي عن طريق تكوين رأي عام ناضج، ناتج من التواصل بين المواطنين والمفكرين والسياسيين.

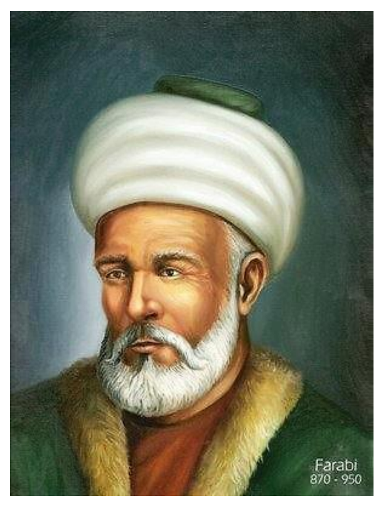
تأثير ديوي على نظام التعليم بالولايات المتحدة كان عظيما. استفادت أمريكا من افكار جون ديوي في التربية والتعليم، وقامت بجذب العقول واستقطاب كل علماء الأرض. قالت عنه هيلدا نيتباي عام 1953م: "ديوي بالنسبة لعصرنا كأرسطو بالنسبة للعالم القديم." وهو يشبه أحمد لطفي السيد لجيل ما قبل الثورة.

إلى جانب جهود جون ديوي العظيمة في مجالي التربية والتعليم، كانت له إسهامات واضحة في مجالات البيئة والفن والمنطق والديموقراطية والأخلاق والقانون.

9

الانفتاح على الغرب وبداية اليقظة

مع اتساع رقعة الدولة الإسلامية، تأثر الفكر الإسلامي بالفلسفة اليونانية. وبدأ منصب الحاكم يفسر في ضوء جمهورية أفلاطون وكتاب الأخلاق لأرسطو. أفضل الدول هي من يحكمها أفضل الرجال. وأفضل الرجال، هو أحسنهم خلقا وحكمة.



الفارابي

لكن الفارابي (870-950م)، يذكّرنا بأن المدينة الفاضلة الإسلامية، تختلف عن جمهورية أفلاطون.

الدولة الإسلامية، تحكمها الشريعة. وهي مستمدة من القوانين الإلهية. لكن جمهورية أفلاطون، تحكمها القوانين الوضعية. الرسول ملهم من الله، بينما الفيلسوف، علمه مكتسب.



السلطان عثمان الأول (1299-1323م)

يرث العثمانيون الخلافة والسلطنة. ويصبح السلطان هو الخليفة.

تنصيب وعزل السلطان ليس عن طريق حماة القانون، كما هو الحال في جمهورية أفلاطون، أو عن طريق البيعة ومجلس الشورى كما يجب أن يكون عليه النظام الإسلامى، لكن كان التنصيب والعزل يتمان عن طريق المؤسسة العسكرية التي يحكمها التعصب العائلي والعرقي.

بسبب حروب الدولة العثمانية ضد أوروبا المسيحية، استطاع العثمانيون أن يوحدوا العالم الإسلامي خلفهم إلى حين. لكن مع مرور الزمن، جاء بعد سلاطين الدولة العثمانية الأقوياء، سلاطين ضعفاء.

بسبب ضعف الإدارة واكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، بالإضافة إلى اكتشاف أمريكا، وتحول التجارة بعيدا عن أقطار الدولة العثمانية. لذلك ساءت حالة الدولة العثمانية الاقتصادية. فلجأت إلى زيادة الضرائب على المسلمين.

ثم انتشر الظلم والإرهاب. وبدأت طبقة العسكر (الجندرمة)، تعيث في الأرض فسادا، وتنشق عن الحكومة.



الفرقة الإنكشارية بالجيش التركي أيام العثمانيين

وبدأ الموالي والبدو، يقطعون طرق التجارة والحج على قوافل المسلمين. كل ذلك، وحكام الدولة العثمانية تقف عاجزة، لا تستطيع أن تفعل شيئا.

في القرن الثامن عشر، ظهرت على أرض الجزيرة العربية حركة إصلاح بقيادة محمد بن عبد الوهاب (1703-1787م).

محمد بن عبد الوهاب

تستمد الحركة أفكارها من الإمام ابن حنبل. الإسلام كما يقول ابن عبد الوهاب، ليس مجرد ترديد لكلمات جوفاء، وتخويف من النار وتحذير من يوم القيامة وترغيب في الجنة. لكن الإسلام هو رفض لكل الآلهة إلا الله.

الشرك هو كبرى الكبائر، سواء كان المعبود ملكا أو رئيس جمهورية أو نبيا أو صحابيا أو وليا أو شجرة أو قبرا. عبادة الأشخاص مثل عبادة الأصنام. الإسلام الحقيقي، هو إسلام الصحابة والسلف الصالح. وقد كان ابن عبد الوهاب ضد الصوفية. وضد العادات التي كانت تمارس في الجاهلية.

قام ابن عبد الوهاب بإنشاء دولة إسلامية، يستطيع فيها المسلمون ممارسة الشريعة كما يراها ابن عبد الوهاب. فهي دولة إسلامية قبل أن تكون عربية. يستطيع أى مسلم الانتماء إليها. هذه الدولة، تنقي الإسلام من شوائبه، وتطبق الشريعة الحقة كما يراها. وتتغلب على العصبية والقبلية.

إذا بالواهابيين، تشتد شوكتهم، ويستفحل خطرهم. إلى أن نجدهم يسيطرون على نجد والحجاز وباقي شبه الجزيرة العربية، ومنطقة الخليج وكربلاء على حدود العراق. ثم قاموا بتهديد دمشق.



محمد بن سعود مؤسس الدولة السعودية وعلى يمينه محمد بن عبد الوهاب

في ذلك الوقت، كانت تدور في أوروبا أحداث أشد خطرا على الامبراطورية العثمانية من خطر ظهور الوهابيين. الثورة العلمية والتقدم الصناعي والإقتصادي والعسكري.

بعد أن كان العثمانيون أسيادا لأوروبا في القرن السادس عشر، لتفوقهم العسكري ولقوتهم الإقتصادية، وبعد أن كانوا يحاربون الأوربيين الند بالند في القرن السابع عشر، نجدهم في القرن الثامن عشر، لم يستطيعوا المساهمة في الاكتشافات الحديثة، ولم يتقدموا في فنون العلوم العسكرية.

لذلك، لم تقدر قوة الجيوش العثمانية على مجارات قوة الجيوش الأوروبية الحديثة. فمثلا في حرب (1768-1774م)، قام الروس بإنزال قواتهم في اليونان. وقام جيشهم بالزحف على البلقان والقوقاز.

وفي نهاية الحرب، اضطر السلطان العثماني للتنازل لروسيا عن إقليم القرم الآهل بالسكان المسلمين.

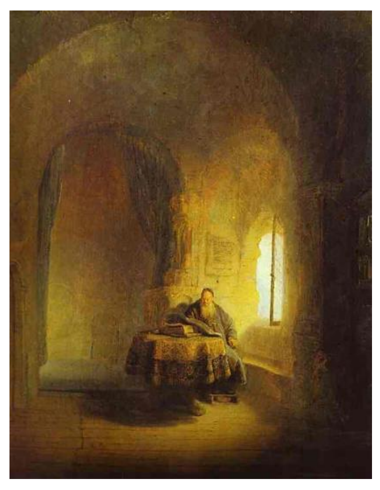


القرم شمال البحر الأسود

وكان الأسطولان الفرنسي والإنجليزي يعبران بحرية خلال البحر المتوسط، الذي كان في يوم من الأيام مياة عثمانية. وبدأت الدول الأوروبية تعلن حمايتها للأقليات والإرساليات المسيحية، داخل الدولة العثمانية المترهلة. مثل الأقلية المارونية في لبنان وغيرها.

عند ذلك، بدأ الأتراك يشعرون بانحدار الدولة العثمانية وضعفها. وأدركوا أنه لكي يستطيعوا درء الخطر الجديد، كان لازاما عليهم أن ينفتحوا على الغربيين. يأخذون منهم سر قوتهم.

في عام 1770م، افتتحت مدرسة العلوم الرياضية لضباط البحرية العثمانية. كانت كتبها مترجمة من كتب أوروبية إلى اللغة التركية. وهي تعتبر أول نافذة في العالم الإسلامي على العلوم الغربية الحديثة.



أول نافذة على العلوم الغربية

في عام 1789م، جاء إلى البلاد السلطان سليم الثالث، وهو عاقد العزم والنية على الإصلاح.



السلطان سليم الثالث

استعان سليم الثالث بالقواد الفرنسيين لتدريب الجيش التركي. أمر بترجمة كتب أوروبية عن الملاحة والجغرافيا والتاريخ، إلى اللغة التركية. عندما طلب السلطان سليم الثالث من كبار رجال الدولة عرض اقتراحاتهم، أجمع الكل على أن الجيش التركي، يجب إعادة تسليحه وتدريبه على أيدي أوروبية، بشرط أن لا يمس ذلك الشريعة أو شعور رجال الدين.

ظل سليم الثالث لمدة 20 عاما، يحاول خلق جيش تركي حديث، بالإستعانة بالأوروبيين. لكن ثقته الزائدة بالأوروبيين، لم ترض رجال الدين . فقاموا بالتحالف مع عساكر الإنكشارية والعمل على خلعه. ثم أصدر مفتي الدولة العثمانية فتوى بخلع السلطان سليم الثالث، تتهمه فيها بأنه وحكومته، قد أدخلا على المسلمين أساليب الكفار. وتتهمه أيضا بأنه كان ينوي التخلص من العساكر الإنكشارية.

عندما انتصر أتباع السلطان المخلوع على الإنكشارية، وعلموا بمقتل سليم الثالث، قام هؤلاء الأنصار، بقتل السلطان الجديد مصطفى الرابع قبل أن يمضي عليه في السلطنة أكثر من بضع شهور. هكذا فجأة وجد محمود الثاني نفسه سلطانا على الامبراطورية العثمانية.



السلطان محمود الثاني



التغيير يكون بالتدريج خطوة خطوة

السلطان محمود الثاني كان يشارك السلطان السابق سليم الثالث في أفكاره. لكنه تعلم الدرس، وأيقن أن التغيير لا بد أن يكون بالتدريج.

استمر السلطان محمود في سياسة الانفتاح التدريجي على أوروبا. ظهرت نتيجة لذلك، في الفترة من 1820-1840م، مجموعة من العلماء والمفكرين والأدباء والسياسيين الأتراك. الذين جمعوا بين الدين الإسلامي والثقافة الأوروبية.



الوزير الأعظم أحمد وفيق باشا

منهم أحمد وفيق باشا، الذي صار فيما بعد الوزير الأعظم (رئيس الوزراء).

أحمد وفيق باشا كانت له علاقة حميمة بالسفير البريطاني سير هنري لايار، الذي قال عنه، أن الوزير كان واسع المعرفة والثقافة. لقد كان يقرأ أفضل الأعمال الأدبية والفلسفية لكتاب مثل: جيبون وروبرتس وهيوم وآدم سميث وشكسبير وتشارلز ديكينز.

ثم ظهر أيضا مصطفى رشيد باشا، الدبلوماسي البارع ذو الثقافة الأوروبية. الذي ساهم في تحويل تركيا إلى دولة حديثة تحكمها القوانين.



مصطفى رشيد باشا

ثم قامت الثورة اليونانية ضد الحكم التركي في عام 1821م، تطالب بالاستقلال عن تركيا المسلمة، وإحياء الحضارة الهيلينية.

عندما عجزت تركيا عن إخماد الثورة اليونانية، طلبت المساعدة من محمد علي باشا والي مصر. لكن تدخلت أوروبا وحطمت أسطول محمد علي، مما اضطر تركيا للاعتراف باستقلال اليونان.

حينئذ، علم العثمانيون أن الامبراطورية العثمانية في سبيلها إلى الإنهيار، إذا هم لم يبادروا بالإصلاح السريع. لذلك قام السلطان محمود الثاني بالقضاء على العسكر الإنكشارية، بمساعدة قوات من ألبانيا والبوسنة. ولم يدافع عنهم أحد، ولا حتى رجال الدين الذين تحالفوا معهم من قبل. ربما كان ذلك بسبب سوء سمعتهم، وفشلهم في إخماد الثورة اليونانية.

بعد ذلك قامت تركيا بتكوين جيش حديث بمساعدة الفرنسيين والبروسيين. عن طريق هذا الجيش، تم القضاء على لوردات الوادي في هضبة الأناضول، وأمراء كردستان، والمماليك في بغداد.

ثم فتحت مدارس حديثة لتخريج الضباط والأطباء والمهندسين. وأرسلت البعثات إلى أوروبا. وظهرت جريدة تركية رسمية لأول مرة. وصدرت أوامر بإصلاح الأوقاف وإعادة تنظيم الإدارات والدواوين الحكومية. وصدر الدستور التركى لأول مرة عام 1876م.

هذا يوضح لنا كيف بدأ الأتراك في اكتشاف وضعهم المزري وتخلفهم الشديد بالمقارنة بدول غرب أوروبا. لقد تيقنوا أن العلاج لا يكون إلا بفتح النوافذ، والاحتكاك المباشر بالغرب. هذا الانفتاح ، وتلك الأحداث التي مرت بها تركيا، كان لها صداها الخطير في العالم العربي والعالم الإسلامي فيما بعد.

بعد جلاء الجيش الفرنسي عام 1801م، أخذ الشعب المصري ينظر بعين السخط والمقت إلى عودة حكم المماليك وحكم الأتراك معا. لم يكن المصريون قد نسوا مظالم المماليك، وما جره حكمهم على البلاد من خراب. أما الحكم التركي، فقد ظهر من سيئاته ومظالمه خلال السنوات التي أعقبت جلاء الفرنسيين، ما جعل المصريين يكرهون أن يعود هذا الحكم مرة ثانية.

كانت الجنود العثمانية التي تحتل مصر، كما يقول الرافعي، خليطا من أردأ عناصر السلطنة العثمانية. مجردة من النظام والرقي والتهذيب. يقودها رؤساء جهلاء، لم يألفوا من أساليب الحكم، إلا الظلم والقسوة. لم يكن لهم هم سوى النهب والتخريب والاستهانة بأرواح الناس، وإرهاق الشعب بمختلف المظالم.

في هذه الظروف الغير مستقرة، الناتجة عن صراع السلطة بين الوالي والجيش التركي، الذي دخل مصر أعقاب إنسحاب الفرنسيين والمماليك، والجيش الإنجليزي الذي قام باحتلال الاسكندرية ورشيد ودمنهور، ثار المصريون ضد الحكم التركي، وضد الاحتلال الأوروبي.

ثم قام المصريون بعزل الوالي التركي خورشيد باشا. واختاروا بمحض إرادتهم، محمد علي باشا الألباني، واليا عليهم.



الوالي التركي خورشيد باشا

لم يكن أمام السلطان العثماني خيارا آخر، سوى مباركة هذا الاختيار، والاعتراف بمحمد على باشا واليا على مصر.



محمد علي باشا

لم يصدر محمد علي باشا قوانين تحفظ حقوق الأفراد، أو تكفل الحريات للمصريين. ولم يحاول تطوير النظام السياسي، كما حدث في أوروبا. ولم ينشئ سوى المجالس الاستشارية التي هي أشبه بالدواوين الحكومية منها بالمجالس النيابية. مثل المجلس الخصوصي، والمجلس العمومي، ومجلس المشورة.

كان نظام حكمه، هو النظام الاستبدادي الفردي. فكل القرارات، كان يصدرها بنفسه، بعد مناقشتها مع مستشاريه. لم يكن رجال الدين أو كبار المشايخ، الذين اختاروه بإدارتهم لحكم مصر، ضمن مستشاريه المقربين.

كان إلغاؤه للنظام الضريبي للأطيان، وتدخله في شؤون الأوقاف، له تأثير مباشر على النظام الاجتماعي السائد في البلاد. بعد قضائه على طبقة المماليك، كُونت طبقة جديدة موالية له، من الأتراك والأكراد والألبان والشركس والأوروبيين والأرمن. ليس بينهم المصريين.

كان محمد علي باشا، لا يشجع أو يسمح بالاشتغال بالسياسة وشؤون الحكم. عندما أخبره أحد تلاميذ البعثة التعليمية إلى أوروبا، أنه درس نظم الإدارة المدنية في فرنسا، قال محمد علي: "أنا الذي أحكم هذا البلد. إذهب إلى القاهرة، وقم بترجمة الكتب العسكرية"

بالرغم من أنه كان بطلا في نظر الأتراك، لقيامه بتدمير قوة الوهابيين في الجزيرة العربية بأمر السلطان العثماني، إلا أن سياسته كانت هي المساواة بين المسلمين وغير المسلمين. اليهود والمسيحيون والأجانب، كان مسموحا لهم بالإقامة في مصر. وكانت حقوقهم مكفولة. كان يشجعهم على استثمار أموالهم في التجارة والصناعة داخل البلاد.

كان محمد علي باشا، يعلم أن سر قوة أوروبا تكمن في قوتها الاقتصادية. المبنية على العلم والتنظيم. لذلك يمكن القول، أنه أول من وضع الأسس الحديثة للاقتصاد المصري.


توسع في زراعة القطن

فقد قام بالتوسع في زراعة القطن في الأراضي المستصلحة حديثا. عن طريق شق الترع والاهتمام بشبكات الري والصرف.

قام أيضا بوضع نظام حديث للنقل والتسويق. وحاول إدخال الصناعة الحديثة، لكن لعدم وجود السوق المحلية أو الخارجية لمنتجاته، جعلت نجاحه في الصناعة أقل حظا من نجاحه في الزراعة والتجارة.

بسبب اهتمامات محمد علي العسكرية، واحتياجه إلى الأيدي العاملة المدربة، توسع في فتح المدارس وإرسال البعثات إلى أوروبا. كان هدف هذه البعثات واحد. هو نقل الخبرة والعلوم وكل مايمكنه أن يجعل مصر دولة قوية عسكريا واقتصاديا بأسرع وقت ممكن.

كانت هذه البعثات تحت إشراف محمد علي الشخصي. كان يحرص على أنه لا يخرج الطالب عن غرض البعثة المخصص لها. عندما طلبت إحدى البعثات عمل رحلة لمعرفة حياة الأسرة الفرنسية، رفض ذلك بإصرار.

لكن الأفكار الخاصة بالحرية والمساواة وحقوق الإنسان والديموقراطية، التي كانت تجتاح أوروبا في ذلك الوقت، لم يمكن حجبها عن كل أفراد البعثات بسهولة. حيث بدأت الأفكار تتسلل خلال أفراد وطنيين فيما بعد.

كان أول من قام بالتدريس في المعاهد التي أنشأها محمد علي، هم الإيطاليون. لذلك كانت اللغة الإيطالية هي اللغة الأجنبية الأولى. سرعان ما تغيرت لكي تصبح اللغة

الفرنسية. والتي عن طريقها، تسربت أفكار فلاسفة التنوير أمثال فولتير وروسو ومنتسكو إلى مصر.

في عام 1816م، وجدت كتبهم في أحد المدارس المصرية. وأصبحت البعثات منذ عام 1816م، ترسل إلى فرنسا. كانت في بادئ الأمر، مقصورة على الأتراك والأجانب. لكن بمرور الوقت، أصبحت غالبيتها من المصريين.


شريف باشا

الجدير بالذكر، أن طلبة هذه البعثات هم بناة مصر الحديثة. لقد قاموا بترجمة ونشر الكتب العلمية والأدبية والثقافية. من هؤلاء، شريف باشا، صاحب الفضل في ظهور أول دستور مصري، ورفاعة رافع الطهطاوي، أول مفكر سياسي في مصر الحديثة.

أما بالنسبة لبلاد الشام، فإن النظم الحديثة للحكم، جاءت متأخرة. العائلات الكبيرة التي كانت تعيش في المدن، كان نشاطها مقصورا على الأمور المحلية. لا دخل لها بشؤون الحكم ككل. وكان المسيحيون على اتصال بسيط بالأفكار الأوروبية. يرجع تاريخ هذا الاتصال إلى القرن السادس عشر.

في ذلك الوقت، قامت الكنيسة الكاثوليكية بالاتصال بأفراد الكنيسة الشرقية في بلاد الشام، عن طريق الإرساليات المسيحية. منذ عام 1736م، أصبحت الكنيسة المارونية على علاقة خاصة بالفاتيكان. كذلك الأرثوذكس والأرمن والنسطوريين في بلاد الشام. وأصبحوا تحت الحماية الفرنسية، بالرغم من أن البلد سياسيا، كانت تحت النفوذ العثماني.

بسبب الإرساليات والمدارس الكاثوليكية، ظهرت مجموعة من المتعلمين. على دراية بما يدور في أوروبا في ذلك الوقت. فنجد أمير الجبل فخر الدين، كان يستخدم المارون

المتعلمين لتمثيل بلاده في البلاط الأوروبى. وفيما بعد، نجد الحكام الأتراك في سوريا وحكام طرابلس وسيدون، يقومون بتوظيف المسيحيين في الوظائف الكتابية والمالية.

قبل نهاية القرن الثامن عشر، نجد المسيحيين الشوام، يعملون في الجمارك المصرية أثناء حكم المماليك. عندما جاء محمد علي ، قام هو الآخر بإبقاء المسيحيين الشوام في وظائفهم، نظرا لحاجته لهم. من هؤلاء، ظهرت عائلات كانت مشهورة بالقلم. مثل عائلة اليازجي وشدياق والبستاني. ومن هؤلاء تكون عصر النهضة في بلاد الشام.

عندما خضعت البلاد لحكم إبراهيم باشا، ابن محمد علي، بدأت مرحلة جديدة من الانفتاح على أوروبا. وبدأت الشام تعرف النظام المركزي في الحكومة، والجيش النظامي، والبحث العلمي عن المصادر الطبيعية. أهم من كل ذلك، عرفت المساواة بين المسيحيين والمسلمين.

لقد جلسوا جنبا إلى جنب في المجالس الإدارية، التي أنشأها محمد علي باشا في الشام. كان ضمن مستشاري إبراهيم باشا، حنا بحري المسيحي الديانة، وبشير شهاب أمير لبنان الذي توفي على الديانة الكاثوليكية.



بشير شهاب

لكن هذه الوحدة الدينية التي كان يحرص عليها إبراهيم باشا في بلاد الشام، هي التي قامت بمعارضة حكمه والثورة على نظامه.


إبراهيم باشا

عندما هزم إبراهيم باشا الجيش التركي في موقعة نزريب، سار بجيشه داخل آسيا الصغرى.

حينئذ، ارتاعت أوروبا، واعتبرت أن هزيمة تركيا تشكل خطرا على مصالحها في الامبراطورية العثمانية المتهاوية. وسرعان ما تكون تحالف أوروبي. ليجبر محمد علي باشا، على سحب قواته. ليس فقط من آسيا الصغرى، ولكن أيضا من بلاد الشام.

قام الأوروبيون في نفس الوقت، بتحريض الثوار في لبنان ضد حكم إبراهيم باشا. ليس بهدف استقلال بلاد الشام السياسي، لكن تمهيدا لعودة البلاد إلى النفوذ العثماني.
وعندما انسحب إبراهيم باشا من الشام، ومع عودة الحكم التركي، انتهى نظام الإمارة. وقسمت لبنان بين المارونية وبين الدروز. تبع ذلك عشرون سنة من القلاقل والأزمات بسبب النفوذ الأوروبي، والتنافس بين فرنسا وانجلترا وتركيا في المنطقة.

في هذه الأثناء، تسربت الأفكار الأوروبية إلى البلاد. وازداد عدد المتعلمين المسيحيين بسبب انتشار المدارس الكاثوليكية التي تدرس اللغات الأجنبية. ثم أدى ذلك إلى الصدام بين المارونية والدروز. انتهى بالحرب بينهما عام 1860م. مرة أخرى تدخلت الدول الأوروبية. وبعد مشاورات بينهما وبين الباب العالي. تقرر أن يحكم لبنان حاكم

مسيحي، على أن تساعده مجالس محلية، مكونة من أعضاء تمثل السكان تمثيلا متساويا. فالكل متساو أمام القانون.

في جانب آخر من الامبراطورية العثمانية، كانت تدور أحداث لها خطرها أيضا. تونس الخضراء، كانت تتمتع بشبه استقلال عن الدولة العثمانية. كانت تدير شؤونها الداخلية والخارجية بنفسها. منذ منتصف القرن التاسع عشر، بدأت تونس تبني جيشا حديثا. وتدخل نظام الإدارة الحديثة. وبدأت تشجع رأس المال الأجنبي، وتسمح للتجار الأجانب بالدخول والإقامة بالبلاد.

في عام 1857م، أصدر محمد الصادق بك حاكم تونس "عهد الأمان".



محمد الصادق بك حاكم تونس

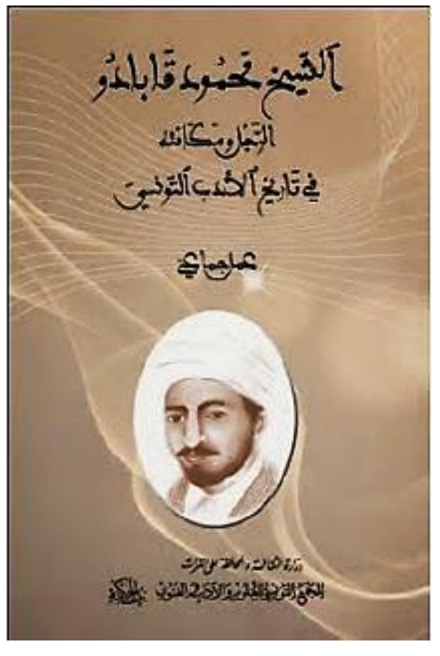
جاء فيه:
"إن الإنسان لا يمكن أن يرتقي ويتقدم إلا إذا توفرت له الحرية، واستظل بحمى العدالة، وتمتع بالمساواة بين المسلمين وغير المسلمين. فيجب أن يتساوى الناس أمام القانون. الأجانب، يجب أن يكون لهم أيضا نفس الحقوق مثل التونسيين."

في عام 1860م، صدر أول دستور تونسي، وهو أول دستور يصدر في بلد إسلامي في العصر الحديث. لا ندري من هم وراء هذا الدستور!؟ هل هم الأجانب، أم أولاد البلد الذين قاموا بزيارة فرنسا؟ لكن لسوء الحظ، لم يستمر الدستور أكثر من بضع سنوات.

وذلك بسبب الأزمة الاقتصادية وتمرد القبائل وتدخل إنجلترا وفرنسا، ورغبة الحاكم في الانفراد بالحكم.

بالرغم من فشل تجربة الدستور، إلا أنها تركت خطوطا عميقة في الضمير السياسي التونسي. فقد أتت على السطح بمجموعة من المصلحين والمفكرين والكتاب. ظهروا في مسجد الزيتونة للدراسات الدينية.

أمثال الشيخ محمد قابادو في المدرسة الحديثة للعلوم العسكرية التي أنشأها محمد بك، وقام بالتدريس بها المدرسون الأجانب.



الشيخ محمد قابادو

10

رفاعة رافع الطهطاوي (1801-1873م)



رفاعة رافع الطهطاوي في شبابه

كان الاتصال بالغرب، في العالم الإسلامي في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن العشرين، سريعا ومتواصلا. في عام 1833م، بعث إبراهيم باشا رسالة إلى السلطان محمود الثاني في تركيا قال فيها: "إن محاولة النهضة لا تبدأ بتزويد الشعب بالملابس الضيقة والبنطلونات. كان الأولى بالباب العالي أن يهتم بتنوير الأذهان أولا"

في عام 1860م، جاءت مجموعة من الأتراك تنادي بتطوير قوانين الامبراطورية العثمانية، حتى تكون على النمط الأوروبي. وفي مصر، صعد إلى الحكم اسماعيل باشا، ابن إبراهيم باشا، ذو الثقافة الفرنسية.

في نفس الوقت في تونس، ظهرت مجموعة من المصلحين على رأسها خير الدين. وفي سوريا ولبنان، لعب المسيحيون الشوام دورا هاما في نقل الثقافة الأوروبية إلى الشرق الأوسط عن طريق الترجمة والصحافة. فهم أول من أقام الصحافة الحديثة في العالم العربي.



عدد ١ — يوم السبت في ٥ اب — سنة ١٨٧٦

الاهرام

(* ثمن الاهرام *)

في الاسكندرية عن سنة واحدة ثلاثة وعشرون فرنكًا وعن ستة اشهر خمسة عشر فرنكًا واثمانها في الخارج خالصة اجرة البوسطة بالصورة الآتية

	عن سنة	ستة اشهر
	فرنك	فرنك
في مصر وسائر الارياف الخديوية	٢٥	١٦
في الاستانة العلية	٢٥	١٦
في [illegible]	٢٥	١٦
في اوروبا والجزائر وتونس	٣٠	١٧
في بمباي وكلكته	٣٠	١٧

ثمن كل نسخة من الاهرام ذات اربع صفحات نصف فرنك

(* مكاتبات الاهرام *)

جميع المكاتبات التي ترسل الينا متعلقة بالاهرام ينبغي ان تكون خالصة الاجرة باسم سليم افندي تقلا محرر الاهرام ومحل ادارتها على شارع البورس امام بنك الرهونات

(* وكلاء الاهرام في الخارج *)

اسماء وكلاء الاهرام تذكر في اخر الجريدة متى وجدوا ويمكن الحصول على الاهرام في الاماكن التي ليس بها وكلاء بارسال حوالة الى مديرها او بارسال طوابع البوسطة من اي نوع كان على قدر مدة الاشتراك

بالاسكندرية في يوم السبت ٥ اغسطس (اب) سنة ١٨٧٦ — الموافق ١٥ (رجب الفرد) سنة ١٢٩٣

هذا هو العدد الاول من السنة الاولى لجريدة الاهرام المرعية بعناية الحكومة السنية والمستعدة الاستعداد التام لان تجعل من بتصفح صفحاتها وانتقاها بمطالعة لانباء تعاني البحث لتقف على الفوائد الصحيحة فتوفي بحقوق الجرائد وتكسب قبول الجمهور والاستقبال شاهد. فعلى اولي الغيرة والهمة مد يد المساعدة الادبية المنتجة المادية وذلك

ومتى بحثنا مدققين في الفرد الواحد مما هو في ذاته وقابلناه بالنسبة الى غيره لاح لنا من وراء الحجاب تلك الصفة الغريزية التي لا يخلو منها انسان ولا تحول عن احد فهي كقول من قال عادة في البدن لا يغيرها الا الكفن وان اردنا ان نعبر عن هذه الصفة بما يدل عليها تدعونا الافكار متسابقة الى التصريح بها بقولنا حب الذات

الى هدم الراحة ليستروا تراس السلام بكثافة غيوم الحروب والقلاقل غير مبالين بما هنالك من تشويش الافكار وانقلاب مركبات الاعمال بتعطيلهم مسالكها القوية كانهم هم العالم ليس سواهم فنرى اذ ذاك تغييرات شتى وانقلابات عديدة ومقاصد متنوعة ومذاهب مختلفة وتصنعا مستمدًا من حركات متجاذبة متدافعة فنلتزم

العدد الأول من جريدة الأهرام صدر 5 أغسطس 1876م

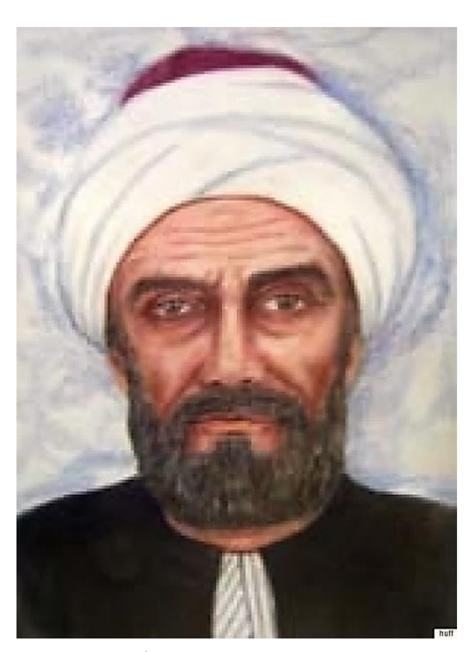
وبدأت تظهر دعوات للإصلاح تناقش موضوعات وتطرح أسئلة هامة مثل: هل دعاوي الإصلاح يجب أن تكون مقصورة على مبادئ الشريعة الإسلامية؟ أم من الضروري الاستفادة من التجربة والثقافة الأوروبية؟ وهل هناك تعارض بين تعاليم الدين الحنيف وبين حضارة الغرب؟

هذه القضايا، حاول كتاب النهضة في العالم الإسلامي الإجابة عليها. فمثلا، ظهر في الدولة العثمانية في ذلك الوقت كُتّاب مثل صادق رفعت باشا، وضياء باشا ونامق كمال. تنادى بالانفتاح على الغرب، مع الاحتفاظ بالقيم والتعاليم الإسلامية. في شؤون الحكم، كانوا يطالبون بالديموقراطية التي تأخذ بالنظام البرلماني الحديث، كأسلوب متطور لنظام الشورى في الإسلام.

في مصر، ظهرت مجموعة أخرى من الكتاب الليبراليين. أمثال رفاعة الطهطاوي، بالإصلاح السياسي والتطوير، مع الاحتفاظ بالقيم والمبادئ الإسلامية. لكن من هو رفاعة الطهطاوى هذا؟ وماهي أفكاره؟

ولد رفاعة رافع الطهطاوى في نفس السنة التي غادر فيها الفرنسيون مصر سنة 1801م. من أسرة فقيرة. إلتحق بالأزهر عام 1817م.

كان تأثير الشيخ حسن العطار شيخ الأزهر عليه كبيرا. فقد كان الشيخ حسن العطار على اتصال بالعلماء الفرنسيين الذين حضروا مع نابليون أثناء الحملة الفرنسية.



الشيخ حسن العطار شيخ الأزهر

عندما طلب محمد علي باشا من الشيخ حسن العطار ترشيح إماما لكي يرافق البعثة التعليمية المصرية مدة إقامتها في فرنسا، كان رفاعة الطهطاوي هو الإمام الذي اختاره الشيخ العطار.

بالرغم من أن الطهطاوي قد رافق البعثة كإمام وليس كطالب، إلا أن السنوات الخمسة التي قضاها في باريس من عام 1826-1831م، كانت أهم خمس سنوات في حياته. فقد استطاع خلالها، رغم خلفيته الأزهرية التقليدية، أن يستوعب الفكر التنويري الأوروبي عند اصطدامه به، وأن يتفاعل معه تفاعلا خلاقا يتماشى مع النهضة التنموية التحديثية التي كان يقودها محمد علي.

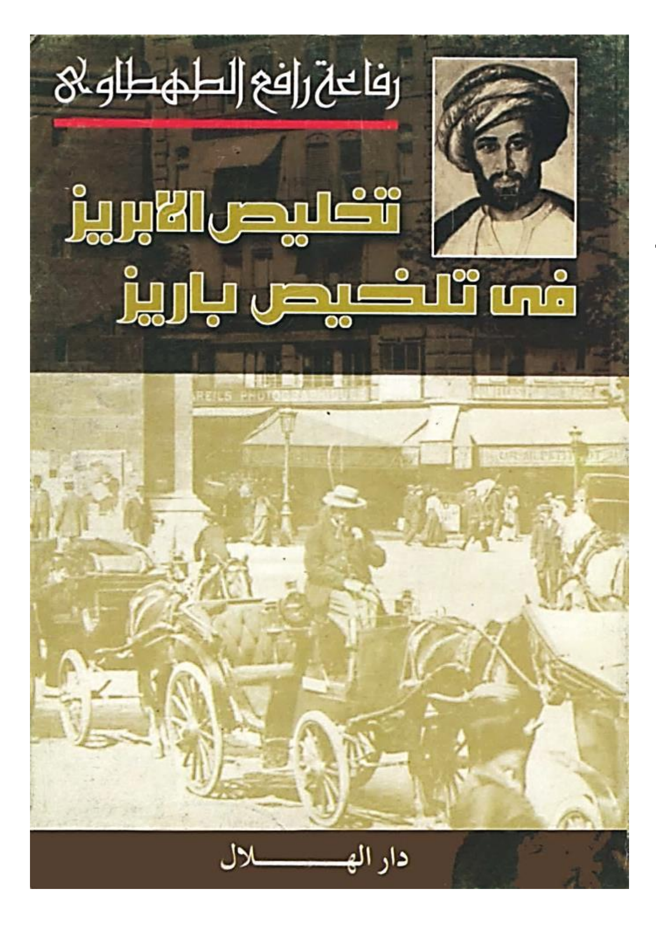
قام الطهطاوي بدراسة اللغة الفرنسية وأتقنها إتقانا تاما في ثلاث سنوات. كان يستعين بمدرس خصوصي على نفقته الخاصة. وقام بقراءة كتب التاريخ القديم والفلسفة اليونانية، وكتب في الميثولوجيا والرياضيات والمنطق، وتراجم عن حياة نابليون، وكتب متنوعة عن الشعر الفرنسي لشعراء مثل راستين، ورسائل اللورد شيسترفيلد، ومؤلفات فولتير وروسو وكوندياك ومنتسكيو. وكتب أخرى عن الهندسة وعلوم الحرب والمعادن والقانون.

لقد تركت أفكار الثورة الفرنسية رواسب عميقة داخل نفسه بالرغم من تعليمه الأزهري السابق. كان الطهطاوي يعتقد أن المجتمع الصالح، هو المجتمع المبني على أسس العدالة، والهدف من الحكومات، هو رعاية مصالح المحكومين، وأن الشعب لا بد له من المشاركة في الحكم. لذلك يجب إعداد أفراد الشعب لهذا الغرض.

كان الطهطاوي يرى أن القانون يجب أن يكون ديناميكيا، يتغير تبعا للظروف. الحكام الصالحون في وقت ما، ليسوا بالضرورة صالحين في كل وقت. حب الوطن هو أساس كل الأخلاق السياسية.

أثناء إقامته في باريس، قام الطهطاوي بالاتصال بعلماء الحملة الفرنسية المستشرقين. وكانت حضارة مصر القديمة قد ملكت عليه كل وجدانه. يدل هذا على فهم الطهطاوي الصحيح والمبكر لقضية الأصالة والمعاصرة. وعلى وعيه العميق لمعنى الكلمات التي خاطب بها أحد علماء الحملة الفرنسية (جومار)، طلاب البعثة المصرية في حفل أقيم عام 1828م لتوزيع الجوائز على الناجحين حيث يقول:

"إنكم منتدبون لتجديد وطنكم الذي سوف يكون سببا في تمدين الشرق بأسره...أمامكم مناهل العرفان فاغترفوا منها بكلتا يديكم..."



عندما عاد الطهطاوي إلى مصر، نشر ملاحظاته عن المجتمع الفرنسي في كتاب "تخليص الإبريز في تلخيص باريز".

الذي ترجم إلى اللغة التركية وعدة لغات أخرى. به ملاحظات الطهطاوي عن الشعب الفرنسي. فهم محبون للنظافة وتعليم الأولاد، ومحبون للعمل، ولا يميلون إلى الكسل. ولهم شغف للمعرفة وحب الاستطلاع. الفرنسيون في علاقاتهم العامة، يثقون في بعضهم البعض، ونادرا ما يخدع أحدهم الآخر.

يحتل كتابه تخليص الإبريز أهمية خاصة بين تلك المؤلفات. فهو بحق أول نافذة أطل منها العقل العربي على الحضارة الغربية الحديثة. يعتبر أشهر كتب الرحلات العربية في العصر الحديث.

كتاب تخليص الإبريز هو البيان الفكري الأول للبرجوازية المصرية الناشئة. هو أول كتاب عربي يُعرّف الفكر الليبرالي من ناحيته النظرية والتطبيقية، إلى جانب عرضه لنظم الحكم الدستورية الأوروبية. أهم ما في الكتاب، الفصول التي تتعرض لوثيقة إعلان حقوق الإنسان، التي جسدتها الثورة الفرنسية بتأثير من فلاسفة عصر التنوير، وترجمته للدستور الفرنسي، دستور عام 1814م.


وقايع مصريه

الوقائع المصرية

ثم عمل الطهطاوي في الترجمة في المدارس الحديثة التي أنشأها محمد علي. في عام 1836م، عمل في مدرسة الألسن، ثم رئيسا لتحرير جريدة الوقائع المصرية.

قام في هذه الفترة بترجمة ما يقرب من العشرين كتابا في الجغرافيا والتاريخ والعلوم العسكرية. أشرف على ترجمة المئات من الكتب الأخرى إلى اللغة العربية والتركية.

منها كتب في التاريخ القديم، وتاريخ العصور الوسطى، وتاريخ ملوك فرنسا، وحياة فولتير وبيتر الكبير، وحياة تشارلز الثاني عشر والامبراطور شارل الخامس وبطرس الأكبر والاسكنر المقدوني وغيرها.



الاسكندر المقدوني

كانت تراجمه لمشاهير وعظماء العالم بطلب من محمد علي، نظرا لاهتمامات محمد علي الشخصية بحياة العظماء. لأنه كان يحاول تقليدهم والاستفادة من سيرهم وتجاربهم في الحكم. لكن أعمال فولتير وجان جاك روسو ومونتسكيو (ابن خلدون الغرب)، كانت من اختيار الطهطاوي نفسه.

عندما توفي محمد علي وخلفه حفيده عباس حلمي الأول عام 1850م.



عباس حلمي الأول

لم يرث عباس الأول ملكة أو عظمة جده محمد علي أو شجاعة وعبقرية عمه إبراهيم باشا، بل كان حاكما خالي المواهب والمزايا. استهل حكمه بتصفية معظم المدارس والمؤسسات التحديثية التي أنشأها جده. من بينها مدرسة الألسن. وأغلق عباس أيضا المصانع وشرد عمالها. كذلك أوقف العمل في بناء القناطر الخيرية. وهدم ما كان قد أنجز منها.

ثم قلص الجيش إلى درجة كبيرة، وحوله إلى حرس شخصي له. نهب الفلاحين، وأكد ولاءه وتبعيته للسلطان التركي، وأثبت مناصرته للأنظمة التركية القديمة. جاهر باحتقار الثقافة الغربية وأتباعها.

لذلك، شرد دعاة التحديث وعلى رأسهم الطهطاوي، الذي أبعده إلى السودان، لكي يعمل مديرا لمدرسة إبتدائية بسيطة عام 1850م، لمدة أربع سنوات. فحل الجهل والتخلف في البلاد من جديد. وقويت شوكة الإقطاع والعناصر الغير مصرية.

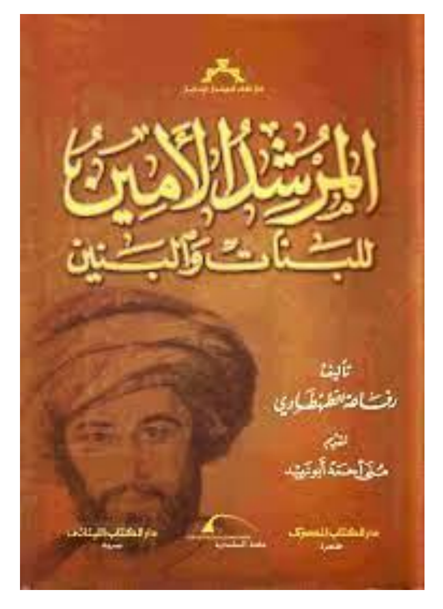
لكن بمجئ سعيد باشا، ابن محمد علي، إلى الحكم عام 1854م، عاد الطهطاوي إلى القاهرة ليواصل عمله السابق كرئيس لمدرسة الألسن، والمشرف على أعمال الترجمة.



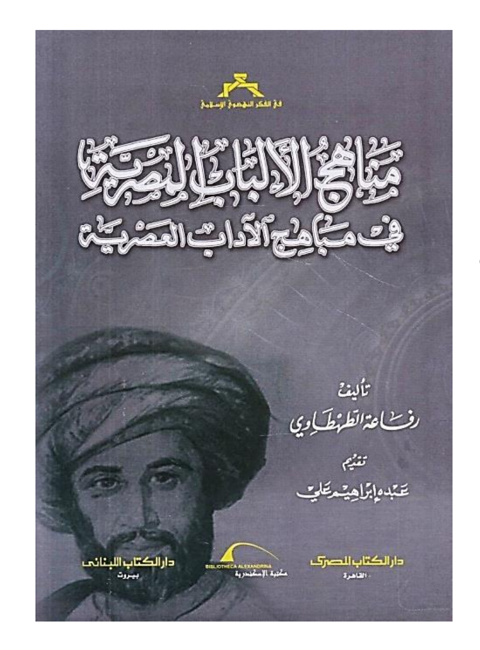
سعيد باشا


الخديوي اسماعيل

في عهد الخديوي اسماعيل، الذي حكم مصر من 1763 إلى 1879م، ابن إبراهيم باشا وحفيد محمد علي باشا، إزداد نفوذ الطهطاوي، واشترك في وضع السياسة التعليمية للدولة المصرية. وشجع طبع الأعمال الأدبية العربية العريقة، مثل أعمال ابن خلدون في المطبعة الأميرية ببولاق.



في السنوات الأخيرة قبل وفاته، نشر الطهطاوي عدة مقالات في إصدارات وزارة المعارف. ألف كتابا عن تاريخ مصر وعن التعليم، وكتاب المرشد الأمين للبنات والبنين،



وكتاب مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية.

كتابه الأخير يوضح الاتجاه الليبرالي الذي رسمه الطهطاوي للمجتمع المصري. كيف كان المجتمع المصري في الماضي، وكيف فقد طريقه، وكيف يعود إليه. الكتاب يوضح نظرية الطهطاوي في التعليم المصري. التي أتبعت في عهد اسماعيل باشا والحكام الذين أتوا بعده.

لم تخرج نظرية الطهطاوي في التعليم عن التعاليم الإسلامية. فقد كانت السنة وأحاديث الصحابة في أمثلته وكتاباته. لكنه أعطى السنة وسير الصحابة بعدا ومفهوما جديدين. لأن الحكومات الإسلامية في ذلك الوقت، كانت حكومات أوتوقراطية. من الصعب تغييرها إلى حكومات ديموقراطية ليبرالية على النمط الأوروبي دفعة واحدة.

لذلك كان ينادي بالإصلاح التدريجي في نظام الحكم. الحاكم يجب أن تكون سلطاته مقيدة بالقوانين. الحكومة يجب أن تكون مسؤولة أمام ممثلي الشعب. أما بالنسبة للشريعة، فهو أول من أشار إلى فتح باب الاجتهاد.

كان من رأيه أنه لا تعارض بين الشريعة والقوانين الوضعية. أي أن الشريعة يمكن أن تفسر في ضوء الحاجات والمتغيرات الحديثة. مما يضمن للمجتمع ديناميكيته، حتى يستطيع إيجاد الحلول المناسبة لمشاكله أولا بأول.

إذا أراد رجال الدين تفسير الشريعة في ضوء احتياجات العصر، عليهم أن يكونوا على دراية وفهم عميق باحتياجات العصر. الطبيب يجب أن يفهم الداء قبل أن يصف الدواء.



الطبيب يجب أن يفهم الداء قبل أن يصف الدواء

الطهطاوي يرى أن الفلسفة والعلوم الحديثة، كانت موجودة في العالم الإسلامي إلى وقت قريب، لكنها ذبلت في عصره. نظرا لاتباع رجال الأزهر سياسة عدم قبول العلوم الحديثة اللازمة للنهوض بالدول. مثل علوم الاجتماع ونظم الحكم والاقتصاد. الأطباء والمهندسون والاقتصاديون، يجب أن يكون لهم الاحترام الذي يحظى به رجال الدين.

العامة يجب تدريبهم على فهم حقوقهم السياسية. الحكام يجب أن تخاف الرعية، وأن تكون العلاقة بين الحاكم والمحكوم، هي علاقة بين الحقوق والواجبات. الثروة القومية وصلاح الأمة يعتمدان على أخلاقها. طالما كانت الأخلاق قوية، كانت الأمة عظيمة. الطريق إلى الأخلاق هو التعليم. فالتعليم يجب أن يكون متصلا بمشاكل الوطن. التعليم الابتدائي، يجب أن يكون إلزاميا للجميع.



التعليم يجب أن يكون إلزاميا للجميع

التعليم الثانوي يجب أن يكون رفيع المستوى.



التعليم الثانوي يجب أن يكون رفيع المستوى

المرأة يجب أن تتعلم مثل الرجل.



المرأة يجب أن تتعلم مثل الرجل

هو بذلك يكون أول من نادى بتعليم المرأة ومساواتها بالرجل قبل قاسم أمين بعدة عقود. تعليم المرأة ضروري لثلاثة أسباب: الأول، هو التوافق في الزواج وتربية الأولاد تربية جيدة. الثانى، لإعدادها للعمل في الأعمال المناسبة لها إذا دعت الحاجة لذلك. السبب الثالث، لحمايتها من الحياة الخاوية التي تحياها المرأة الجاهلة وسط باقي النساء الجاهلات.

ويواصل الطهطاوي آراءه في التعليم فيقول إن التعليم يجب أن يهدف إلى تكوين الشخصية الصالحة عند الفرد. التعليم ليس مجرد تجميع معلومات.

التعليم يهدف إلى تكوين الشخصية الصالحة للفرد


المدارس يجب أن تهتم بالرياضة البدنية وصحة الأطفال

لذلك يجب أن تهتم المدارس بالرياضة البدنية. ويجب أن تراعي النواحي الصحية في عدد التلاميذ في الفصل الواحد. والإشراف الطبي والنظافة وخلافه.

كما يجب أن تنمي المدرسة المثل والأخلاق الكريمة في نفوس الطلبة، وتشجع الصداقة المخلصة والشجاعة وحرية إبداء الرأي والعفو عند المقدرة واحترام الوالدين وكبار السن وما شابه ذلك من قيم نبيلة.


تحية العلم في مدارس أبو ظبي

أهم من كل ذلك، الاهتمام بغرس حب الوطن في نفوس التلاميذ.

حب الوطن هو الدافع الرئيسي لبناء المجتمعات المتحضرة. نلاحظ هنا أن الطهطاوي في كتبه، كرر ذكر حب الوطن مرارا وتكرارا. كأنه أراد أن ينبه جيله والأجيال القادمة بأهمية حب الوطن في بناء المجتمعات الحديثة. هذا ما رآه في فرنسا أثناء إقامته في البعثة التعليمية. واجبات الفرد نحو وطنه عديدة، منها: الوحدة الوطنية، الامتثال للقانون، والتضحية بكل ما هو رخيص وغال في سبيله.

وطنية رفاعة كانت مصرية علمانية صحيحة. لا إسلامية أو عربية فقط. تشمل قدماء المصريين، وأبناء مصر غير المسلمين. كانت وطنيته تعتبر تقدما وتطورا وحضارة. ترتبط بنظام سياسي علماني، يحفظ الحياة ويصون العدالة والمساواة لجميع المواطنين.

نظام سياسي ينمي الاقتصاد، ويطور المؤسسات العلمية والدينية. في مقدمتها جامع الأزهر. لتساهم جميعا في نشر ثقافة عقلانية تؤدي إلى إزدهار مصر وعظمتها التي كانت لها يوما في قديم الزمان.

أما حقوق الفرد فهي الحرية. حرية الرأي وحرية التعبير، وحرية اختيار الحاكم، وحرية اختيار من يمثلونه في المجالس النيابية.


المجلس النيابي المصري

الحرية فقط هي التي تخلق الوطنية. نلاحظ هنا أن ابن خلدون كان يرى أيضا أن الوطنية، وكان يسميها العصبية، هي أساس وحدة وقوة المجتمعات. إلا أن ابن خلدون كان يرى العصبية تعتمد على صلة الرحم والدم، بينما الوطنية التي ينادي بها الطهطاوى، تعتمد على صلة الإنسان بالمكان والأرض.

في كتاب المناهج، يقول الطهطاوى: "إن كل ما يربط المؤمن بأخيه المؤمن في العقيدة، يربط أيضا المصري بأخيه المصري في الوطن. لأن رباط الوطن يأتي قبل رباط الدين. فهناك إلتزام خلقي لكل من يشارك في نفس الوطن. لكي يعمل على رفعة ومجد هذا الوطن"



ثورة 1919، رباط الوطن يأتي قبل رباط الدين

لكن ما هي هذه الوطنية التي ينادي بها الطهطاوي؟ ينادي الطهطاوي بالوطنية المصرية التي تشمل كل من يعيش على تراب مصر. مصر بالنسبة له شئ مختلف. يبدأ تاريخها المتصل منذ عصر الفراعنة إلى العصر الحديث.

كتب الطهطاوي شعرا أثاء إقامته في باريس يمدح فيه الفراعنة. لم تكن مصر القديمة مجرد موضوع للفخر والتباهي. لكنها بالنسبة له، كانت جذور عميقة للحضارة والخلق والازدهار الاجتماعي والاقتصادي.

إذا كان القدماء في مقدورهم أن يقيموا هذه الحضارة العظيمة بالاعتماد على أنفسهم، فإن مصر الحديثة تستطيع ذلك. لأن الشعب المصري لم تتغير خصائصه منذ زمن الفراعنة.



الشعب المصري يستطيع أن يقيم حضارة مثل حضارة الفراعنة

سبب تأخر مصر حديثا، يرجع إلى حكم المماليك والأتراك. الطنطاوي هنا يؤكد ما قاله نابليون بونابرت للمصريين أثناء الحملة الفرنسية.

لم يكن الغرب بالنسبة للطهطاوي هو مجموعة من الدول الاستعمارية، التي يجب مقاطعتها ومحاربتها وحماية أنفسنا من حضارتها، كما يحمي السليم نفسه من الأمراض المعدية. لكن الغرب كان بالنسبة له هو العلوم الحديثة والثقافة والفكر والأدب والسياسة والاقتصاد الحديث والأسلوب العلمي في حل المشاكل.

مصر لا بد أن تأخذ بالعلوم الحديثة.


لابد أن نأخذ بالعلوم الحديثة

لأن العلوم الحديثة التي تنتشر في أوروبا اليوم، هي علوم كانت في الأصل إسلامية. إذا أخذ المسلمون بعلوم الغرب اليوم، فهم يستردون ما كان لهم في يوم من الأيام. الطريق الوحيد للاستفادة من علوم الغرب، هو طريق الاحتكاك المباشر. أي طريق البعثات والتجارة والصناعة.

هنا يقول الطهطاوي:
"مخالطة الأغراب، لاسيما إذا كانوا من أولي الألباب. تجلب للأوطان من المنافع العمومية، العجب العجاب"

لكن الطهطاوى يحذرنا من التقليد الأعمى بدون وعي، وإغفالنا لقيمنا وتقاليدنا النبيلة المتوارثة. لأن الحضارة الغربية قد تضع الجانب الأخلاقي في مرتبة أدنى من الجانب المادي. فمثلا الدستور الفرنسي ينص على مبادئ أساسية للعدالة، لكن هذه المبادئ لا ترقى إلى مبادئ الأخلاق التي تحض على الإحسان بالوالدين والعطف على الفقير ومساعدة الصغير واحترام الكبير.

هذا يذكرنا بالقضية التي نشرتها جريدة الديلي نيوز التي تصدر في مدينة نيويورك في ثمانينات القرن العشرين. حيث رفع الابن الأمريكي دعوة لطرد والده ووالدته لعدم سدادهما إيجار الشقة التي يستأجرانها من الابن. فأمر القاضي بطرد الوالدين من الشقة. وقال في حيثيات الحكم أنه ينفذ نص القانون، والقانون لا يفهم معنى الرحمة.

لكن تحذير الطهطاوي من بعض جوانب الحضارة الغربية، لا يعني من قريب أو بعيد الرفض الكامل لها. لأن الانفتاح عل الغرب وتعلم لغاته وحضارته، لا يشكل الخطر الذي

يتخوف منه رجال الدين وبعض مفكري الشرق. وقد تبنى هذه الأفكار فيما بعد، رجال مثل جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وأحمد لطفي السيد وطه حسين.

إذ كانوا ينادون بالانفتاح الحضاري على الغرب بفهم ووعي. دون خوف على تقاليدنا وديننا. لأن الخطر الحقيقي الذي يواجهه العالم الإسلامي اليوم، هو خطر عدم الانفتاح على الغرب.

11

جمال الدين الأفغاني (1838-1897م)

في الوقت الذي بدأت تظهر فيه قوة الدول الأوروبية وضعف الدول الإسلامية بصفة عامة، والدولة العثمانية بصفة خاصة، كان الحل بالنسبة لرجال الفكر والطبقة المتعلمة هو الانفتاح على أوروبا. وأخذ سر قوتهم التي تتمثل في العلوم الحديثة ونظم الحكم.



جمال الدين الأفغاني

كان الحل بالنسبة لرجال الدين والسلاطين العثمانيين هو وحدة العالم الإسلامي حول الخليفة أو السلطان وطاعته في حالة الرضا، وعدم الثورة عليه في حالة الغضب. المسلمون يجب أن يطيعوا أولي الأمر. يشكرونهم إن صلحوا، داعين لهم بالهداية إن فسقوا.

في الوقت الذي كانت تحتل فيه إنجلترا الهند (قبل التقسيم)، وتحتل فيه فرنسا شمال أفريقيا، وروسيا القوقاز وتركستان، كان السلطان عبد الحميد في النصف الثاني من القرن التاسع عشر،



السلطان عبد الحميد الثاني

يجمع حوله رجال الدين ومشايخ الطرق الصوفية أمثال الشيخ محمد ظافر من مكة وبعض أعضاء الطريقة الشاذلية والشيخ فضل شيخ الطريقة العلوية من حضرموت

والشيخ أبو الهدى السيدي شيخ الطريقة الرفاعية. ذلك لموازنة الفكر الوهابي الأصولي في ذلك الوقت.

في هذه الآونة ظهرت دعوة أخرى جادة تهدف إلى وحدة العالم الإسلامي في مواجهة الخطر الأوروبي. هذه الدعوة، إلى جانب مناداتها بالوحدة الإسلامية، كانت تنادي بالإصلاح السياسي والاجتماعي.

هي دعوة إلى إيقاظ العالم الإسلامي من سباته العميق. لكي يواجه الخطر المحدق به. خطر التخلف والاحتلال الغربي. هذه الدعوة تمثلت في شخصية فريدة في التاريخ المعاصر. تركت بصماتها على الحركات الإسلامية التي ظهرت في العالم الإسلامي الحديث منذ نهاية القرن التاسع عشر حتى الآن. هذه الشخصية هي شخصية جمال الدين الأفغاني.

بالرغم من شهرة جمال الدين الأفغاني، إلا أن أصل وطنه لا يزال يشوبه الغموض. هو ينتسب إلى الأشراف سلالة الرسول، ويدعي أنه أفغاني الجنسية، من البلد التي أعطتنا "طالبان".

لكن أعداءه يتهمونه بأنه شيعي من إيران، تعلم في مدينتي النجف وكربلاء. كتاباته ومحاضراته تدل على أنه كانت لديه معرفة جيدة بالفلسفة الإسلامية. خاصة فلسفة ابن سينا، التي كانت لا تزال حية في إيران في ذلك الوقت.



ابن سينا

كان الأفغاني خطيبا بارعا، يتقن عدة لغات. كرس حياته كلها للدفاع عن الإسلام والدول الإسلامية التي يتهددها خطر الاستعمار الغربي. كان يرى، كما شاهد في الهند، أن الاستعمار يعمل على تفتيت الأمة وإضعاف إيمانها بعقيدتها.

كان يعتقد أن شعوب الغرب ليست بأفضل من الشعوب الإسلامية. إنما يرجع ضعفها إلى عدم اتحادها وجهلها وعدم تمسكها بقيمها الخلقية التي تدعو إليها الأديان. الدول الإسلامية ضعيفة لأن الإسلام فيها شعائر فقط وليس حضارة.

لذلك يكون واجب كل مسلم، هو أن يساهم في الحضارة. فسر قوة الغرب تكمن في إتقانه للعلوم والتكنولوجيا والإدارة والتنظيم والسياسة والاقتصاد. لكي يتفوق العالم الإسلامي على العالم الغربي، يجب أن يتفوق المسلمون على الغرب في درجة إستيعابهم واستخدامهم لهذه العلوم.

هذه الأفكار لم تكن جديدة بالنسبة للعالم الإسلامي. فمثلا، كان محمد علي باشا الكبير حاكم مصر، قبل الأفغاني، يأخذ بالعلوم الغربية لتقوية البنية الأساسية للدولة المصرية.

لكن الجديد في دعوة الأفغاني، هو أنها كانت تطلب الأخذ بالعلوم الغربية للدفاع عن الإسلام نفسه. كان يطالب بكل قوة وعزم فتح باب الاجتهاد من جديد.

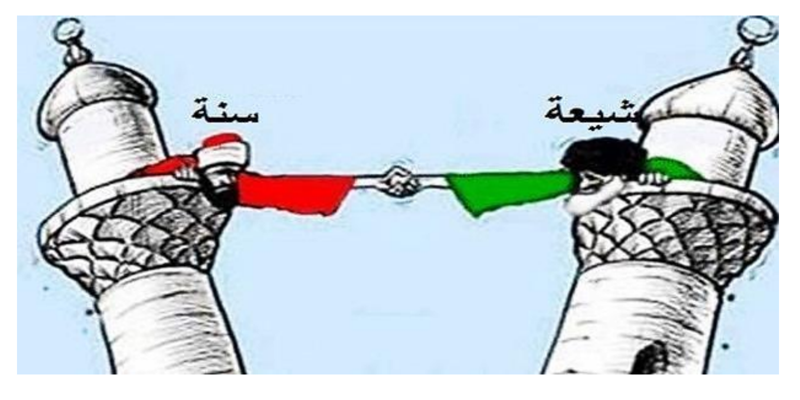
يرفض بكل شدة الامتثال إلى فتاوي المدارس القديمة بغير تفكير. ويطلب العودة إلى روح الإسلام وبساطته. كان يشجب الخرافات والشعوذة التي تشوه صورة جمال الدين الحقيقية.



كان الأفغاني يرفض فتاوي المدارس القديمة بغير تفكير

الإسلام يدعو إلى الوحدة وإلى التقدم الإجتماعي. وإلى طلب العلم واستخدام العقل. انقسام المسلمين إلى شيع وأحزاب، هو سبب ضعفهم. ويطلب الأفغاني من المسلمين الاستفادة مما حدث في ألمانيا أيامه. عندما فقدت ألمانيا وحدتها القومية بسبب صراعها الديني.

كان يرى الأفغاني أن الخلاف بين السنة والشيعة، يمكن علاجه بما يعود بالفائدة على كل المسلمين.



الخلاف بين السنة والشيعة يمكن علاجه

لذلك نجد الأفغاني ينادي بوحدة إيران مع أفغانستان. كان من رأيه أن الحكام المسلمين، يجب أن يعملوا على ما فيه مصلحة العالم الإسلامي. لم يكن يعني بالوحدة الإسلامية، إذابة كل الفوارق والحدود بين الدول الإسلامية وتوحيدها تحت حاكم واحد، أو إعادة نظام الخلافة.

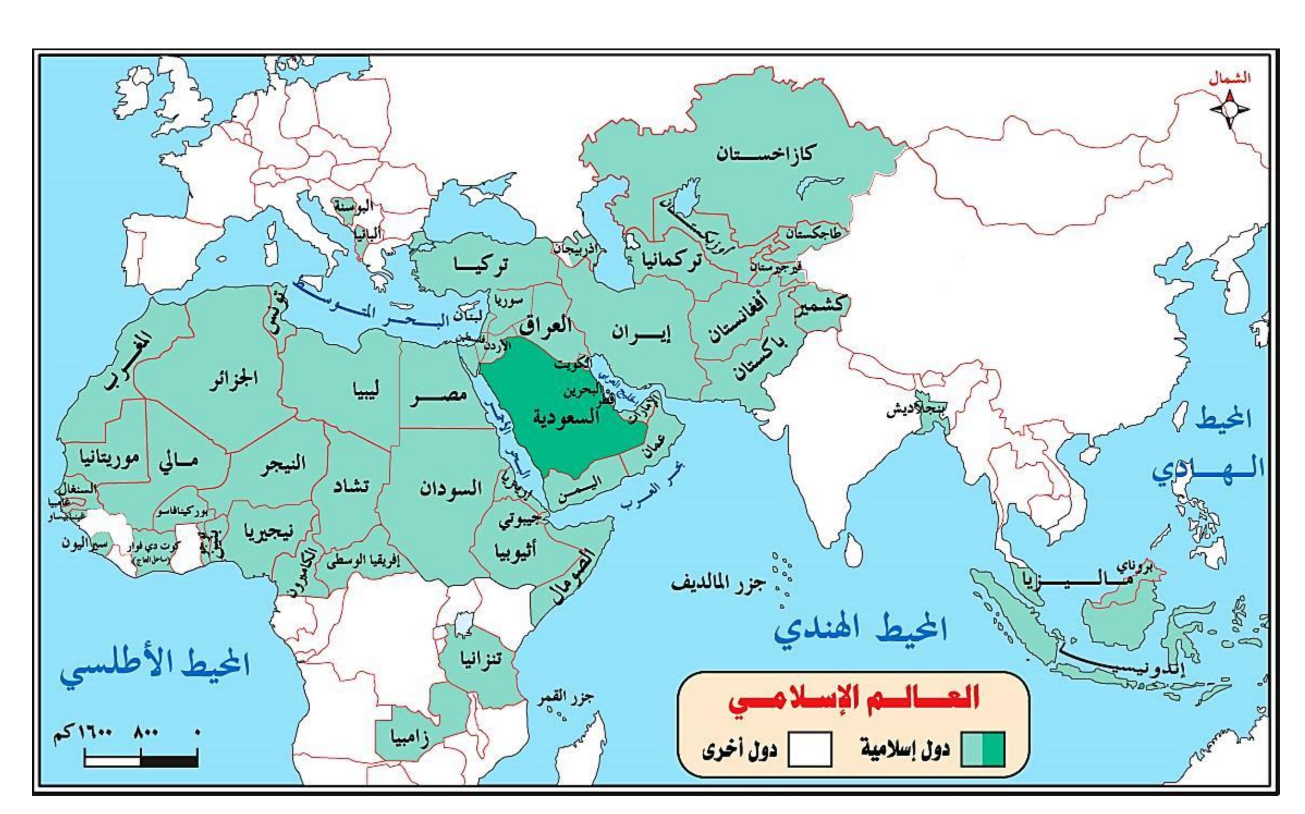
إنما كان يعني بالوحدة، وحدة الهدف والمصير. وقوف كل دولة بجانب الأخرى وقت الشدائد. إذا لم يوجد مثل هذا التعاون بين الدول الإسلامية، يكون المسلمون في هذه الحالة، غير ملزمين بطاعة حكامهم.

كان الأفغاني يعتقد أن حكام الدول الإسلامية في ذلك الوقت، غير جديرين بمناصبهم. لا يهتمون إلا بإشباع شهواتهم الحسية. وقعوا جميعا في براثن النفوذ الأجنبي. فهم من أهم أسباب ضعف وتخلف شعوبهم.

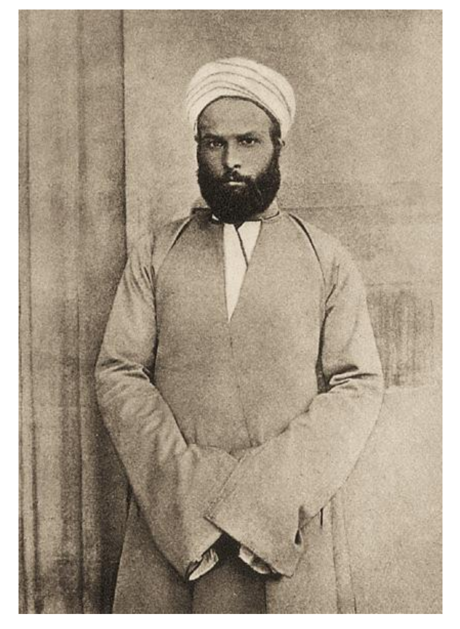

وجبة الأفغاني اليومية تختلف عن وجبة العربي اليوم

الأفغاني رجل فهم رسالته وما تتطلبه من جهاد. لذلك لم يرتبط بأسرة. لم يستعبده مال. عاش لأفكاره ومبادئه. تكفيه وجبة بسيطة واحدة في اليوم. أعد نفسه للنفي في أي لحظة.

قضى جمال الدين الأفغاني فترة من شبابه في إيران. ثم قضى فترة أخرى من شبابه في الهند. درس أثناءها العلوم والرياضيات الحديثة. ثم ذهب بعد ذلك إلى أفغانستان حيث اشتغل بالسياسة حتى وصل إلى درجة وزير.



عندما قام انقلاب في أفغانستان ضد الحكومة بمساعدة الإنجليز، فر الأفغاني إلى الحجاز، ومنها إلى الهند.



الإمام محمد عبده

لكنه طرد من الهند فذهب إلى إستامبول مارا بمصر، حيث تعرف هناك على الإمام محمد عبده عندما كان طالبا صغيرا في الأزهر.

في إستامبول، ألقى الأفغاني محاضرة، رفع فيها من شأن الفلسفة الإسلامية، إلى الدرجة التي أغضبت رجال الدين المتحفظين في تركيا.



رياض باشا

غادر الأفغاني تركيا إلى القاهرة، لكي يجد هناك ترحيبا خاص من رياض باشا رئيس الوزراء، الذي خصص له معاشا شهريا قدره عشرة جنيهات.

استمر الأفغاني في القاهرة مدة ثمان سنوات من عام 1871م إلى عام 1879م. كانت أهم سنوات حياته. قضاها في إلقاء المحاضرات. كون خلالها مجموعة تلاميذ، لعبوا دورا هاما في مستقبل مصر السياسي.

منهم، الإمام محمد عبده



الإمام محمد عبده

وسعد زغلول، الذي أصبح فيما بعد، بطل مصر الوطني وزعيم ثورة 1919، ورئيس الوزراء.



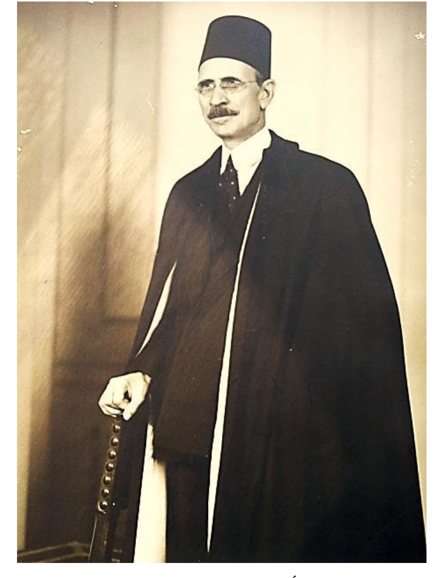
سعد زغلول

من تلاميذه أيضا، محمود سامي البارودي،



محمود سامي البارودي

وعبد السلام المويلحي، وإبراهيم المويلحي، وإبراهيم اللقاني، وعلي مظهر وسليم النقاش وأديب إسحق وأحمد لطفي السيد وغيرهم.



أحمد لطفي السيد

كانت هذه السنون الثمانية من أشق السنين على مصر. إذ بعد أن كانت البلاد تعيش في رغد، استدانت لرفاهية غير ضرورية. حتى بلغت الغاية في الدين. فأخذ الدائنون يحجرون عليها ويتدخلون في شئونها ويشرفون على مصادرها ومواردها.


الخديوي اسماعيل

بلغت الديون التي اقترضها الخديوي اسماعيل في الفترة ما بين سنة 1864م وسنة 1875م، نحو خمسة وتسعين مليونا من الجنيهات.

فجاءت بعثة "كيف" سنة 1875م لفحص مالية مصر واقترحت إنشاء مصلحة للرقابة على ماليتها، وأن يخضع الخديوي لمشورتها. وأنشئ صندوق الدين سنة 1876م، فكانت حكومة أجنبية داخل الحكومة المصرية.

أنشئ أيضا نظام للرقابة الثنائية في نفس السنة. كان بمقتضاه أن يتولى الرقابة على المالية المصرية مراقبان، أحدهما إنجليزي والآخر فرنسي. ثم تطورت الرقابة الثنائية إلى تأليف وزارة مختلطة برياسة نوبار باشا يدخلها وزيران أوروبيان. أحدهما إنجليزي والآخر فرنسي. كل هذا حدث مدة إقامة الأفغاني في مصر. وكان من طبعه الإنغماس في السياسة.

كان الأفغاني يدرس لتلاميذه في منزله مفهومه الإسلام الصحيح. وإلى جانب دراسة الإسلام كدين وفقه، كان يشرح لتلاميذه أصول الشريعة والتصوف والفلسفة الإسلامية التي حرم الأزهر تدريسها منذ مدة طويلة. والتي كان ولا يزال ينظر إليها رجال الدين في مصر بالشك والريبة.

في مدرسة الأفغاني، تحول الأدب من خادم للأرستقراطية، إلى خادم للحقيقة والشعب الكادح. فقد كان الأدب في الماضي، لا هم له إلا مدح الملوك والأمراء، والتغني بأفعالهم وصفاتهم، مهما بلغ من ظلمهم.

كل حاكم هو عبقري زمانه وفريد عصره وأوانه. صاحب المعجزات ورافع الرايات وقائد الغزوات. المعصوم من الخطأ والمحاط بالعناية الإلهية. يقترف كوارث الأفعال فلا يلام. يشاد بفضله إن عفا ويغفر له إن هفا.

الفن والشعر والنثر أدوات خلقت لكي تطربه وتسليه، عملت لنهش أعدائه وتجريح منافسيه.



الركوع والخنوع للحاكم

أتى جمال الدين الأفغاني ليسخّر الأدب في خدمة عامة الشعب. يطالب بحقوقه ويدفع الظلم عنه، ويهاجم من اعتدى عليه. الأدب وسيلة لكي تبين للناس سوء حالهم وأسباب بؤسهم.

لكي تبين لهم علة فقرهم من دون الأمم. أدب جديد ذو هدف نبيل. يهتم بعامة الناس، لا بالملوك والأمراء والصفوة. ينشد الحرية، ويناهض العبودية، ويبصر الحاكم بواجباته المنسية، ويهدي الناس إلى حقوقها المهضومة.

كان الأفغاني في نفس الوقت، ينبه تلاميذه إلى الخطر الخارجي المحدق بالعالم الإسلامي. الخطر الذي رآه الأفغاني، ليس خطر فقد الاستقلال السياسي فقط، إنما خطر القضاء على الإسلام نفسه.

كان ينبه تلاميذه للحاجة إلى بعث القومية والوحدة الإسلامية، لمقاومة هذا الخطر. والحاجة الماسة أيضا إلى الإصلاح السياسي، وتقييد سلطات الحاكم بالدستور. لأن الأفغاني وجد أن ضعف العالم الإسلامي يرجع بدرجة كبيرة إلى فساد حكامه وطغيانهم.

قام الأفغاني بتشجيع تلاميذه على الكتابة وإصدار الصحف.

لذلك قام بتشجيع "أديب إسحق" على إنشاء جريدة "مصر"، وكان يساهم بالعديد من المقالات فيها.



أديب إسحق

ثم أوعز إليه بالانتقال إلى الإسكندرية وإصدار صحيفة يومية اسمها "التجارة". كان الأفغاني يكتب لهاتين الصحيفتين. هو والإمام محمد عبده، وإبراهيم اللقاني، وغيرهما.

لقيت صحيفتي "مصر" و"التجارة" رواجا كبيرا، ولفتا لهما الأنظار بروحهما الجديدة. لكن أغلقهما للأسف رياض باشا. وكان الأفغاني يوجه الكتّاب إلى الكتابة في الوقائع المصرية وأمثالها. فربى بذلك طائفة من الصحفيين والأدباء، تحسن الكتابة وتحسن اختيار الموضوعات التي تمس حياة الأمة في صميمها.

قام الأفغاني بالإتصال، كذلك، بالكاتب الفكه ورائد المسرح "يعقوب صنوع"



يعقوب صنوع

لكي ينشئ مجلة هزلية اسمها "أبو نضارة". ينتقد فيها سياسة اسماعيل باشا.



صفحة من مجلة أبو نظارة



أحمد عرابي

كان الأفغاني يقول مخاطبا الشعب المصري: "هبوا من غفلتكم! اصحوا من سكرتكم! عيشوا كباقي الأمم أحرارا سعداء". من هنا بدأت شرارة الثورة العرابية.

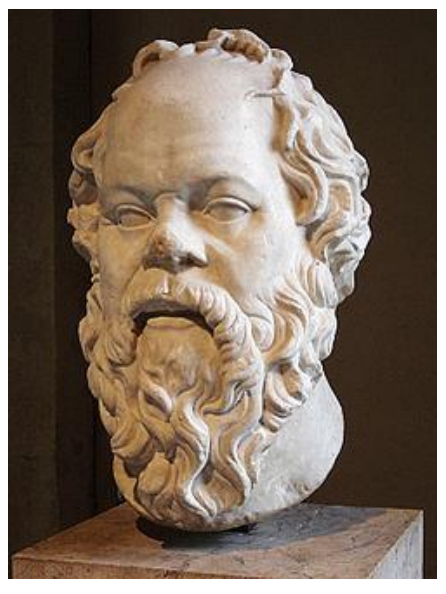
ماذا يريد الأفغاني من الشعب المصري. يريد منه أن يتحرر من عبودية الحاكم. وأن يعرف الناس حقوقهم وواجباتهم وعلاقتهم بالحاكم وعلاقة الحاكم بهم. وأن يعرف كل منهم حدود الحاكم. فإن تعدى الحاكم هذه الحدود قال له الشعب لا.



الخديوي توفيق

كان يهدف الأفغاني من إصدار الصحف تشكيل الرأي العام. لكي يعمل كقوة ضاغطة للإصلاح والتغيير. فالتغيير لا يتم إلا إذا كان مطلبا شعبيا. وكان الأفغاني على علاقة طيبة بالأمير توفيق ابن الخديوي اسماعيل في بادئ الأمر.

لكنه بعد أن أصبح خديوي مصر، بعد عزل والده الخديوي اسماعيل، سعى إليه الساعون. فاجتمع مجلس الوزراء وقرر نفي الأفغاني بتهمة أنه رئيس جمعية سرية من الشبان ذوي الطيش. مجتمعة على إفساد الدين والدنيا.


سقراط كان متهما بإفساد الدين والدنيا

ها هي قصة سقراط تتكرر من جديد.

تم القبض علي الأفغاني وعلى خادمه أبي تراب عام 1871م. وضعا على ظهر باخرة سارت بهما إلى بمباي في الهند. كان هذا آخر العهد بالأفغاني في مصر. يقال أن الطرد من مصر كان بإيعاز من الانجليز، وأيضا بسبب خوف الخديوي توفيق من تأثير الأفغاني على الطبقة المثقفة في البلاد.



غادر الأفغاني مصر، لكي يقضي عدة سنوات في حيدر أباد في الهند.

منفيا لا يسمح له بالتنقل. كان خلالها تحت الرقابة البريطانية المتواصلة. أثناء هذه المدة، ألف كتابه "رسالة في إبطال مذهب الدهريين". كتبها بالفارسية ثم ترجمت إلى الأردية، ثم ترجمها الشيخ محمد عبده إلى العربية بمعاونة تابع الأفغاني.



يقول الدكتور أحمد أمين، في كتابه "زعماء الإصلاح في العصر الحديث"، إن مذهب الدهريين قديم.

تراه في البوذية وعند قدماء المصريين، وعند بعض فلاسفة اليونان. ظهر في العصر الحديث في الثورة الفرنسية. ودعا إليه كثير من الفلاسفة في إنجلترا وفرنسا والمانيا. وعرفه العرب قديما وسموا أصحابه "الدهريين".

حكى مذهبهم الجاحظ والشهرستاني وغيرهما من مؤرخي المذاهب. وحجة الأفغاني في تفنيد مزاعم الدهريين، أن الأديان هي علة العمران وعليها تتوقف سعادة الإنسان. أما الدهريون والماديون، كما يقول الأفغاني، فتؤدي تعاليمهم إلى إنكار هذه السنن. فتنزل الإنسان منزلة الحيوان. وتفقده الباعث على الخير. وتعده لحياة جامدة ضيقة جافة، لا قلب لها ولا سمو فيها. وهذا انتكاس لخلقه وهدم لكيانه.

عندما قامت الثورة العرابية، نقلته حكومة الهند إلى كلكتا مخفورا مراقبا حتى انتهت الثورة العرابية باحتلال إنجلترا لمصر عام 1882م. حينئذ، سمح له بالتنقل حيث شاء، فيما عدا أقطار الشرق. فسافر إلى لندن عام 1883م، ومنها إلى باريس، ليلتحق به تلميذه محمد عبده من منفاه في بيروت عام 1884م.

كان تلميذه محمد عبده، بدأ يتسرب إليه اليأس من أبناء جيله. بعد أن خبر طبيعة الناس أثناء حوادث عرابي، ورأى غدرهم وقلة وفائهم وتكالبهم على المصالح الشخصية. فأشار على الأفغاني أن يذهبا معا إلى مكان بعيد عن سلطة الحكومات، لإنشاء مدرسة للزعماء. يختاران لها التلاميذ النجباء الناشئين من الأقطار الإسلامية،

ومن يتوسمان فيهم الخير. ذلك لكي يكونون بذورا وأنوية تعمل على نشر الإصلاح في البلاد.

لكن هذا الرأي لم يعجب الأفغاني. واعتبره مبالغة في التشاؤم. لذلك وضع الأفغاني خطة بديلة. هي إنشاء جريدة عربية في باريس للعالم الإسلامي. تفهمه حقوقه وواجباته، وتشعل وطنيته.

ثم قام الأفغاني والشيخ محمد عبده بتكوين منظمة سرية إسلامية تعمل على الإصلاح والوحدة الإسلامية. بالرغم من أن المنظمة كانت لها فروع في تونس وبعض البلاد العربية، إلا أن نجاحها كان محدودا.

قاما أيضا، أثناء إقامتهما في أوروبا، بإصدار جريدة "العروة الوثقى".

جريدة العروة الوثقى

للكشف عن مخططات الدول الاستعمارية الكبرى في العالم الإسلامي. خصوصا نوايا إنجلترا بالنسبة لمصر والسودان. كذلك للكشف عن أسباب ضعف المسلمين، وطرق علاج هذا الضعف. كانت الأفكار للأفغاني والتحرير والصياغة للشيخ محمد عبده، والترجمة لميرزا محمد باقر، يترجم لها من الصحف الأجنبية كل ما يهم العالم الشرقي.

صدر من جريدة "العروة الوثقى" ثمانية عشر عددا في ثمانية أشهر خلال عام 1884م. وكان الغرض منها بيان الواجبات للشرقيين لتدارك ما فات، وبث الأمل في النفوس، والدعوة إلى التمسك بالأصول والقيم النبيلة، والدفاع عن أهل الشرق من التهم الباطلة التي تنسب لهم زورا وبهتانا، وإعلامهم بما يدور من أحداث في الغرب تخص حياتهم ومستقبلهم، وتقوية الصلات بين الأمم الإسلامية.

كان الأفغاني يناهض الاحتلال الأجنبي في الأقطار الإسلامية وخاصة في مصر بكل قوته. يؤلب عليه في غير هوادة، ويرسل الرسل إلى موسكو، للاتصال بالمسلمين هناك، والحجاز ومصر وتونس لنشر التعاليم التي لا يستطيع نشرها في جريدة "العروة الوثقى".

سرعان ما أصبحت جريدة "العروة الوثقى" أخطر جريدة في العالم الإسلامي في ذلك الوقت. بالرغم من أنها كانت ممنوعة من دخول كل البلاد التي تقع تحت الاحتلال البريطاني، إلا أنها كانت قد انتشرت إنتشارا سريعا. وكان من النادر أن تجد أحد القادة أو المفكرين في العالم الإسلامي حينئذ لم يتأثر بجريدة "العروة الوثقى".

بسبب شدة المراقبة، واستحالة وصول الأعداد إلى قرائها إلا في القليل النادر وبكثير من التحايل، توقف صدور "العروة الوثقى". احتجبت والأسى يحز في نفوس القائمين عليها. فلا دعواهم وجدت من يلبيها، ولا هم استمروا في دعواهم حتى تؤتي ثمارها.

ترك الأفغاني أوروبا لكي يعمل مستشارا للشاه ناصر الدين القاجاري في إيران. لكنه، خلال عام واحد، كان قد اختلف مع الشاه. مما أدى إلى طرده شر طردة من إيران. وكما يصف هو ما حدث له:

"سحبوني على الثلج إلى دار الحكومة بهوان وفضيحة لا يمكن أن يتصور دونها في الشناعة...



الثلوج تغطي الأرض شرق إيران

ثم حملني زبانية الشاه وأنا مريض على دابة مسلسلا في فصل الشتاء وتراكم الثلوج والرياح الزمهريرية. وساقني جحفلة من الفرسان إلى خانقين".

مدينة خانقين بإيران

ومنها سافر إلى البصرة وهو يعاني من ألم المرض الذي اشتد عليه من هذا الحادث، وكاد يؤدي به لولا لطف من الله. لذلك آل الأفغاني على نفسه أن ينتقم من شاه إيران. وألاّ تهدأ نفسه حتى ينزله عن عرشه. وقد بر فيما بما أقسم به.

أخذ يكتب إلى علماء الدين ليهيجهم على الشاه ناصر الدين. ولا يتورع أن يصفه بأقبح الصفات، ويبين ضرره على الأمة، ويثير عاطفتهم الدينية ليثوروا عليه.



الشاه ناصر الدين القاجاري

كان الشاه قد تعاقد مع شركة إنجليزية على احتكار التبغ عام 1891م. فانتهز الفرصة وأبان الضرر على الأمة من هذا الاحتكار. فهاج رجال الدين على الشاه. مما اضطره إلى فسخ العقد ودفع نصف مليون ليرة تعويضا للشركة.

استمر الأفغاني في مناهضة شاه إيران. حاضر نبلاء الإنجليز وكبارهم في مصائب الشاه على إيران. وساهم في إخراج مجلة شهرية "ضياء الخافقين" يفضح فيها حكومة الشاه، وسوء الإدارة، وتفشي الرشوة وتعذيب المواطنين.

في العام التالي، عام 1892م، دعاه السلطان عبد الحميد الثاني إلى القسطنطينية.



السلطان عبد الحميد الثاني

خوفا من أن ينضم إلى حزب تركيا الفتاة. فيكون قوة كبرى إلى قوتهم. خصوصا وقد كان الأفغاني قد اجتمع في باريس ببعض رجال هذه الجمعية. وأطلعوه على خطتهم

في إصلاح الدولة العثمانية. كما أن شاه إيران كان قد وسط السلطان عبد الحميد في كف أذى الأفغاني.

في بادئ الأمر، رفض الأفغاني دعوة السلطان عبد الحميد. إلا أن السلطان سلط عليه حيله ومكايده. وعده بتنفيذ آرائه في الإصلاح. في بادئ الأمر، نجده قد حظي بحفاوة السلطان عبد الحميد. فقد صرف له 75 ليرة شهريا.

وأنزله بيتا ظريفا في يلدز. وجعل تحت أمره عربة وخدما وحشما. بعضهم للخدمة وبعضهم للتجسس.



مدينة يلدز

خيّل للأفغاني أنه بمعونة السلطان، يستطيع أن يوسع دائرة الإصلاح. فيضع خطة لجامعة إسلامية. ويرسم منهج إصلاح الإدارة في الدولة العثمانية وإصلاح التعليم. لكن الظروف في تركيا في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، لم تكن مواتية للإصلاح في ذلك الوقت.

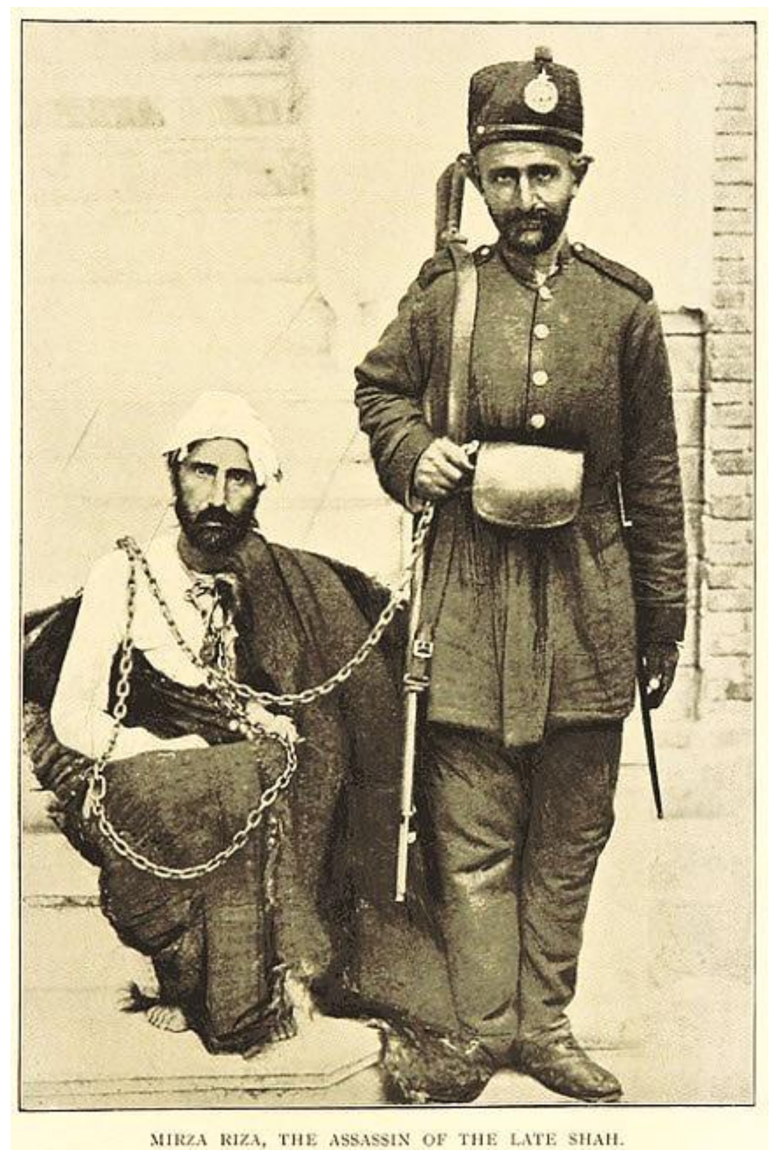
قابل السلطان عبد الحميد الأفغاني في يلدز. فوجده شخصية جريئة جرأة لم يشهدها من قبل. يطلب منه السلطان أن يترك مهاجمة الشاه، فيقول الأفغاني: "إنى لأجلك قد عفوت عنه".

يرتاع السلطان لمثل هذا القول، والأفغاني في حضرته يلعب بحبات السبحة. وعندما يلفت نظره رئيس التشريفة بعد خروجه، يقول: "إن السلطان يلعب بمستقبل الملايين

من البشر، أفلا يحق لجمال الدين أن يلعب بسبحته كما يشاء؟" فيفزع رئيس التشريفة خشية أن يكون قد سمعهما أحد.

عندما عرض عليه السلطان منصب شيخ الإسلام، رفض، إلا إذا عدّل السلطان النظام من أساسه أولا. وكان رأيه في السلطان عبد الحميد أنه ذكي واسع الاطلاع، واسع الحيلة، لكنه جبان يفسد عليه جبنه ذكاءه ومعرفته. عندما اختلف الأفغاني مع الشيخ أبو الهدى، أتهم بأنه كان وراء مقتل الشاه ناصر الدين في إيران عام 1896م.

حدث أن الشاه ناصر الدين، الذي كانت بينه وبين الأفغاني الخصومة المذكورة، قد قتله أحد تلاميذ الأفغاني، وممن كانوا يزورونه في الآستانة. وروي أنه عندما طعن القاتل طعنته قال: "خذها من يد جمال الدين".



ميرزا رضا، قاتل الشاه ناصر الدين وتلميذ الأفغاني، قبل إعدامه

سواء كان جمال الدين الأفغاني وراء مقتل الشاه مباشرة، أم أن الشاه قتل بسبب أفكار الأفغاني وتحريض الثوار، فالسلطان عبد الحميد قد وعى الدرس. وعلم بمدى خطورة رجل مثل الأفغاني في بلاده.

لذلك نجد الأفغاني يقضي عامه الأخير شبه سجين في البلاط السلطاني. يقال أن طبيب الأسنان الذي كان يعالجه، دس له السم في حشو أحد أسنانه. لكي يلقى ربه عام 1897م. وشيعت جنازته كأقل الناس. لم يسر فيها إلا أفراد معدودون غلبتهم

الجرأة والوفاء. ودفن كما يدفن عامة الناس. ومنعت الجرائد في الولايات العثمانية من تأبينه.

هذه كانت أفكار جمال الدين الأفغاني لإيقاظ العالم الإسلامي من سباته العميق. وكان جمال الدين الأفغاني يرى أن إصلاح الحكومة يأتي عن طريق إصلاح الشعب. "القوة النيابية لأي أمة لا يكون لها قيمة حقيقية إلا إذا نبعت من نفس الأمة.

أي مجلس نيابي يأمر بتشكيله ملك أو أمير أو قوة أجنبية، هو مجلس موهوم موقوف على إرادة من أحدثه". العقول والنفوس أولا، والحكومة ثانيا. وما فائدة حكومة صالحة إذا كان الشعب غير صالح؟


مجلس النواب المصري بعد ثورة 30 يونية 2013

رحم الله جمال الدين الأفغاني رحمة واسعة. فقد كان رجلا لا ككل الرجال. أيقظ أمما وشعوبا بأسرها بمفرده. عاش وحيدا شريدا طريدا ومات مقتولا. لكنه وهب نفسه وعقله وقلبه لخدمة الحق والعدل والإنسانية.

مهما قلنا أو فعلنا، فلا نستطيع أن نقدر هذا الرجل حق قدره، نظير خدماته النبيلة للشعب المصري. فلولاه، لما سمعنا عن الإمام محمد عبده أو سعد زغلول أو أحمد لطفي السيد أو الكثيرين من أبطال مصر وقادتها. كلهم كانوا من تلاميذه المخلصين. ولواه، لتأخر استقلال البلاد وتعطل ظهور عصر النهضة المصرية في بداية القرن العشرين.

12

الإمام محمد عبده

الإمام محمد عبده تلميذ ورفيق كفاح لجمال الدين الأفغاني. في هذا المقال، سنبين شخصية وفكر الإمام محمد عبده، لما له من تأثير خطير على الفكر الإسلامي في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. لا في مصر وحدها، ولكن في العالم الإسلامي كله.



الإمام محمد عبده

ولد الإمام محمد عبده في قرية صغيرة من قرى مديرية البحيرة بمصر عام 1849م. كان والده يشتغل بالزراعة، فاضطر إلى التنقل من قرية إلى أخرى، هربا من عسف جباة الضرائب أيام حكم محمد علي.

عندما بلغ محمد عبده الثالثة عشر من العمر، أُرسل إلى جامع الأحمدي بطنطا للدراسة. عندما كان جامع الأحمدي أهم أماكن الدراسات الدينية بعد الأزهر الشريف. إلا أنه فر هاربا عندما وجد أن الدراسة الدينية في جامع الأحمدي دراسة جافة تعتمد على الحفظ بدون تفكير أو مناقشة.

لكنه بفضل خاله الشيخ درويش، الذي كان له، بجانب الأفغاني، تأثير كبير على حياته، عاد محمد عبده للدراسة الدينية في جامع الأحمدي. ثم التحق بالأزهر عام 1869م.

عندما أقام جمال الدين الأفغاني في مصر عام 1871م، كان محمد عبده، الطالب الأزهري، أكثر تلاميذ الأفغاني قربا منه، وأشدهم حرصا على حضور مجالسه وندواته.

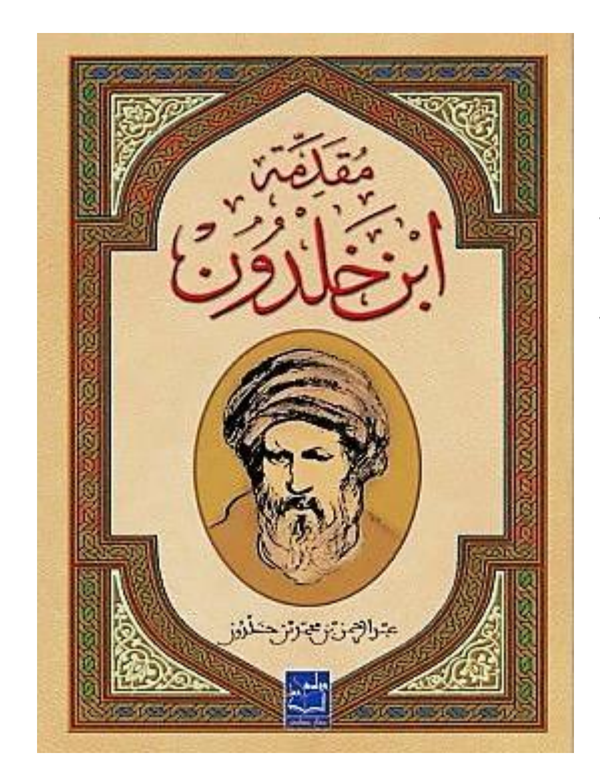
فقد كان الأفغاني يشجع الإمام محمد عبده على دراسة الفلسفة الإسلامية. وخصوصا فلسفة ابن سينا.



ابن سينا

ثم بدأ الإمام محمد عبده في كتابة عدة مقالات في جريدة الأهرام. وكانت حديثة الصدور يملكها أخوين من لبنان في ذلك الوقت.

عندما أنهى محمد عبده دراسته الأزهرية عام 1877م، التحق بوظيفة مدرس في مدرسة دار العلوم.



حيث كان يدرس في المدرسة وفي منزله مواد ثقافية مثل: الأخلاق لمسكويه، تاريخ الحضارة لجيزوت، ومقدمة ابن خلدون. هذه المواد تعطينا فكرة عن نوع ثقافة الإمام محمد عبده وقتئذ.


الخديوي اسماعيل

في السبعينات من القرن التاسع عشر، كان حكم الخديوي اسماعيل يعاني من فداحة الدين الأجنبي. مما اضطر الخديوي إلى فرض ضرائب باهظة على عامة الشعب.



الخديوي توفيق

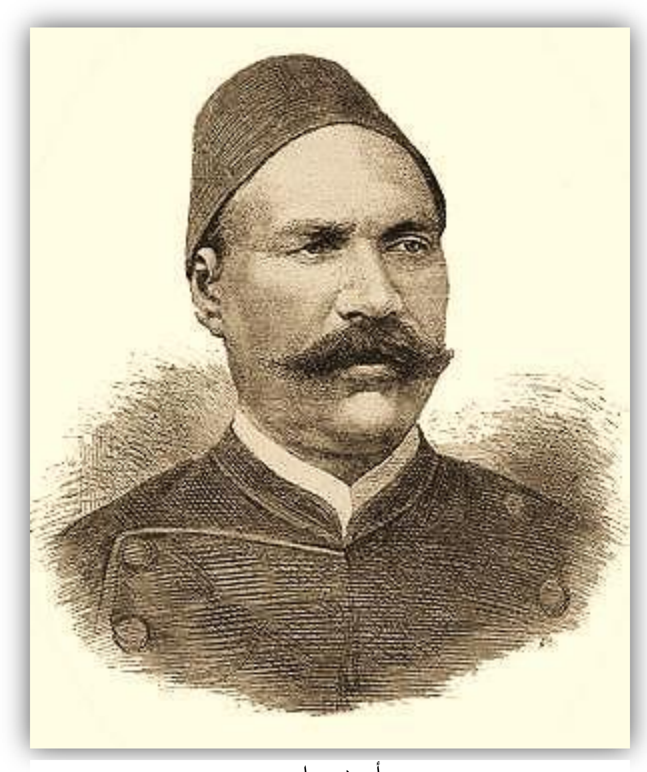
لم يكن الخديوي توفيق، ابن الخديوي اسماعيل، يحظى هو أيضا برضاء عامة الشعب.

كانت معارضة حكم الخديوي توفيق تتمثل في ثلاث حركات:

الأولى، هي الحركة الوطنية التي كانت تخشى خطر النفوذ الأوروبي على البلاد.

الثانية، هي حركة الطبقة الارستوقراطية التي كانت تحارب حكم الفرد وتناضل من أجل تقييد سلطات الحاكم بالدستور.

الثالثة، هي حركة أحمد عرابي لتحرير الجيش المصري من قبضة العناصر التركية والشركسية.


أحمد عرابي

نظرا لمؤازرة الدولتيين الاستعماريتين، إنجلترا وفرنسا، للخديوي توفيق وتهديدهما باحتلال مصر، انصهرت المعارضة داخل البلاد في بوتقة وطنية واحدة. أسلمت قيادتها للجيش بقيادة أحمد عرابي، الذي اعتبرته إنجلترا وفرنسا خطرا على مصالحهما في المنطقة.

ثم تبع ذلك، قذف الاسكندرية بالمدافع من البحر، واحتلال إنجلترا لمصر كلها عام 1882م.


احتلال إنجلترا لمصر وإعلان الحماية عام 1882م

لعب الإمام محمد عبده دورا هاما في هذه الأحداث التي مرت بالبلاد. فقد كانت مقالاته اليومية في جريدة الأهرام، تعكس الفكر السياسي للأفغاني، الذي يدعو إلى صحوة العالم الإسلامي في مواجهة خطر الاستعمار الغربي.

لذلك عندما طرد الخديوي توفيق جمال الدين الأفغاني من مصر، قام الخديوي في نفس الوقت بتحديد إقامة محمد عبده وعزله في قريته بالوجه البحري.

لكن في عام 1880م، طلب رياض باشا، رئيس الوزراء، من محمد عبده العودة إلى القاهرة، لشغل منصب رئيس تحرير الوقائع المصرية.

خلال عامين من الأزمات المتلاحقة، كانت مقالات محمد عبده السياسية والاجتماعية، تلعب دورا هاما في إيقاظ الرأي العام الوطني، وكانت كتاباته، تعارض الحكم العسكري بقيادة أحمد عرابي في بادئ الأمر. لكن عندما بدأ الجيش البريطاني في غزو البلاد، اقترب محمد عبده من قادة الجيش، محاولا تكوين جبهة واحدة لمقاومة الإنجليز.

بعد الاحتلال وهزيمة عرابي، تم القبض على محمد عبده وسجنه وتعذيبه. خرج من السجن محطم النفس هزيل البدن، يائسا حزينا. شأنه شأن باقي أفراد الشعب المصري في ذلك الوقت.

سرعان ما نفي محمد عبده من البلاد لمدة ثلاث سنوات. سافر خلالها إلى بيروت ثم إلى باريس لكي يلحق بجمال الدين الأفغاني. هناك، قام هو والأفغاني بتكوين جمعية سياسية سرية، وأصدرا جريدة العروة الوثقى.

لم يقتصر نشاطه في الخارج على الكتابة، لكنه أيضا ذهب إلى لندن عام 1884م، لمقابلة بعض السياسيين الإنجليز، لمناقشة قضايا مصر والسودان.

عندما توقف صدور جريدة العروة الوثقى، سافرة محمد عبده إلى تونس ومنها إلى مصر متخفيا، آملا في أن يسافر إلى السودان لمقابلة المهدي.



محمد أحمد المهدي زعيم الثورة السودانية

لكن خطته لم تنجح. فسافر إلى بيروت لكي يقضي بها ثلاث سنوات. قام خلالها بالتدريس في أحد المدارس الإسلامية. كان مسكنه في بيروت، كما كان منزله في القاهرة، مركزا للطلبة والكتاب المارون والدروز والمسلمين على السواء. يأتون إليه لسماع آراءه في الفقه والسنة والفلسفة واللغة والسياسة.

في عام 1888م، سمح الخديوي توفيق لمحمد عبده بالعودة لمصر، لكن بعيدا عن التدريس. فعين قاضيا بالمحاكم الشرعية. في عام 1894م، عين في لجنة لإدارة شؤون

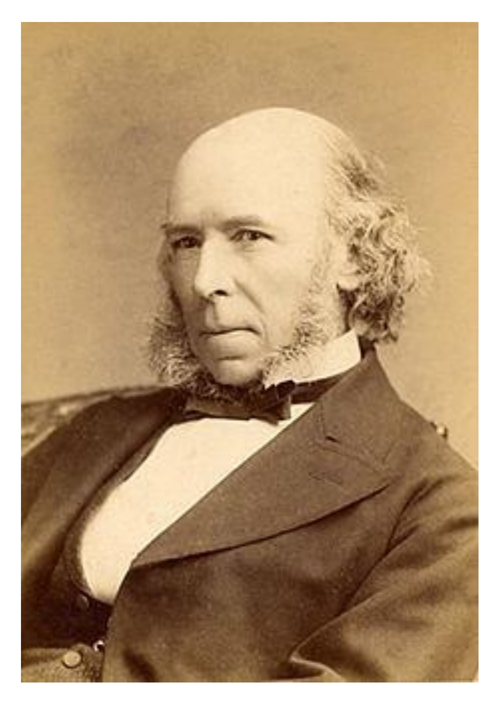
الأزهر. لكن آراء الإمام الخاصة بتطوير الأزهر، قوبلت بمعارضة شديدة من رجال وشيوخ الأزهر المحافظين، الذين كانوا يحظون بتأييد الخديوي توفيق.

بالرغم من شجاعة الإمام محمد عبده، وكفاحه البطولي داخل هذه اللجنة، إلا أن نتائج جهوده كانت محدودة. مما أدي إلى استقالته من اللجنة. في عام 1899م، عين مفتيا للديار المصرية. وهو المنصب الذي شغله بقية حياته.

أهم أفكار الإمام محمد عبده، ظهرت في كتاب رسالات التوحيد، الذي نشر عام 1897م، وتفسيره لأجزاء من القرآن الكريم، ومجموعة دراسات نشرت في جريدة المنار عام 1901م، عن الدين الإسلامي والدين المسيحي وعلاقتهما بالعلوم والحضارة الحديثة.

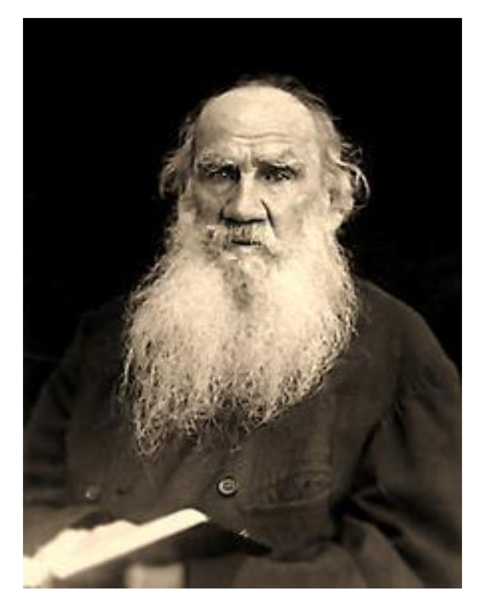
تعلم محمد عبده اللغة الفرنسية بعد سن الأربعين. وكان يقرأ الأدب الفرنسي بلغة بلاده. عندما زار سويسرا، حرص على حضور محاضرات عن علم الأخلاق والتاريخ والفلسفة والتعليم في جامعة جنيف.

كان معجبا بالفيلسوف البريطاني هربت سبنسر،



هربت سبنسر

وقام بزيارته في إنجلترا، وترجم بعض أعماله المنشورة بالفرنسية.


تولستوي

كان معجبا أيضا بالكاتب الروسي تولستوي، وقام بمراسلته.

كان يقوم من حين لآخر بزيارة أوروبا. لأن مثل هذه الزيارات، كانت تبعث الأمل في نفسه، وتجعله يعتقد بأن العالم الإسلامي من الممكن إيقاظه من سباته العميق، وانقاذه من كبوته.

كانت القضية الفكرية الرئيسية للإمام محمد عبده، هي قضية ضعف العالم الإسلامي وانحلاله من الداخل، وحاجته للإصلاح. كان يعتقد بأن رجال الأزهر لم يقوموا بواجبهم كما ينبغي لإيقاظ العالم الإسلامي من سباته العميق.



رجال الأزهر برئاسة الشيخ الطيب يقومون بسجن المخالفين في الرأي

كتب الإمام محمد عبده في جريدة الأهرام عام 1876م يقول، إن رجال الدين الإسلامي، وهم روح الأمة الإسلامية، فشلوا في إدراك فائدة العلوم الحديثة، وشغلوا أنفسهم بموضوعات لم تعد تناسب العصر الحديث.

يجب علينا نحن المسلمون، بجانب دراستنا للدين الإسلامي، دراسة الأديان الأخرى ودراسة التاريخ وحضارة الدول الأجنبية المتقدمة، لمعرفة سر تقدمهم. لأنه ليس هناك سبب آخر لثراء هذه الدول وقوتها، سوى تقدمها في العلوم والإدارة والتعليم. لذلك، وجابنا الأول هو العمل على نشر هذه العلوم في بلادنا بكل الوسائل.

كان الإمام يرفض فكرة قفل باب الاجتهاد، أو التقيد بفتاوي الإجماع. وكان يعتقد بإصرار أن من حق كل جيل العودة إلى مصادر الإسلام الأولى، القرآن الكريم وصحيح الحديث والسنة، وفهمهم في ضوء ظروف العصر الذي نعيش فيه. لأن كل عصر وكل جيل لديه مشاكلة الخاصة به.

خبرات وتجارب وعلوم ومشاكل كل جيل، تختلف عن مثيلاتها في الأجيال والأزمان السابقة. لكنه اشترط أن يكون الأساس في فهم مصادر الإسلام الأولى، هو العقل والمنطق.

بدون استخدام العقل والمنطق، يصبح من السهل التغرير بالمسلمين وخداعهم وقيادتهم في الاتجاه الخاطئ. وكتب يقول، أنه لو تعارض العرف مع العقل، فإننا نكون أمام أمرين:

إما أن نأخذ ونسلم بصحة العرف، ونعترف بعجزنا عن فهم معناه ونترك الأمر لله. أو نقوم بإعادة تفسير العرف بما يتفق مع العقل والمنطق، وهذا أصلح وأجدي للمسلمين.



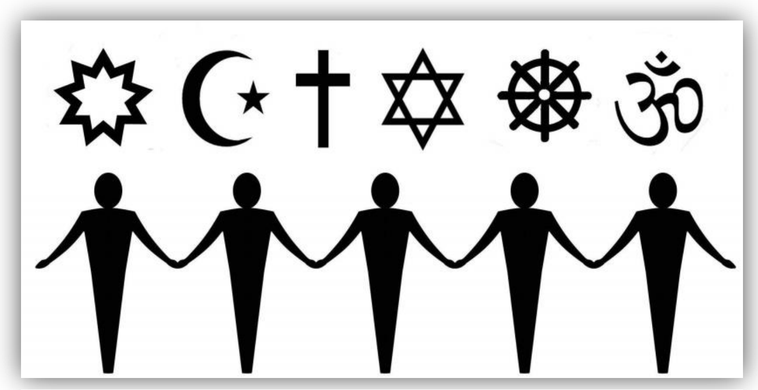
بدون نور العقل يسهل التغرير بالمسلمين

كان الإمام محمد عبده وطنيا شديد الحب لوطنه مصر. يعتقد، وكذلك باقي الشعب المصري في ذلك الوقت، بأن حب الوطن من الإيمان. كانت كتاباته الأولى في جريدة الأهرام، عن أمجاد مصر القديمة.

يقول الإمام محمد عبده، إن حب الوطن يدفعنا إلى الحفاظ على وحدته.


حب الوطن يعني الحفاظ على وحدته

هذه الوحدة لا تأتي إلا عن طريق المساواة في الحقوق والواجبات لكل المواطنين، بغض النظر عن عقائدهم.


المساواة بين كل المواطنين

كان يعتقد الإمام أيضا بأن المصلحة العامة تقضي الاستعانة بغير المسلمين إذا دعت الحاجة إلى ذلك. كان يقول، إن طاعة ولي الأمر التي ذكرها القرآن الكريم، تشمل طاعة ممثلي الأمة في المجالس النيابية والعلماء. ولا تعني طاعة الحاكم فقط.

كان للإمام محمد عبده الفضل الأكبر في بعث روح النهضة الفكرية والأدبية في مصر. له مواقف مشهودة في إظهار مبادئ الإسلام على حقيقتها، خالية من شوائب الجمود والبدع والتقاليد التي كانت سببا في تأخر المسلمين. قال عنه عبد الرحمن الرافعي، المؤرخ الكبير:

"كان الإمام على أخلاق كريمة عالية، وفيا صادق الوعد، شجاعا كريم النفس، طيب القلب عالي الهمة، عظيم المهابة، عفيف اليد واللسان. لم يترك لذريته ثروة ولا مالا. إذ كانت نفسه منصرفة إلى الخير والصالح العام. فكان في أخلاقه، أمة كاملة."

13

أحمد لطفي السيد

هو الذي رفض عرش مصر، وصاحب المقولة الشهيرة: "الاختلاف في الرأي لا يفسد للود قضية". أستاذ الجيل، بل كل الأجيال. مفكر وفيلسوف ومربي وكاتب وسياسي ومناضل من الطراز الأول.



أستاذ الجيل أحمد لطفي السيد

أحد رواد التنوير وأبو الليبرالية المصرية. شارك في مؤتمر السلام في فرساي للمطالبة باستقلال مصر عن بريطانيا العظمى. من أوائل المنادين بتعليم المرأة. تخرجت أول دفعة جامعية من الطالبات أثناء رئاسته للجامعة عام 1932م.

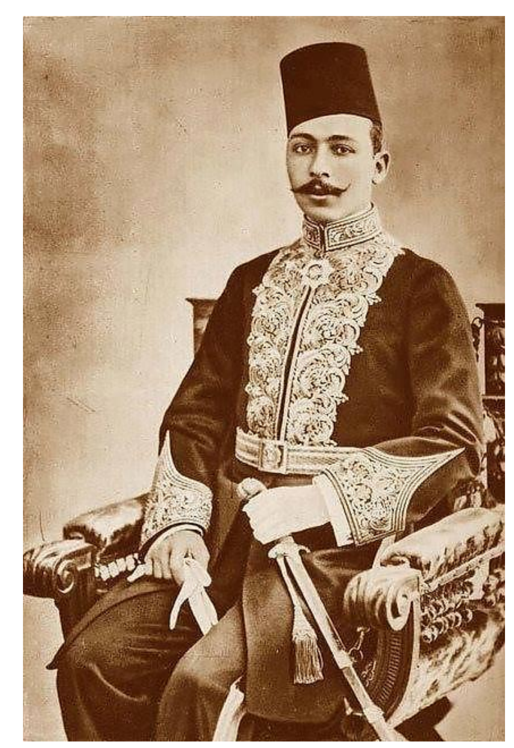


أستاذة الأجيال الدكتورة سهير القلماوي، أول طالبة بجامعة فؤاد الأول (القاهرة حاليا)

ولد المرحوم أحمد لطفي السيد (1872 – 1963م) في قرية برقين مركز السنبلاوين في محافظة الدقهلية بمصر. كان جده عمدة، وأبوه عمدة وباشا. بدأ تعليمه بكتّاب القرية، ثم بالمدرسة الابتدائية. بعد ذلك، انتقل إلى القاهرة للدراسة في المرحلة الثانوية.

في عام 1889م، التحق بمدرسة الحقوق، التي كانت في ذلك الوقت مركزا للحركات والأفكار السياسية والوطنية. فكانت تجمع بين طلبتها شخصيات لعبت دورا خطيرا في مستقبل مصر السياسى والوطنى.

مثل الزعيم الوطني مصطفي كامل باشا


مصطفى كامل باشا

وعبد الخالق ثروت باشا رئيس وزراء مصر،


عبد الخالق ثروت باشا

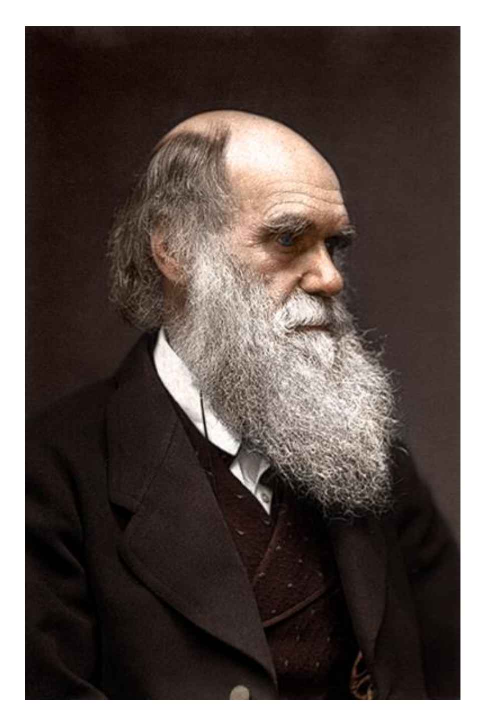
واسماعيل صدقي باشا رئيس الوزراء.



اسماعيل صدقي باشا

أثناء دراسة أحمد لطفي السيد في مدرسة الحقوق، تعرف على الإمام محمد عبده، وأصبح من تلامذته. خلال زيارة قصيرة للقسطنطينية أثناء العطلة الصيفية، قابل جمال الدين الأفغاني، وأعجب بأفكاره.

أثناء هذه الفترة، قرأ كتاب أصل الأنواع لداروين.



تشارلز داروين

وقام لطفي السيد بكتابة عدة مقالات سياسية في جريدة المؤيد.



الملحق الثاني للمؤيد

المؤيد

زيارة الجناب العالي الخديوي

صحة عطوفة بطرس باشا غالي

جريدة المؤيد

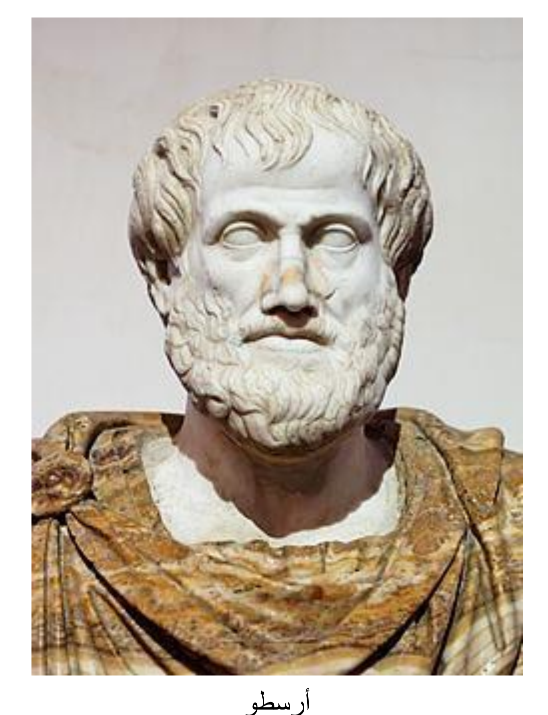
بدأ لطفي السيد نشاطه مع الزعيم الوطني مصطفي كامل. في عام 1897م، عندما كان مصطفى كامل يخطط لتأسيس الحزب الوطني بمساعدة الخديوي عباس حلمي الثاني، عرض على لطفي السيد رئاسة تحرير جريدة الحزب.



بعد أن يقضي لطفي السيد عاما كاملا في سويسرا ليحصل على الجنسية السويسرية. لأن ذلك كان يعطيه حصانة تمنع اعتقاله، وتقف ضد مصادرة كتاباته، والحجر على أفكاره. مثل الحصانة التي كان يتمتع بها الأجانب في مصر في ذلك الوقت.

عندما ذهب لطفي السيد إلى جنيف، قابل هناك الإمام محمد عبده. مما أغضب الخديوى، وجعل صداقة أحمد لطفي السيد بمصطفي كامل تفتر. عند عودته، التحق بالعمل مديرا لدار الكتب عدة سنوات. أتاحت له الوقت للإطلاع على الفكر الأوروبي.

فكان يقرأ لروسو وكومتيه وميللر وسبنسر. وقام بدراسة علم الأخلاق لأرسطو. وكان معجبا بكتابات تولستوي الأخيرة.



أرسطو

في عام 1907م، انضم أحمد لطفي السيد إلى مجموعة من المثقفين الوطنيين لتكوين حزب الأمة، للوقوف أمام التيار الذي يتزعمه الخديوي عباس ومصطفى كامل، وهو تيار خاص بالتقرب إلى تركيا.

كان ينتمي إلى الحزب الجديد، مجموعة من كبار الملاك وأصحاب القلم والفكر والسياسة. منهم محمود سليمان وحسن عبد الرازق وحمد الباسل وسليمان أباظه وعلى شعراوي وفتحي زغلول وقاسم أمين


عبد العزيز باشا فهمي شيخ القضاة ووزير الحقانية

وعبد العزيز فهمي وعبد الخالق ثروت وسعد زغلول. وكان لطفي السيد هو سكرتير عام الحزب، ورئيس تحرير جريدته "الجريدة".

خصص أحمد لطفي السيد في الجريدة، مساحة كبيرة لمناقشة قضايا الوطن الاجتماعية والسياسية والثقافية. وجعلها مدرسة لتدريب الكتاب الصغار على الكتابة الحرة تحت إشرافه وتوجيهه. هذا عمل نادر لا تراه في صحافتنا اليوم. من هنا جاءت تسميته عن جدارة بأستاذ الجيل. وهو اللقب الذي ظل يلازمه طيلة حياته.

كان أحمد لطفي السيد وكتاب الجريدة وحزب الأمة، وراء حملة التبرعات التي قام بها الأهالي لإنشاء أول جامعة مصرية عام 1908م، والتي أصبحت جامعة حكومية عام 1924م، (جامعة فؤاد الأول - جامعة القاهرة حاليا).

عندما بدأت الجامعة المصرية في التوسع في برامجها الطموحة، كان أحمد لطفي السيد هو مديرها الأول.



أول دفعة من خريجات الجامعة المصرية ، جامعة فؤاد الأول تحت رئاسة أحمد لطفي السيد

من خلال منصبه الجديد، استمر في تعليم وتثقيف الجيل. ولم يترك منصب مدير الجامعة إلا ثلاث مرات. الأولى في عام 1928م، عندما أختير وزيرا للمعارف، والثانية عام 1932م، عندما استقال إحتجاجا على فصل حكومة اسماعيل صدقي للدكتور طه حسين، بسبب كتابه "في الشعر الجاهلى"، الثالثة عندما اقتحمت الشرطة حرم الجامعة عام 1937م.


جامعة فؤاد الأول (القاهرة حاليا)

في عام 1941م، ترك الجامعة لكي يصبح عضوا في مجلس الشيوخ. بعد حركة الجيش المباركة عام 1952م، عرض عليه الضباط الأحرار أن يكون رئيسا لمصر. لكنه رفض واعتزل الحياة العامة. واقتصر نشاطه على رئاسة مجمع اللغة العربية. وهو المنصب الذي ظل يشغله حتى وفاته رحمه الله عام 1963م.

كانت معظم كتابات أحمد لطفي السيد، مقالات في جريدة "الجريدة". جمعت في عدة كتب فيما بعد. وقام لطفي السيد بترجمة كتاب الأخلاق لأرسطو من اللغة الفرنسية عام 1922م.

ترجم أيضا ثمانية كتب أخرى لأرسطو عام 1932م وعامي 1935م و 1940م. وكانت كتاباته في الجريدة تهدف إلى وضع إطار سياسي واجتماعي للنضال المصري مبني على فلسفات أرسطو وروسو ولوك وبتهام وسبنسر.



الإنسان ولد لكي يكون حرا

فالإنسان ولد لكي يكون حرا، وبإرادة حرة. حر في اختياره أو رفضه.

لكن لطفي السيد يختلف مع رسو في أن الإنسان ليس بمعزل عن المجتمع. المجتمع هو أيضا كائن حي. حرية الإنسان لا تتعارض مع القوانين التي تنظم المجتمع، إذا بني هذا المجتمع وصيغت تلك القوانين بحيث تسمح للإنسان الحر تلقائيا بأداء واجبه نحو مجتمعه دون ضغوط خارجية.



محاكم التفتيش وكبت الحريات بحجة حماية الأديان

حرية الإنسان تصبح عديمة الفائدة، إذا لم تصاحبها حرية التعبير. لذلك يجب أن تكون حرية التعبير حقا من الحقوق المدنية للمواطن. ولكي نحمي الحقوق المدنية، لابد أن يكون الفرد ممثلا في إدارة شئون مجتمعه.

الشعب يجب أن يكون الحاكم الحقيقي. أي العصمة يجب أن تكون في يد ممثلي الشعب.



عضو مجلس النواب، مرتضى منصور، يحلف بالطلاق بأنه لن يؤدي اليمين الدستورية

لذلك لابد من وجود دستور يفصل بين السلطات. الشعب يجب أن يحذر كل الحذر من إعطاء السلطة التنفيذية حقوقا أكثر من الحقوق اللازمة لحفظ النظام. حتى لا تتحول الحكومة إلى سلطة طاغية يصعب التخلص منها. لأن السلطة مفسدة، والسلطة المطلقة فساد مطلق.



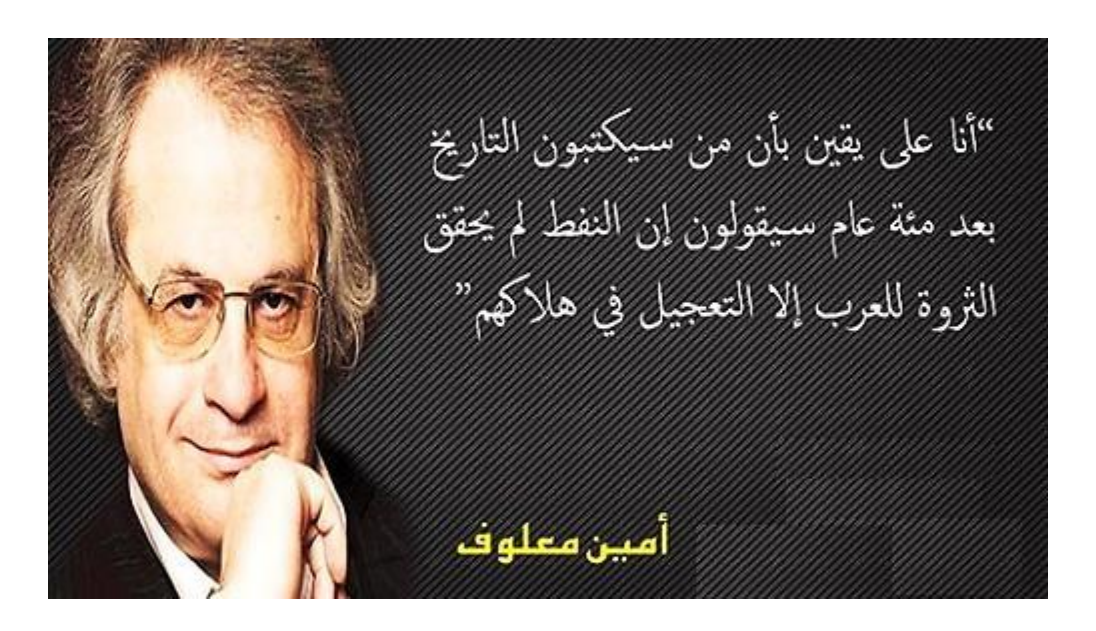
السلطة مفسدة والسلطة المطلقة فساد مطلق

السبب في تخلفنا هو أننا وثقنا في الطغاة. وامتثلنا للتعاليم الجامدة المشوهة التي تتعارض مع روح الإسلام وقوانين التطور. الطغيان وحكم الفرد هما المسؤولان عن تدمير القيم النبيلة في المجتمع.

إنهما يعوقان نمو الأخلاق السليمة. ويؤديان إلى مجتمعات مشوهة أخلاقيا. لذلك، تكون الحرية السياسية شرطا ضروريا لقيام أي نوع من الحريات. لأن الحكم الاستبدادي يخلق علاقة خاطئة بين الحاكم والمحكوم. علاقة أمر وطاعة. علاقة سيد وعبد.


الاستبداد يخلق علاقة خاطئة بين الحاكم والمحكوم

هذا يسبب فقدان الثقة بين المواطنين. ويفتت وحدة الأمة من الداخل. الوهم بأن بعض الأفراد وحدهم، لهم الحق في الحكم والثروة. وللآخرين الذل والعبودية. هو تصور يخالف طبيعة الأشياء. ويتعارض مع العلم والمنطق.



الحكومة الصالحة هي التي تنبع من اتفاق أو عقد إجتماعي حر. يتواءم مع بديهيات العدالة والحق. هذا العقد الاجتماعي هو أساس القوانيين. القوانين هي التي تلزم الحاكم قبل المحكوم.

الحكومات المحددة السلطات والمقيدة بالقانون، هي وسيلة الحكم الطبيعي الذي يوافق النفس البشرية. كل المجتمعات لها الحق في أن تحكم بمثل هذه الحكومات. ومنطق الطغاة والجهلة فقط، هو الذي يقول بأنه هناك شعوب تصلح لها الحرية وشعوب أخرى لا تصلح لها. هذا عكس ما يقوله ساستنا اليوم.

هنا يختلف أحمد لطفي السيد عن الإمام محمد عبده الذي يؤمن بحكم الفرد بشرط أن يكون عادلا. لكن لطفي السيد يقول بأن حكم الفرد يصلح فقط للمجتمعات البدائية جدا. أما مجتمعنا فقد تعدي هذه المرحلة منذ آلاف السنين.

حق الأمة في أن تحكم نفسها بنفسها ليس له علاقة بدرجة حضارتها وتقدمها الاجتماعي والسياسي والثقافي. لأن أسلوب الحكم هو الذي يبني الحضارة. الحرية هي التي تخلق روح الحرية. أما الحكم الشمولي فلن يعلم الناس كيف تحكم نفسها. ولن يقدمهم خطوة واحدة نحو الحرية والديموقراطية.

هذا يتضح من تجربتنا وتجربة الهند في الحكم. فقد بدأنا ميسوري الحال في بداية الخمسينيات ونظام حكم شمولي. وبدأت الهند في نفس الوقت كدولة فقيرة مع نظام حكم ديموقراطي. نجحت الهند في ديموقراطيتها. ولا زلنا نعاني من ويلات الحكم الشمولي. ووصلنا إلى حالة تصعب على الكافر.



الهنديات في انتظار التصويت أمام مركز انتخابي في الهند

رفض أحمد لطفي السيد الحركات السياسية المبنية على أساس ديني. ورفض أيضا ربط مصر بالعالم العربي أو تركيا أو العالم الإسلامي سياسيا. فهو يقول بأن الوطن ورباط الأرض فقط يجب أن يكونا أساس كل الجهود السياسية والفكرية.

فآلاف السنين من عبق التاريخ المصري القديم، مزجت مع أحداث التاريخ المصري الحديث. لتكون شخصية مصر الفريدة. لذلك ليس هناك أي خطر أو خوف على شخصية مصر من الانفتاح على الغرب.

مصر لها ماضيها الفرعوني العريق. ودراسة تاريخها يفيد المصريين في اكتشاف القوانين التي تحكم التطور والتقدم بالنسبة للأمم. كل من يعيش على تراب مصر بمن فيهم الأجانب هم مصريون. صهروا في بوتقة المكان الذي حافظ على شخصية مصر عبر آلاف السنين. وأصبحوا مصريين بكل معنى الكلمة. وتربطهم جميعا بتراب مصر روابط أشد وأقوى من رابطة الدين.

قد كان لطفي السيد يعني بذلك الأوربيين والشوام الذين تركوا أوطانهم وعاشوا في مصر وتجنسوا بجنسيتها وساهموا في استقلالها وبعث حضارتها. وكتب يقول: الإدعاء بأن أرض الإسلام هي وطن لكل من هو مسلم، هي فكرة تركية تصلح للدول الاستعمارية التي تبغي فرض سلطانها على باقي الدول الإسلامية باسم الدين.

لم يكن يؤمن أيضا بالإتحادات السياسية بين الدول الضعيفة والفقيرة. فهي بالنسبة له إتحادات مصطنعة. خلقها الاستعمار البريطاني لتعبئة الشعوب الأوروبية ضد الحركات الوطنية داخل مصر وباقي الدول العربية والإسلامية.

لأن الحركات الوطنية هي الخطر الحقيقي على مصالح الدول الاستعمارية في المنطقة. وقد أثبت التاريخ صدق حس أحمد لطفي السيد. فقد قامت جامعة الدول العربية تحت رعاية وإشراف بريطانيا.



الجامعة العربية قامت تحت رعاية وإشراف بريطانيا

في ظلها ضاعت فلسطين وبددت ثروات الشعوب العربية ودمر العراق وسوريا واليمن والصومال. حكمت الدول العربية بدون إستثناء بالسوط، وقيدت شعوبها مثل البعير. تحت شعار المد الإسلامي والوحدة الإسلامية والخوف من إنتشار الإسلام، نرى ما قد حدث في البوسنة والشيشان وأفغانستان.

لا يعني هذا أن الدول العربية والإسلامية، لا يجب أن تتعاون وتتكاتف مع بعضها لمصلحة شعوبها. لكن يعني أن الشعوب لا يجب أن تنخدع بالوحدات السياسية المصطنعة السابقة لأوانها. حتى لا تغفل كفاحها للتحر من قبضة الاستعمار ومن نير الحكم الشمولي، ومحاربة الفقر والتخلف وبناء دعائم الديموقراطية الصحيحة في بلادها.

الإستقلال السياسي والحرية السياسية لا تكفي بدون إقتصاد قوي مستقل. لذلك يحذر لطفي السيد من مغبة الدين الأجنبي. فبسببه أحتلت مصر وفقدت إستقلالها. فعلى مصر أن تبني تجارتها وصناعتها الوطنية المستقلة.

لذلك نجد في الفترة بين عامي 1920م و 1930م، تأسس بنك مصر والشركات التابعة له. فطلعت حرب وحافظ عفيفي وغيرهم من الإقتصاديين الوطنيين، كانت لهم علاقات وطيدة بأحمد لطفي السيد وبأفكاره وآرائه.


BANQUE MISR - 1920

بنك مصر لم ينشأ لأسباب إقتصادية فقط، ولكن لكي يكون دعامة أساسية لاستقلال مصر السياسي.

أما آراء أحمد لطفي السيد في التعليم، فهو ضد تقسيم التعليم إلى تعليم ديني وآخر مدني. وضد إنشاء المدارس الدينية سواء كانت إسلامية أو إرساليات مسيحية.



لطفي السيد كان ضد تقسيم التعليم إلى ديني وعلماني

وضد إنشاء المدارس الأجنبية. لأن هذا التنوع في التعليم، لن يثري التجربة الثقافية في مصر، بقدر ما يقوم به من تمزيق وإضعاف لوحدة الوطن ثقافيا وفكريا واجتماعيا. الهدف من التعليم هو خلق أجيالا من الأمة متجانسة فكريا وخلقيا. متحدة حول مبادئ الأخلاق السامية والعلوم الحديثة.

مثل هذا النوع من التعليم، لا يجب أن يكون تحت الإشراف المطلق للحكومة بدون رقابة شعبية.



الإشراف المطلق للحكومة على التعليم بدون رقابة شعبية يؤدي إلى كارثة

لأن الحكومات تستخدم التعليم والمدارس لخدمة أغراضها ومصالحها السياسية. المدارس والجامعات يجب أن تكون حرة. حرة لخدمة العلوم والفكر والثقافة والمجتمع. ولا يجب أن تكون أداة لتأليه الحاكم أو أسلوبا لتوطيد وترسيخ مفهوم العبودية للمحكوم.

هذا هو أستاذ الجيل، وكل الأجيال. ونختم هذا الباب برأي عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين في أستاذ الجيل حيث يقول:

"أريد أن أعلم إلى أي كاتب أو إلى أي مفكر في مصر أو في الشرق العربي كله، نستطيع أن نقرن الأستاذ أحمد لطفي السيد. أما أنا فلست أعرف له نظيرا في الكتابة، ولا في التفكير ولا في الترجمة. وأزعم أن ليس بين المصريين وغير المصريين من يستطيع أن يجد له نظيرا في هذه الوجوه الثلاث. وليشهدن التاريخ بأن مصر مدينة بالشئ الكثير جدا للأستاذ لطفي السيد في نهضتها العقلية والسياسية والاجتماعية. وحين أسمع الاستقلال التام والحرية الدستورية وسلطة الأمة وأشياء كثيرة، أبتسم إبتساما فيه حزن وأمل. لأن هذه الألفاظ وهذه المعاني، هي ألفاظ ومعاني لطفي السيد. ليس في ذلك نزاع ولا جدال."

ولنقارن بين نوعية هؤلاء الرجال، ونوعية أكياس الدهن التي تحكمنا وتحكم العالم العربي الآن. ونطلب من الله اللطف ومن شعوبنا الصبر والسلوان.

14

قاسم أمين

كان تأثير الاحتكاك بالحضارة الغربية على الفكر الإسلامي المعاصر خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كبيرا. فنجد رجالا مثل جمال الدين الأفغاني والإمام محمد عبده، يقومون بمقاومة التخلف الثقافي والاقتصادي والسياسي للعالم الإسلامي. عن طريق الانفتاح على الغرب وأخذ علومه وحضارته.



قاسم أمين

هنا في هذا الباب، سأوضح تأثير هذه الأفكار على الكتّاب والمفكرين، الذين عاصروا الإمام محمد عبده. كان بعضهم أكثر جرأة، والبعض الآخر كان أكثر تحفظا. لكنهم اتفقوا جميعا على طلب الإصلاح السياسي والاجتماعى بالنسبة للعالم الإسلامي.



في عام 1899م، أصدر قاسم أمين ذو الثقافة الفرنسية، كتابا عن تحرير المرأة في العالم الإسلامي.

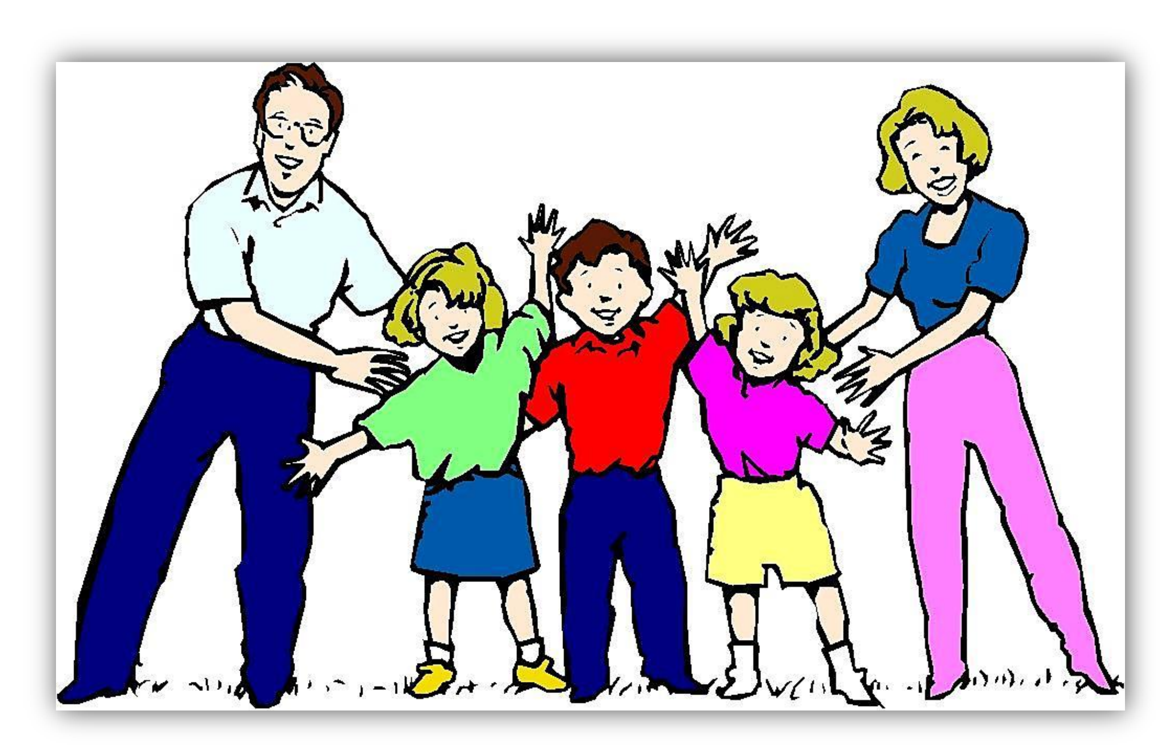
جاء فيه أن العالم الإسلامي في انحدار مستمر. بلغ به الضعف درجة تهدد وجوده. الدول والمجتمعات تحكمها قوانين التطور التي تجعل البقاء للأصلح. لا مكان للضعيف وسط الأقوياء.



تفشي الجهل هو سبب تخلف الدول الإسلامية

الفناء لمن لا يستطيع أن يتغير أو يتأقلم مع الظروف الجديدة. سبب تأخر وانحدار الدول الإسلامية، هو تفشي الجهل، وغياب القيم الاجتماعية الثابتة. وعدم وجود علوم تبحث في القوانين والروابط التي تحكم السلوك البشري.

تخلف الدول الإسلامية يبدأ من الأسرة. العلاقة بين الرجل والمرأة، وبين الأم وطفلها. وهي علاقة أساسية في كل المجتمعات. القيم التي توجد داخل الأسرة، هي نفسها القيم التي توجد داخل المجتمع.



قيم الأسرة هي قيم المجتمع

لكن في المجتمعات الإسلامية، ليست للرجل أو المرأة دراية بما يجب أن تكون عليه الحياة الأسرية الكريمة. المرأة بصفة خاصة ليس لديها الحرية أو الثقافة اللازمة للقيام بهذا الدور.

ليس للرجل أو المرأة دراية بالحياة الأسرية الكريمة

ليس هذا بسبب الإسلام. الشريعة الإسلامية وضعت قواعد المساواة بين الرجل والمرأة. المشكلة أتت من الشعوب التي اعتنقت الإسلام، وفرضت عاداتها وتقاليدها التي تستعبد المرأة وتحط من وضعها الاجتماعي.


النقاب عادة يهودية قديمة

هذه الشعوب أفسدت أيضا نظام الحكم في الإسلام. ولم تحدد بوضوح واجبات وحقوق كل من الحاكم والمحكوم. أبدلته بنظام حكم إستبدادي، يعتمد على القوة الغاشمة.

العالم الإسلامي على مر العصور وحتى اليوم، نجد فيه القوي يفتك بالضعيف، والرجل يستعبد المرأة.


في العالم الإسلامي القوي يفتك بالضعيف

أساس المشكلة الاجتماعية في العالم الإسلامي اليوم، هو وضع المرأة بالنسبة للرجل. إعطاء المرأة حقوقها وتحريرها من قيودها، لن يأتي إلا عن طريق التعليم. وطالما هي تعتمد على الرجل إقتصاديا، فإنها سوف تظل تحت رحمته، وعرضة لطغيانه، مهما أعطاها القانون من حقوق.

التعليم فقط هو الذي سوف يحرر المرأة من ظلم الرجل، ويخرجها من سجن النقاب.



التعليم فقط هو الذي يحرر المرأة

الدين الإسلامي لم يمنع ظهور وجه المرأة. النقاب يعوق المرأة ويمنعها من القيام بدورها المنتظر في المجتمع. نقاب المرأة ليس له علاقة بالفضيلة. بل العكس، الممنوع مرغوب.

وضع المرأة داخل النقاب، يطلق للرجل حرية التخيل بدون حدود.

النقاب يطلق للرجل حرية التخيل

النقاب ضار بالمرأة والمجتمع. ويأتي من فقدان ثقة الرجل في نفسه وفي المرأة ، وعدم احترامه لها. فهو لا يعتبرها تنتمي إلى المجتمع البشري. لقد سلب منها إنسانيتها، وحولها إلى مادة لمتعته الجنسية فقط.



النقاب سلب من المرأة آدميتها

ليس هناك امرأة سوية تقبل أن تشاركها إمرأة أخرى في زوجها.

تعدد الزوجات يسبب آلاما نفسية مبرحة للمرأة. تنعكس على حياتها وحياة أولادها. تؤثر في نفسية الأجيال التي نعدها للمستقبل.



تعدد الزوجات يسبب للمرأة آلاما نفسية

إذا كان لابد من تعدد الزوجات، فهي حالات خاصة. مثل مرض الزوجة الأولى، أو عدم قدرتها على الإنجاب. أو لنقص شديد في عدد الذكور بسبب الحروب مثلا. في مثل هذه الحالات فقط، يكون تعدد الزوجات، وبتنظيم خاص.

هذا يوافق مبادئ الشريعة الإسلامية، التي تبيح تعدد الزوجات، لكنها في نفس الوقت، تحذر من عواقب هذا التصريح. بحجة أنه سوف يؤدي إلى الظلم وعدم العدالة. الله

سبحانه لا يرضى أن نكون غير عادلين في تعاملنا مع أقرب الناس إلينا. إذا كنا كذلك في تعاملنا مع زوجاتنا، فكيف يكون تعاملنا مع الآخرين.

ما يقال عن تعدد الزوجات، يقال أيضا عن موضوع الطلاق. الطلاق هو أبغض الحلال عند الله.



الطلاق هو أبغض الحلال

يترك الآن بدون قيد أو شرط للرجل. الرجل له الحق في طرد زوجته، وتشريد أولادها دون مساءلة من أحد. في حالات كثيرة، يتم الطلاق لمجرد إظهار بطولة الرجل واستبداده.

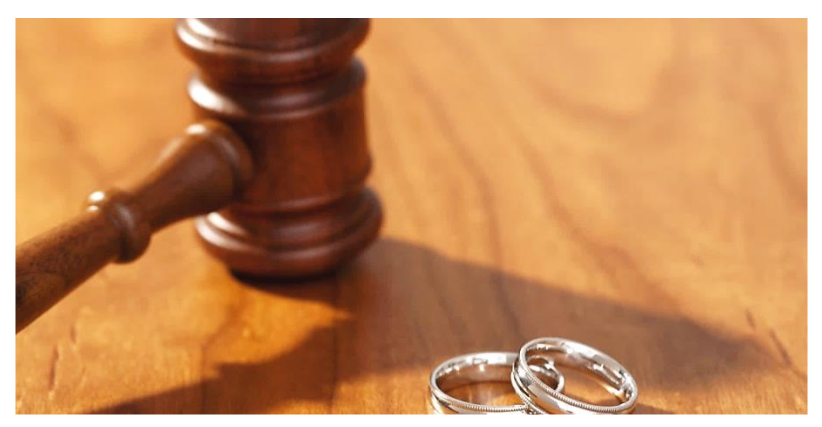
المرأة تطلب في بيت الطاعة دون إرادتها، وتطرد من بيتها دون رغبتها. ولا تستطيع أن تطلب الطلاق، إذا حدث أن تزوجت إنسانا معتوها أو وحشا في ملابس إنسان.



المرأة لا تستطيع أن تطلب الطلاق إذا حدث أن تزوجت معتوها

لطلاق بغيض بكل المقاييس. تأثيره مدمر بالنسبة للأولاد. السجون والعيادات النفسية مليئة بضحايا الطلاق. لكن له ضرورة. فقد تستحيل المعيشة بين الزوجين. يكون الطلاق في هذه الحالة أقل الأضرار.

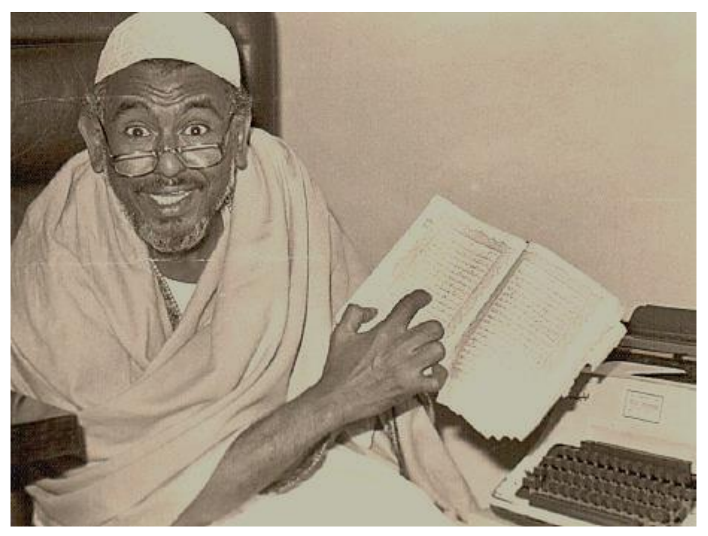
لذلك، يقترح قاسم أمين، أن يكون الطلاق مقيدا بالقانون. وإذا سمح به، يكون للمرأة الحق في الطلاق مثل الرجل.



الطلاق يكون فقط بحكم المحكمة

حاول قاسم أمين التقريب بين أفكار الحضارة الغربية الحديثة وبين مبادئ الإسلام، بالنسبة لقضية المرأة. فيقول بأن أفكاره لا تتعارض بأي حال من الأحوال مع مبادئ الدين الإسلامي. ويهيب بالمسلمين ورجال الدين، لكي يعيدوا تفسير الشريعة في ضوء نصوص القرآن الكريم، وصحيح الحديث.

هذا يعني أنه إذا كان النص واضحا، فلا مكان للمناقشة. ما علينا سوى السمع والطاعة مهما كانت النتائج.

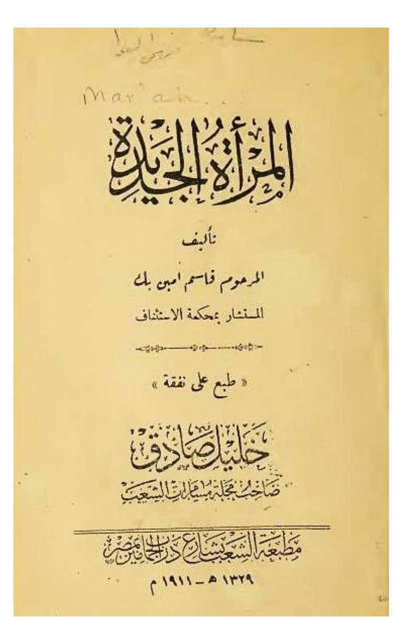


التفسيرات القديمة ليست مقدسة

لكن إذا غاب النص، أو لم يكن واضحا، فمن واجبنا المصلحة العامة. التفسيرات القديمة أو حتى الإجماع، ليست مقدسة.

لا يجب أن توضع في منزلة القرآن الكريم نفسه. وإلا نكون قد خلقنا أصناما جديدة، تشاركنا مقدساتنا، لكي تحجب عنا وضوح الرؤية. هذه التفسيرات، إن كانت تصلح لجيل ما، فهي نفسها قد تكون ضارة بجيل مختلف وزمان آخر.

أثار كتاب قاسم أمين، كما هو متوقع، معارضة شديدة داخل الأوساط الدينية. في خلال شهور قليلة، ظهرت عدة مؤلفات ردا على كتاب قاسم أمين. بعضها يؤيده، والغالبية تهاجمه.



المرأة الجديدة

تأليف

المرحوم قاسم أمين بك

المستشار بمحكمة الاستئناف

« طبع على نفقة »

خليل صادق

صاحب مجلة مسامرات الشعب

مطبعة الشعب بشارع درب الجماميز بمصر

١٣٢٩ هـ - ١٩١١ م

فقام قاسم أمين في عام 1900م، بنشر كتاب آخر أشد خطورة عن المرأة أسماه المرأة الجديدة. ليكمل فيه بحثه السابق عن وضع المرأة البائس في مصر والعالم الإسلامي.

كتاب قاسم أمين الثاني يعتمد في تحليله على العلوم الاجتماعية الحديثة. نجده متأثرا بأفكار أوروبية لفلاسفة مثل هيربرت سبنسر وغيره. ونجد عبارات عن الحرية والتقدم والمدنية تملأ الكتاب.

الحرية هي حرية الفكر والإرادة والعمل. طالما ظلت هذه الحرية في إطار القانون والقيم الإجتماعية.


الحرية هي حرية الفكر والإرادة والعمل

لكن الحرية بالنسبة للمرأة هي أم الحريات. عندما تتحرر المرأة، يتحرر المواطن ويتحرر الوطن. الذين يحاربون تحرير المرأة، يستخدمون نفس المنطق الذي يحاربون به حرية الصحافة وحرية الرأي وكل الحريات.

أنظروا إلى دول الشرق، ستجدون المرأة جارية للرجل، والرجل عبدا للحاكم. الرجل ظالم في داره، مظلوم خارجه.



الرجل ظالم في بيته، مظلوم خارجه

أنظر إلى الدول الأوروبية، ستجد الحكومات تطبق مبدأ الحرية وحقوق الإنسان. وضع المرأة بلغ درجة عالية من الاحترام، وكفلت لها حرية التعبير.



رئيسة اليونسكو إيرينا بوكوفا

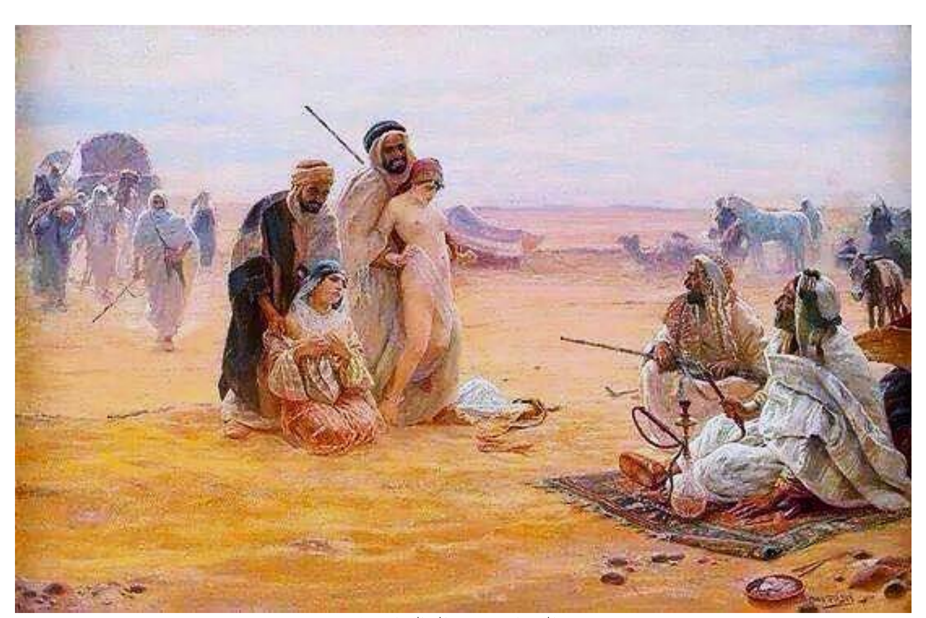


المدينة الفاضلة تبنى على أساس العلم والدين

قاسم أمين هنا يذكرنا بالأفغاني، في توضيحه لأسباب إنحلال المجتمعات الإسلامية. المدينة الفاضلة، لا تبنى على أساس الدين فقط. لكن يجب أن تبنى على أساس العلم أيضا.

الحضارة الإسلامية في الماضي، وصلت إلى ما وصلت إليه منذ زمن بعيد. قبل أن تصل العلوم الاجتماعية والسياسية، إلى ما وصلت إليه الآن. النموذج القديم، لا يصلح اليوم بدون تعديل. الحضارة الإسلامية، مثل باقي الحضارات، لها مزاياها وعيوبها.

ليس هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن المسلمين أيام أوج حضارتهم، كانوا أفضل أو أسوأ من باقي الشعوب.


سوق الجواري في العالم الإسلامي

أسلوب الحكم عندهم، لم يبلغ مرحلة النضج. الحاكم كانت لديه سلطات غير محدودة. فلم يكن هناك دستور يحد من سلطاته، أو يجبره على الالتزام بمادئ الشريعة.

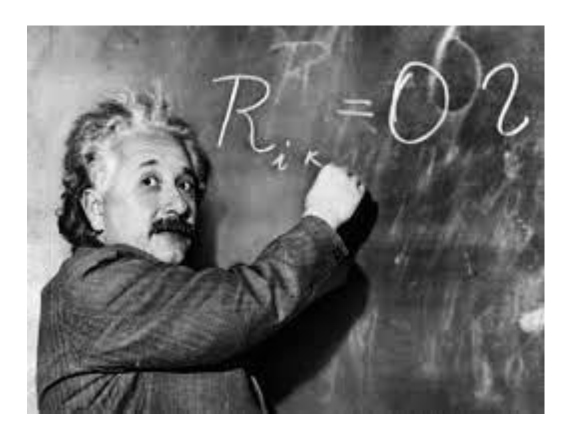


الحاكم بأمر الله، سلطات غير محدودة

البيعة كانت عملية صورية. وحرية الرأي كانت بقدر ما يسمح به الحاكم. الشورى لم تكن ملزمة. الخليفة هو الذي يقرر شؤون الحرب والسلم والضرائب. هو الراعي للأمة وفقا لرأيه الخاص. بدون مشورة من أحد. الكمال لم يوجد في ماضي الدولة الإسلامية. وإن وجد، ربما يكون في مستقبلها عن طريق العلم والعلوم الاجتماعية.

أوروبا الآن هي المتقدمة علميا. المجتمع الغربي أفضل من المجتمع الإسلامي. بالرغم من وجود من يقول إن الغرب متقدم في العلوم المادية فقط. لكننا متقدمون عنه في الأخلاق والروحانيات. لكن قاسم أمين يقول، إن هذا وهم غير صحيح. الأوروبيون أكثر تقدما في الأمور الخلقية والروحانية من أهل الشرق.

حقيقة، الطبقة العليا والطبقة السفلى في المجتمع الأوروبي أقل فضيلة بالنسبة للأمور الجنسية، إلا أن الطبقة الوسطى وهي عماد المجتمعات الصناعية، تتحلى بأخلاق عالية بكل المقاييس.



لماذا يدير العالم ظهره لمتع الدنيا وحياة الترف، ليكرس حياته للبحوث وحل المشكلات.

ألبرت أينشتاين

ومن يحث رجل الدين على المعيشة في الغابات والأحراش لهداية الشعوب البدائية. وما يدفع الرجل الثري على التبرع بثروته للأعمال الخيرية.



بل جيتس صاحب شركة ميكروسوفت يتبرع بنصف ثروته لإنقاذ حياة 6 مليون فقير من الجوع والأمراض حول العالم

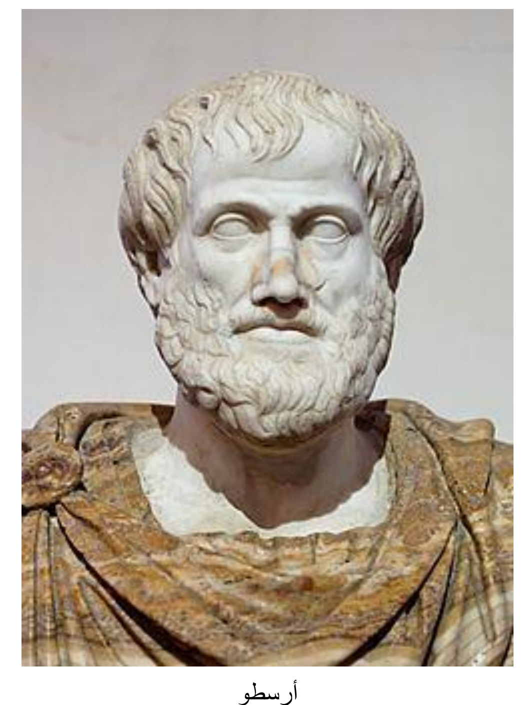
كل هذا يدل على أن الشعوب الأوروبية لها أخلاقياتها وقيمها هي الأخرى. فضلا عن أنها بصفة عامة، تحب النظام والنظافة. وتكره الكذب. إذا وعدت، أوفت. اتهامها بأنها شعوب تتخلف عن شعوبنا، هو اتهام غير عادل.

لأن أخلاقياتنا تنحصر في شئ واحد. هو حفظ الفرج وثلمة الأثداء، وعفاف المرأة وإخفاء وجودها.



أخلاقياتنا تنحصر في عفاف المرأة وإخفاء وجودها

السبب في أخلاق الغرب علمي لا ديني. أرسطو له كتاب كامل عن الأخلاق. ليس فيه كلمة واحدة عن الثواب والعقاب في الحياة الأخرى.



أرسطو

كل فيلسوف تناول موضوع الأخلاق من الناحية الفلسفية. الأخلاق بدون المعرفة والفهم، تصبح حالة عارضة غير مستقرة.

حرية المرأة في أوروبا وكذلك إلغاء الرق، لم تتم لأسباب دينية. كذلك الحرية، والمساواة بين بني البشر، بغض النظر عن اللون والجنس والعقيدة. كل ذلك بسبب تقدم العلوم السياسية والاجتماعية.

واضح مما سبق، لماذا قوبلت أفكار قاسم أمين الثورية، في كتابه المرأة الجديدة، بعاصفة من الهجوم. قاسم أمين كان عنيفا في نقده للمجتمع الشرقي. إنه يقول بصراحة شديدة، إن الدين فقط لا يكفي لقيام دولة أو حضارة.

الحضارات تقوم لأسباب كثيرة، منها الدين كأحد العناصر وليس العنصر الوحيد. لكي تستمر الحضارة، يجب أن تبنى على المساواة، التي يدعمها العلم ويكفلها القانون. بالرغم من أنه يكنّ للإسلام كل الاحترام، إلا أنه يقول إن من حق الحضارة أن يكون لها عناصرها وأهدافها الأخرى التي تكفل لها البقاء والاستمرار.

15

طه حسين

ولد طه حسين (1889 – 1973م) في قرية صغيرة في صعيد مصر. بالرغم من فقده لبصره في سن مبكرة، إلا أن هذا لم يمنعه من مواصلة تعليمه وحصوله على أعلى الدرجات العلمية.



طه حسين وعقيلته سوزان بريسو

بعد مرحلة الكتّاب، التحق بالأزهر في سن الثالثة عشر ليقضى به عشر سنوات. ألم خلالها بقواعد وآداب اللغة العربية إلماما كاملا. درس فيها أصول الفقه والتاريخ الإسلامي دراسة مستوفية.

كان على اتصال أثناء دراسته بفكر الإمام محمد عبده. إذ كان يحضر بعض محاضراته عن الإسلام والفلسفة الإسلامية. كان أيضا يطالع مقالات للكتاب الإسلاميين المعتدلين والصحفيين اللبنانيين وكتاب جريدة الجريدة وخصوصا أحمد لطفي السيد.

ثم انتقل للدراسة بالجامعة المصرية وكانت حديثة العهد. يقوم بالتدريس بها أساتذة أوروبيين مثل ليتمان وبالينو وسانتلانا. مما أضاف بعدا جديدا لثقافته الدينية والعربية. وحصل من الجامعة المصرية على أجازة الدكتوراه في أدب أبي العلاء المعري.



في عام 1915م، ذهب طه حسين إلى فرنسا ليقضي بها أربعة أعوام. اطلع خلالها على أدب أناضول فرانس وكومتيه ورينان. كان يواظب على حضور محاضرات درخيم. وخلال فترة البعثة هذه، تزوج من فتاة فرنسية، سوزان بريسو، كانت هي نور عينيه.

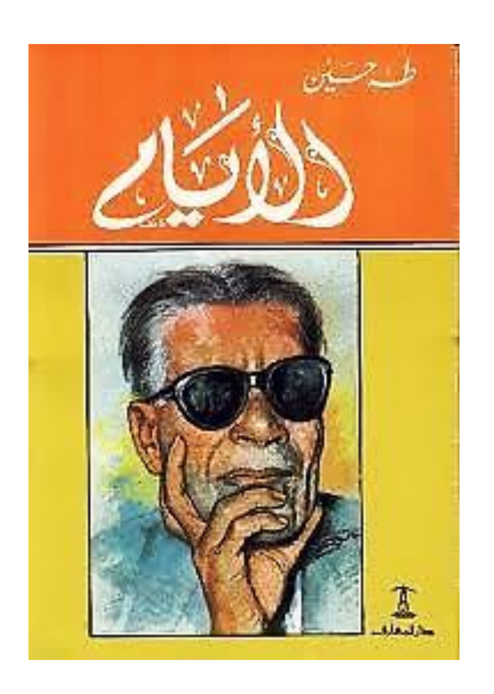
في نهاية البعثة حصل على أجازة الدكتوراه من جامعة السربون في أعمال ابن خلدون.



ومنذ عودته إلى مصر عام 1919م، ولمدة ثلاثين عاما متواصلة، كان الدكتور طه حسين في مركز الحركة الأدبية والأكادمية في مصر.

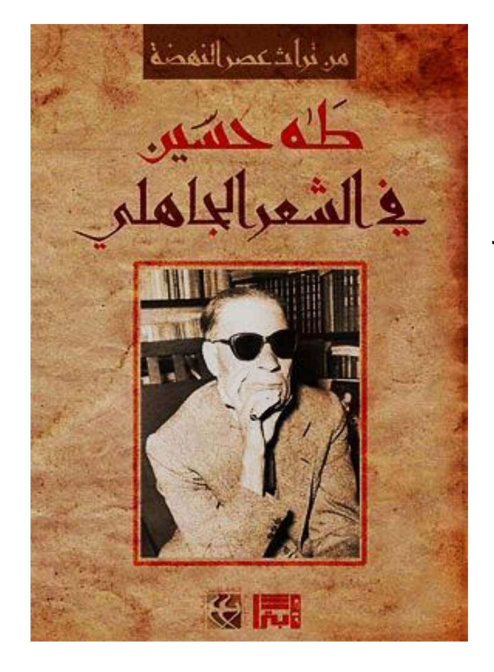
عمل أستاذا وعميدا لكلية الآداب جامعة فؤاد الأول (القاهرة حاليا)، وجامعة الإسكندرية، ووزيرا للمعارف (1950 – 1952م). وكانت خيرة إنتاجه الفكري والأدبي في فترة العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين.

متمثلة في العديد من المقالات الصحفية والروايات الأدبية ودراسات في التاريخ الإسلامي.

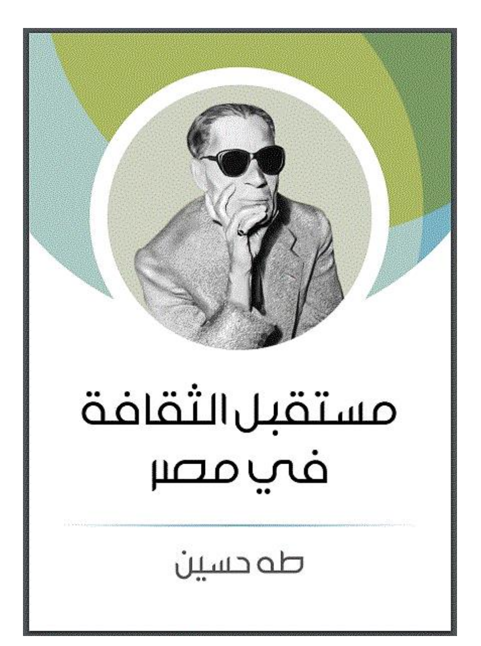


وكتاب عن حياته، الأيام، ينتقد فيه التعليم.

ومجموعة دراسات اجتماعية وأخرى سياسية، ترجمت معظمها إلى عدة لغات أجنبية. استحق بسببها لقب عميد الأدب العربي بجدارة. إلا أنه قد مر خلال فترة نشاطه الفكري هذا بأزمتين حادتين. تركا في نفسه أثرا بالغا.



الأولى عام 1926م، عندما نشر كتابه "في الشعر الجاهلي"،



والثانية عام 1938م عندما نشر كتابه "مستقبل الثقافة في مصر".

جاء في كتاب "في الشعر الجاهلى" لطه حسين أن الأدب العربي في الخمسين سنة الأخيرة قد انحدر وأصابه المسخ والتشويه، بسبب مجموعة احتكرت اللغة العربية وآدابها بحكم القانون.



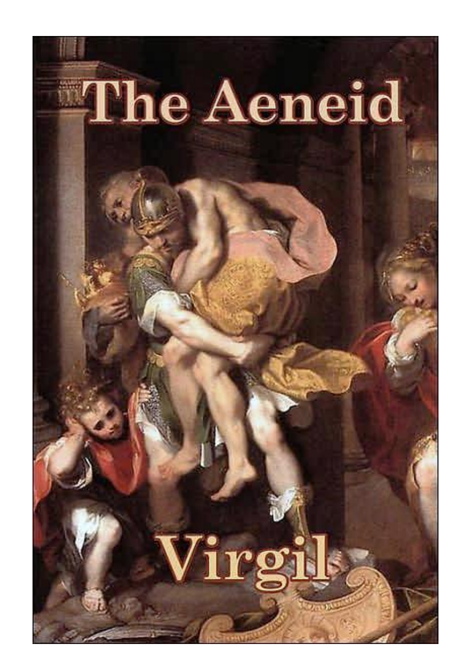
الأدب العربي أصابه المسخ والتشويه بسبب مجموعة احتكرت اللغة العربية

هذا أمر ليس خليق بأمة كالأمة المصرية، كانت منذ عرفها التاريخ ملجأ الأدب وموئل الحضارة. عصمت الأدب اليوناني من الضياع. وحمت الأدب العربي من سطوة العجمة وبأس الترك والتتر.



مصر حمت الأدب العربي من هجمة التتر

الأدب العربى، يجب أن يُعتمد في درسه على إتقان اللغات السامية وآدابها. وعلى إتقان اللغتين اليونانية واللاتينية وآدابهما. بالإضافة إلى تفهم التوراة والإنجيل والقرآن. إذ كيف السبيل إلى درس الأدب العربي، إذا لم نقم بدراسة هذه الموضوعات كلها.



فهل نظن أن من شيوخ الأدب في مصر، من قرأ إلياذة هوميروس أو ينادة فرجيل؟



الجاحظ

لقد كان الجاحظ أديبا لأنه كان مثقفا قبل أن يكون لغويا أو بيانيا أو كاتبا.

كان الجاحظ يتقن فلسفة اليونان وعلومهم وسياسة الفرس وحكمة الهنود. وكان على علم بالتاريخ وتقويم البلدان. لو عاش الجاحظ في هذا العصر، لحاول إتقان الفلسفة الألمانية والفرنسية. هذا ما يفعله بالضبط أستاذ الأدب الإنجليزي أو الفرنسي اليوم.

يكفي أن تنظر في أدب أبي العلاء المعري لترى أننا في حاجة إلى علوم الدين الإسلامي كلها. وإلى النصرانية واليهودية ومذاهب الهند في الديانات. هذا لكي نفهم شعر أبي العلاء. فالأدب لا يمكن أن يثمر إلا إذا اعتمد على علوم تعينه، وعلى ثقافة تغنيه.



لفهم أدب أبي العلاء المعري نحتاج لعلوم الأديان السماوية ومذاهب الهند

اللغة العربية لغة مقدسة، لأنها لغة القرآن الكريم والدين. ولأنها مقدسة، لا تخضع للبحث العلمي الصحيح الذي يستلزم النقد والتكذيب والإنكار والشك على أقل تقدير. أما طه حسين، فيريد أن يكون تدريس اللغة العربية وآدابها، شأن العلوم التي ظفرت بحريتها من قبل.

دراسة الأدب العربي اليوم، تقتصر على مدح أهل السنة، وذم المعتزلة والشيعة والخوارج والكفار. وليس في ذلك شأن ولا منفعة، ولا غاية علمية بالنسبة لأدب اللغة العربية.



دراسة الأدب العربي لا تقتصر على مدح أهل السنة وذم الكفار والشيعة

فالأدب العربي شئ، والتبشير بالإسلام شئ آخر. فمثلا إذا أمرت السلطة السياسية الكتّاب والمؤرخين أن تكون كتاباتهم ودراساتهم مقصورة على تأييد السلطة السياسية، أليس الكتاب جميعا، إن كانوا خليقين بهذا الإسم، يؤثرون أن يبيعوا الفول والكراث، على أن يكونوا أدوات في أيدي الساسة، يفسدون بهم العلم والأخلاق.



بيع الفجل والكراث أجدى للكاتب من أن يكون أداة في يد الحاكم

لقد أغلق أنصار القديم على أنفسهم في الأدب باب الاجتهاد. كما أغلقه الفقهاء في الفقه، والمتكلمون في الكلام.

فما زال العرب ينقسمون إلى بائدة وباقية، وإلى عاربة ومستعربة. ومازال أولائك من جرهم، وهؤلاء من ولد اسماعيل. ومازال إمرء القيس صاحب "قفا نبك..."، وطرفة صاحب "لخولة أطلال..."، وعمر بن كلثوم "ألا هبى...".



القبائل العربية

لكنني، والكلام هنا لطه حسين، شككت في قيمة الأدب الجاهلي، وألححت في الشك. وانتهيت إلى أن الكثرة المطلقة مما نسميه أدبا جاهليا، ليس من الجاهلية في شئ. إنما هي منحولة بعد ظهور الإسلام. فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهوائهم، أكثر مما تمثل حياة الجاهليين.

ما بقي من الأدب الجاهلي الصحيح قليل جدا، لا يمثل شيئا، ولا يدل على شئ، ولا ينبغي الاعتماد عليه في استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلي.

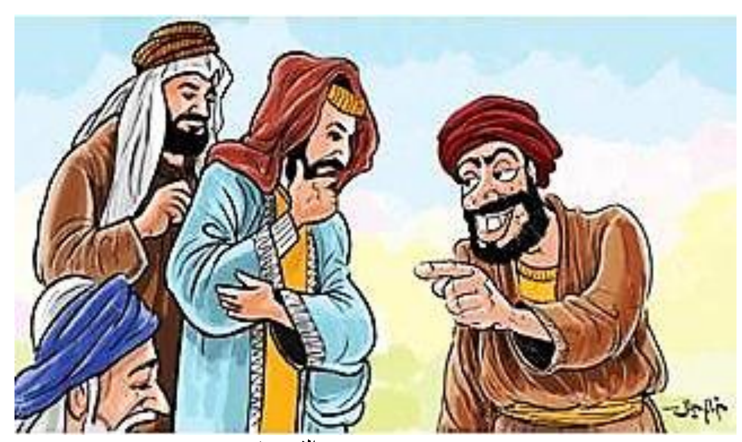
فالشعر الذي ينسب إلى امرؤ القيس أو إلى الأعشى أو إلى غيرهما من الشعراء الجاهليين، لا يمكن من الوجهة اللغوية أو الفنية أن يكون لهؤلاء الشعراء.



امرؤ القيس

ولا أن يكون قد قُيِل وأذيع قبل أن يظهر القرآن. لذلك لا ينبغي أن يُستشهد بهذا الشعر على تفسير القرآن وتأويل الحديث. إنما ينبغي أن يستشهد بالقرآن والحديث على تفسير هذا الشعر وتأويله.

فحياة العرب الجاهليين، ظاهرة في شعر الفرزدق وجرير وذى الرمة والأخطل والراعي أكثر من ظهورها في هذا الشعر الجاهلي، الذي ينسب إلى طرفة وعنترة وبشر بن أبي خازم.



جرير يهجو الفرزدق

أما سبل نحل الشعر الجاهلي، كما سردها طه حسين، فهي سياسية ودينية. فبعد هجرة الرسول إلى المدينة، نشأت عداوة بين مكة والمدينة. اصطبغت بالدم يوم انتصر الأنصار في بدر، ويوم إنتصرت قريش في أُحُد.


غزوة بدر

فوقف شعراء الأنصار وشعراء قريش، يتهاجون ويتجادلون ويتناضلون. يدافع كل فريق عن أحسابه وأنسابه، ويشيد بذكرى قومه.


بعد موقعتي بدر وأحد وقف شعراء الأنصار وشعراء قريش يتهاجون

بعد فتح مكة بقليل، وبعد أن توحدت قريش مع الأنصار، توفي الرسول ولم يضع قاعدة للخلافة، ولا دستورا للحكم لهذه الأمة التي جمعها بعد فرقة. فعادت هذه

الضغائن إلى الظهور. واستيقظت الفتنة بعد نومها. وزال الرماد الذي كان يخفي الأحقاد.

فاختلف المهاجرون من قريش مع الأنصار في الخلافة. أين تكون ولمن تكون. وكاد الأمر يفسد بين الفريقين. لولا حزم نفر من قريش وقوة قريش المادية.



فأذعن الأنصار. وقبلوا أن تخرج الإمارة إلى قريش. إلا سعد بن عبادة الأنصاري، الذي أبى أن يبايع أبا بكر، وأن يبايع عمر. ظل سعد يمثل المعارضة، قوي الشكيمة، ماضي العزيمة. حتى قُتل غيلة في بعض أسفاره. وزعم الرواة أن قتله الجن.

لما قُتل عمر وانتهت الخلافة إلى عثمان، أصبحت الخلافة في بني أمية. فاشتدت عصبية الأمويين. واشتدت العصبيات الأخرى بين العرب. وبعد مقتل عثمان وافتراق المسلمين، انتهى الأمر كله لبني أمية، بعد تلك الفتن والحروب.

العصبية وما يتصل بها من المنافع السياسية، قد كانت من أهم الأسباب التي حملت العرب على نحل الشعر للجاهليين. فابن سلام يعترف بأن أهل العلم قادرون على أن يميزوا الشعر الذي ينحله الرواة في سهولة. لكنهم يجدون مشقة وعسرا في تمييز الشعر الذي ينحله العرب أنفسهم.

لم تكن العواطف والمنافع الدينية أقل من العواطف والمنافع السياسية أثرا في تكلف الشعر ونحله، وإضافته إلى الجاهليين. فكان هذا النحل في بعض أطواره، يُقصد به إثبات صحة وصدق النبي، وصدق كل ما يتصل ببعثته من أخبار وقصص. تروى لتقنع العامة بأن علماء العرب وكهانهم وأخبار اليهود ورهبان النصارى، كانوا ينتظرون بعثة نبي عربي، يخرج من قريش أو مكة.

كما كان هناك لونا آخر من الشعر المنحول. نسب إلى الجاهليين من عرب الجن. فالأمة العربية لم تكن أمة من الناس فقط. إنما كانت هناك أمة أخرى من الجن، تحيا حياة الأمة الإنسية، وكانت تقول الشعر.

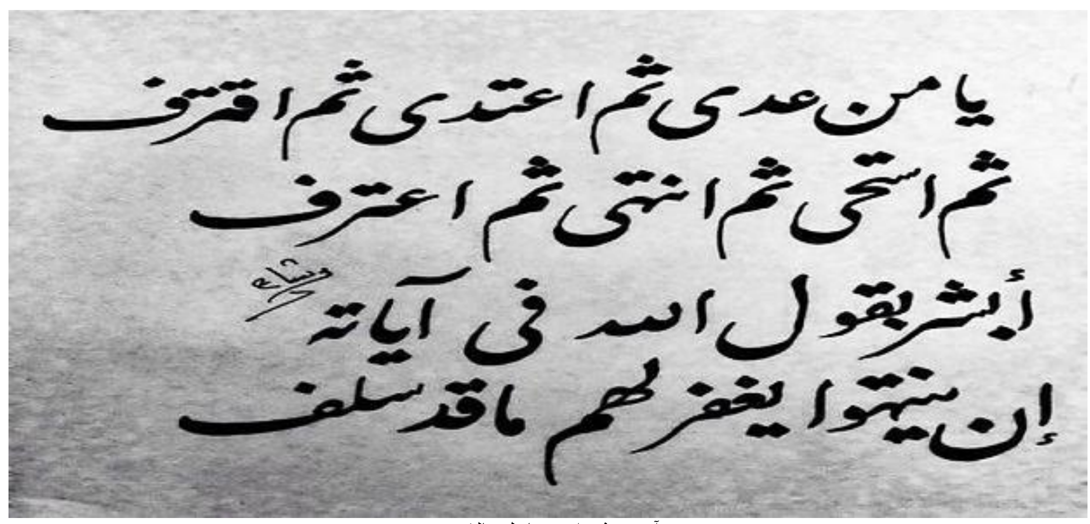

أمة أخرى من الجن تقول الشعر

لقد أنطق العرب الجن بضروب من الشعر وفنون من السجع. ووضعوا على النبي نفسه أحاديث، لم يكن بد منها، لتأويل آيات القرآن على النحو الذي يريدونه ويقصدون إليه.

في طبقات الشعراء لابن سلام، نجده يثبت أن الشعر الذي يلجأ إليه القصاص لتفسير ما جاء بالقرآن الكريم من أخبار الأمم القديمة البائدة لعاد وثمود ومن إليهم، هو شعر منحول وضعه ابن اسحق،



الذي لم يكتف بذلك، وإنما نسب الشعر إلى آدم نفسه، حين زعم بأنه رثى هابيل حين قتله أخوه قابيل.



آدم يرثي ابنه هابيل بالشعر

سبب آخر لنحل الشعر، ظهر عندما اتصلت الحياة العلمية عند العرب بالأمم المغلوبة والموالي. فأرادوا أن يدرسوا القرآن درسا لغويا، ويثبتوا صحة ألفاظه العربية ومعانيه. فحرصوا على أن يستشهدوا على كل كلمة من كلمات القرآن بشئ من شعر العرب. يثبت أن هذه الكلمة القرآنية عربية لا سبيل إلى الشك في عربيتها.

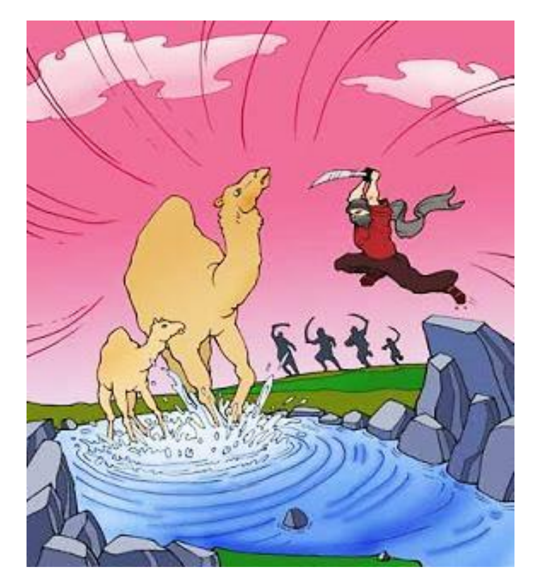
كانت هناك أيضا خصومات بين العلماء. كان لها تأثير غير قليل في مكانة العالم وشهرته ورأي الناس فيه. فاستشهدوا بشعر الجاهليين على كل شئ. المعتزلة مثلا، يثبتون مذاهبهم بشعر الجاهليين. إلا أن هذا الشعر الجاهلي المنحول، استغله بعض المستشرقين للنيل من الإسلام.

فيزعم "كليمان هوار" في فصل طويل نشر في المجلة الأسيوية عام 1904م، أنه قد استكشف مصدرا جديدا من مصادر القرآن الكريم. وهو شعر أمية بن أبي الصلت. وأن الرسول قد استعان به في نظم القرآن الكريم.



أمية بن أبي الصلت

أما طه حسين، فهو يرتاب في شعر أمية بن أبى الصلت. ويقول أنه حتى إذا جاء في شعر أمية أخبارا وردت في القرآن. كأخبار ثمود وصالح والناقة والصيحة.



قتل ناقة صالح كان معروف عند اليهود وبعض العرب

فمن الذي زعم أن ما جاء بالقرآن الكريم من أخبار، كان مجهولا قبل أن يجئ به القرآن؟ ومن الذي يستطيع أن ينكر، أن كثيرا من القصص القرآني كان معروفا بعضه عند اليهود، وبعضه عند النصارى، وبعضه عند العرب أنفسهم.

أما شعر أمية بن أبي الصلت، إنما نحل نحلا. نحله المسلمون ليثبتوا أن للإسلام قدمه وسابقه في البلاد العربية. من هنا لا نستطيع أن نقبل ما يضاف إلى هؤلاء الشعراء والمتحنفين. إلا مع شئ من الاحتياط والشك غير قليل. فالقرآن الكريم وحده هو النص العربي القديم، الذي يستطيع المؤرخ أن يطمئن إلى صحته. ويعتبره مشخصا للعصر الذي تُليَ فيه.

أثار كتاب طه حسين "في الشعر الجاهلى" معارضة شديدة. لأنه يقدم أسلوبا نقديا جديدا للغة العربية وآدابها. يخالف الأسلوب النقدي القديم المتوارث. هذه المعارضة، قادها رجال الأزهر.



اسماعيل صدقي باشا

اتهم طه حسين في إيمانه، وسحب الكتاب من الأسواق لتعديل بعض أجزائه. وقامت وزارة اسماعيل صدقي باشا عام 1932م بفصله من الجامعة كرئيس لكلية الآداب.



فاحتج على ذلك رئيس الجامعة أحمد لطفي السيد، وقدم إستقالته. ولم يعد طه حسين إلى منصبه، إلا عندما تقلد الوفد الحكم عام 1936م.

هكذا يتكرر فصل جديد مأساوي في ملحمة تاريخ البشرية. حينما يصطدم الجديد بالقديم، والعلم بالمتوارث. فكل ما نعرف هو الصحيح واليقين. ومالا نعرف هو الخطأ البين. فكلما قلّت معارفنا، كلما زادت ثقتنا فيما نعلمه. وزادت ضراوتنا في الحفاظ على هذا القليل.

العقل جريمة، وإعمال الفكر خطيئة، إذا حاولا أن يصححا أفكارنا ومفاهيمنا الخاطئة. هذا بالرغم من تعاليم الإسلام الواضحة، التي تأمرنا بوجوب إستخدام العقل والفكر في كل الأمور. وكما يقول العقاد: "وجوب إستخدام العقل في الإسلام فريضة واجبة".

ثم صدر كتاب مستقبل الثقافة في مصر لطه حسين عام 1938م. بعد أن وقعت مصر معاهدة 1936م، التي أنهت بها الاحتلال البريطاني رسميا. وأصبحت بمقتضاها دولة مستقلة.

قد كان في مصر في ذلك الوقت، شعور عام ببداية فترة جديدة من تاريخ مصر. التي باتت تحكم بحكومة وطنية تحظى بأغلبية شعبية. فماذا يعني هذا؟ وما يمكن أن تفعله مصر باستقلالها؟

الاستقلال، كما يقول طه حسين، ليس غاية في حد ذاته، إنما وسيلة لبلوغ أسمى الغايات. وأسمى الغايات بالنسبة للفرد هو الحرية والسعادة. وبالنسبة للمجتمع، هي

بلوغه أعلى درجات الحضارة. هذا يأتي من إعلاء شأن الفرد وإعمال العقل والمنطق كمنهج.

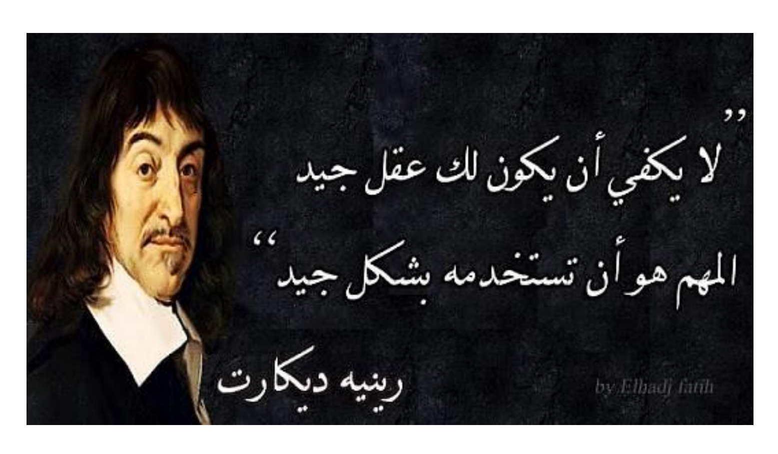


تمر المجتمعات في طريقها للحضارة بعدة مراحل:

المرحلة الأولى، هي مرحلة سيطرة الدين والإيمان الأعمى. حينما يتحكم الدين في كل حياة الفرد والمجتمع.



المرحلة الأخيرة، عندما يستقل العقل عن الدين. بدون أن يصطدم أو يعادي أيا منهما الآخر.



وظيفة العقل هي هداية الإنسان في حل مشاكله المادية والحسية. ووظيفة الدين إشباع الناحية الروحية للفرد، وهدايته إلى كل ما هو نبيل. ومواساته في آلامه ووحدته.

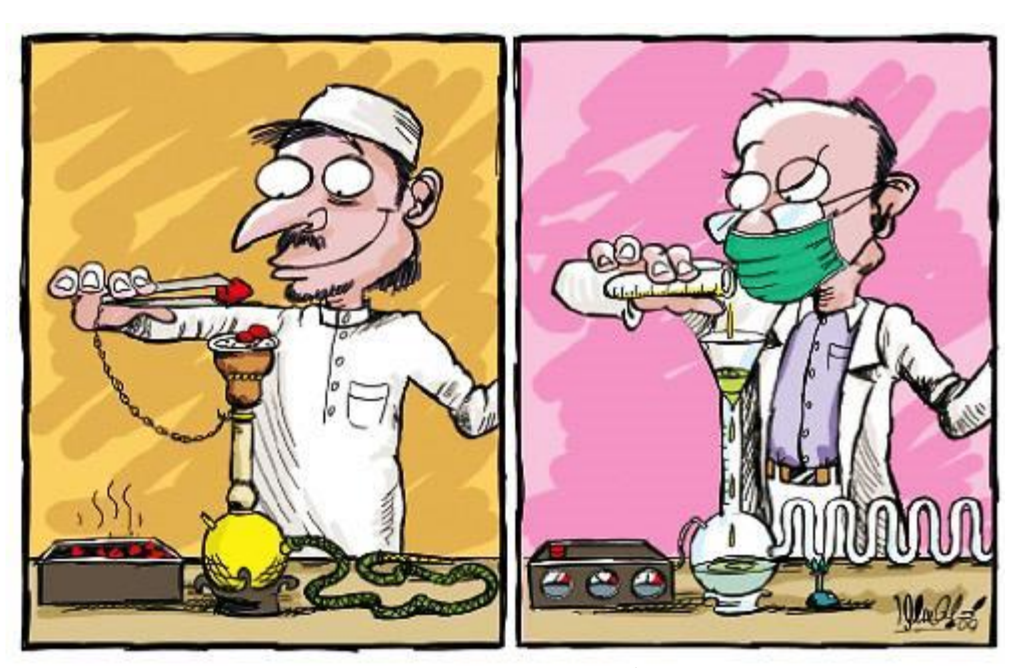
الحضارة الغربية اليوم قد وصلت إلى هذه المرحلة الأخيرة. حيث قد تحقق التوازن بين العقل والدين. وترك العقل حرا، ليستخدم العلم والمنطق لحل المشاكل المادية، والاستفادة من الثروات الطبيعية وتسخيرها لمصلحة المجتمع. ولوضع القوانين والدساتير، التي تهدف إلى تأكيد حقوق الإنسان، وحماية حريته وعرضه وماله. لكي تؤكد حقه في طلب العقيدة والسعادة كما يريدها.

نجد هنا تأثير الفكر الفرنسي على طه حسين، كومتيه وريتان ودرخيم وأناضول فرانس وأندريه جيد. فأوروبا بالنسبة لطه حسين، هي الحضارة الإنسانية والتمدين والديموقراطية.

ليست الحضارة الغربية حضارة جافة مادية فقط، كما يدعي أهل الشرق. إنما انتصارها المادي يرجع إلى ثرائها الروحي. متمثلا في الأعمال الأدبية والفنية العظيمة. ويرجع إلى نضوج تجربتها السياسية في شئون الحكم.

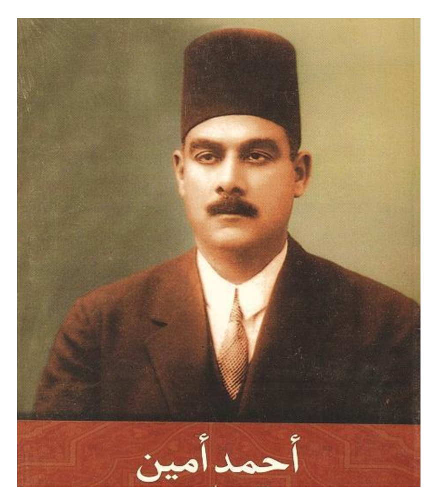
يقول طه حسين في كتابه مستقبل الثقافة في مصر، إن مصر يجب أن تكون جزءا من أوروبا حضاريا. لأن هذا هو الطريق الوحيد لكي ننتمي للعالم الحديث. ولأن اتفاقية الجلاء واعتراف دول أوروبا باستقلال مصر، هو بمثابة إعتراف وثقة بقدرة مصر على أن تكون دولة حضارية مثل أي دولة أوروبية. أي أنها دولة تحترم حقوق الإنسان وحريته. وتحكم بالنظم البرلمانية الحديثة.

فعلينا أن نكون أهلا لهذه الثقة. هذا لا يعني أن نصنع حضارة خاصة بنا، يمكن مقارنتها بالحضارة الأوروبية. إنما هذا لكي نقنع أنفسنا بأنه ليس هناك أية فروق بين الرجل المصري والرجل الأوروبي. ما وصلنا إليه هو بسبب فساد حكامنا وتعليمنا.



هذا ما وصل إليه الأوروبي وما وصلنا إليه بسبب فساد حكامنا وتعليمنا

فالله سبحانه قد خلقنا للمجد والرفعة، ولم يخلقنا للضعف والمهانة كما يتصور البعض. ولكي نكون مثل الأوروبيين، يجب أن نسير في نفس الدرب الذي ساروا عليه. أي نأخذ حضارتهم بما فيها من حلو ومر وخير وشر.

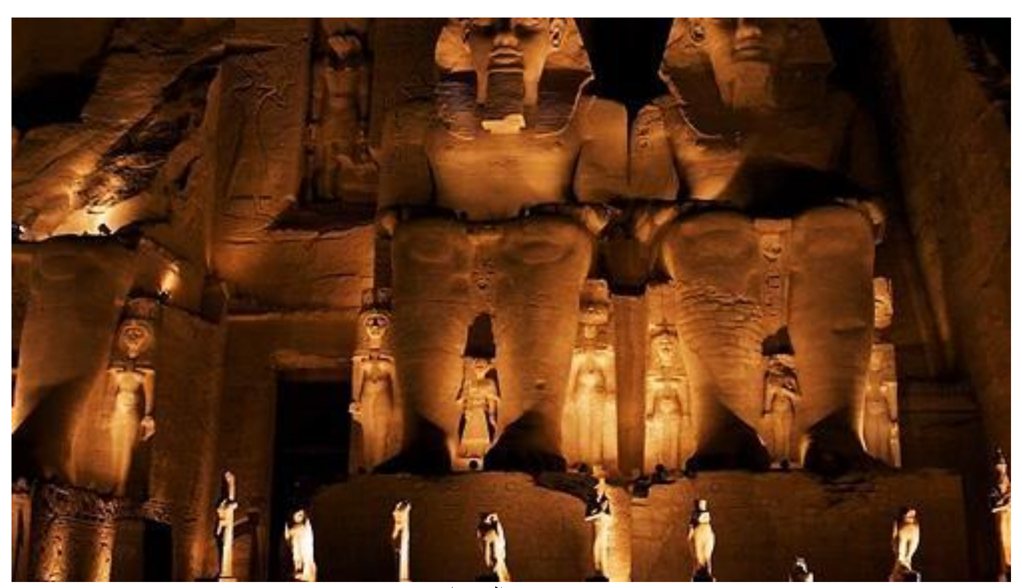


كان معظم الكتاب والمفكرين في ذلك الوقت، ومنهم أحمد أمين، يصنفون دول العالم إلى دول شرق ودول غرب.

وكانوا يضعون مصر مع دول الشرق نظرا لموقعها الجغرافي. أما طه حسين، فيقول، إن مصر ثقافيا وحضاريا، هي دولة غربية بكل ما تعنيه هذه الكلمة من دلالة. العالم ينقسم إلى حضارتين لا ثالث لهما. الأولى، تأخذ جذورها من الحضارة المصرية القديمة وفلسفة اليونان والقانون الروماني. والثانية، تأتي من الهند.

مصر تنتمي إلى الحضارة الأولى. فلماذا إذن ينظر المصريون إلى أنفسهم على أنهم من أهل الشرق؟ يأتي هذا بسبب اللغة والدين. والمشاركة في هموم الاحتلال والتخلف. وما دمنا متخلفين مثل دول الشرق، ونتحدث بلغتهم، فنحن مع حضارة الشرق. لكن تاريخ مصر يقول عكس ذلك.

مصر كانت عبر التاريخ على إتصال بدول البحر المتوسط وبحر إيجة. كانت هي نفسها مهد حضارة غمرت الآفاق آلاف من السنين. هذه الحضارة هي جذور وأصل الحضارة الغربية الحديثة.

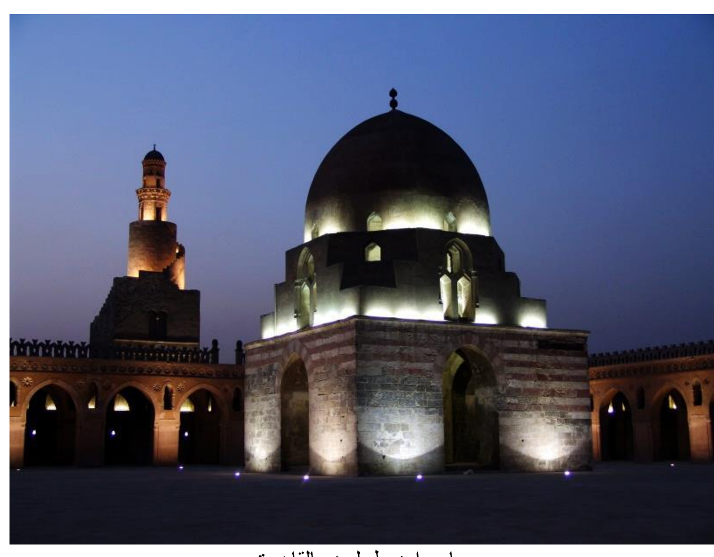


مصر مهد الحضارة

خلال التاريخ، كان تأثير حضارة مصر على اليونان، وتأثير حضارة اليونان على مصر واضح ومستمر.


فنارة الإسكندرية أيام حكم البطالمة

وعندما كانت مصر جزءا من الدولة الإسلامية، نجدها تستقل بشخصيتها منذ حكم ابن طولون.


جامع ابن طولون بالقاهرة

وكانت مصر على اتصال بحضارة الغرب والبحر المتوسط أكثر من حضارة الشرق. لماذا إذن تخلفت مصر عن دول الغرب حضاريا؟

يقول طه حسين، إن ذلك يرجع إلى الاحتلال التركي. فهو الذي قضى على حضارة مصر، ولفترة طويلة. وجعلها تمر بعصور مظلمة مثل العصور المظلمة التي مرت بها أوروبا من قبل.

لكن عصور الانحدار والتخلف إنتهت في مصر منذ أن تيقظت من ثباتها بالحملة الفرنسية وحكم محمد علي.



محمد علي باشا الكبير

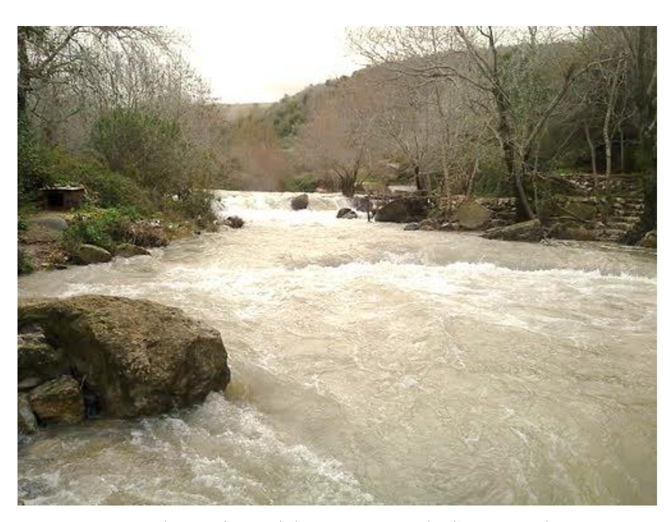
ثم بدأت تأخذ مصر من أوروبا علومها وأسلوبها في الحكم. وصار كل شئ في مصر غربي. حتى المؤسسات الإسلامية مثل المحاكم الشرعية، كانت على غرار النمط الأوروبي.

حقيقة هناك فروق بين مصر وأوروبا حاليا، لكن هذا يأتي من أن عصر النهضة الأوروبية قد بدأ في القرن الخامس عشر. أما عصر النهضة في مصر، فقد بدأ مع بداية القرن التاسع عشر. لكن مصر سوف تلحق بأوروبا في وقت قصير إن شاء الله.

الحضارة الأوروبية منفصلة عن الدين. لذلك يمكن لمصر أن تأخذ من حضارة الغرب. دون الخوف من تأثير هذه الحضارة على ديانتها. فالحضارة الإسلامية قديما أخذت من حضارة اليونان وحضارة الفرس والهند بدون مشكلة. في الواقع ليس هناك حضارة غربية وأخرى إسلامية. إنما هي كلها أطوار مختلفة لحضارة واحدة. هي الحضارة الإنسانية. الكل قد ساهم فيها بقدر كبير أو صغير.

بدأت هذه الحضارة في مصر. ثم انتشرت منها إلى جميع أنحاء العالم القديم. ثم خبا نورها في مصر ليسطع في اليونان. ومن اليونان إلى الإسكندرية والشام. ثم أسهمت الإسكندرية والشام والفرس والترك والهنود في الحضارة الإسلامية، التي استمرت أربعة قرون. ثم انتقلت عن طريق الأندلس وصقلية إلى أوروبا.

هذه الحضارة تعرف اليوم خطأ بالحضارة الغربية. إنما الإسم الصحيح لها هو الحضارة الإنسانية. فهي بمثابة النهر الذي يصب فيه الكل. وينهل منه الجميع.



الحضارة مثل النهر يصب فيه الكل وينهل منه الجميع

ونحن نتساءل بدورنا. لماذا الخوف من الحضارة الغربية؟ الخوف من الحضارة الغربية يأتي من عدم الثقة في أنفسنا وفي قدراتنا. ويأتي من مجموعة تحتكر تفسير الإسلام. وتعارض الحضارة الغربية من منطلق ديني بحت. خوفا من تأثير هذه الحضارة على مفهوم العقيدة.

لكن هذا الخوف لا مبرر له. لأنه ناتج عن عدم فهم لكلا من الديانة الإسلامية والحضارة الغربية على السواء. كل الذين ألموا بأصول الديانة الإسلامية، وكانوا ذو ثقافة واسعة. مثل الكندي والفارابي والرازى وابن سينا وابن رشد وابن خلدون.



الفارابي

ومن المحدثين، أمثال رفاعة الطهطاوي وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وطه حسين، لم يجدوا أي تعارض أو خوف من الاستفادة من الحضارات الأجنبية، مع الاحتفاظ بالأصول الإسلامية التي تدعو لها الشريعة الغراء.

ضعفنا وتخلفنا هو الخطر الحقيقي الذي يهدد وجودنا. وليست الحضارة الغربية. فماذا يحدث لو تسلحت جيوشنا اليوم بالسيوف والرماح والسهام.



ماذا يحدث لو تسلح جيشنا بالسوف والرماح كما كان الأمر أيام المجد الضائع؟



واستخدمت أسلوب الكر والفر، الذي كان مستخدما أيام الفتوح الإسلامية؟ وماذا يكون عليه حالنا، إذا رفضنا استخدام المضادات الحيوية والأسلوب الحديث في التشخيص والعلاج، واكتفينا بأسلوب العلاج المتبع أيام زمان؟



المبيل

إذا كانت الحضارة الغربية هي الصاروخ والطيارة والسيارة والتليفزيون والفيديو والتليفون والكهرباء والذرة والكمبيوتر والمبيل.

وإذا كنا نقبل كل ذلك بسهولة وبشهية نحسد عليها. لماذا إذن الخوف من الحرية والديموقراطية والفلسفة والأدب والفن والموسيقى الغربية؟

من يقول أن كل هذه الأمور محلية تصلح للغربيين ولا تصلح لنا، كما يدعي بعض مشايخنا الكرام؟ كل هذه موضوعات ثقافية لا دين لها ولا وطن. هي نتاج التراث الإنساني.

تعبر عن آمال وأحزان الإنسان في كل مكان وكل زمان. وإذا كانت اليابان قد أخذت من الحضارة الغربية، ونهلت منها كل منهل. دون أن تفقد شخصيتها أو دينها. فنحن من باب أولى، أحق بالاستفادة من الحضارة الغربية التي نحن مؤسسيها. دون خوف على شخصيتنا. لأن جذورنا أثبت وأقدم وأعرق.

حمايتنا من الغزو الفكري الغربي، هي دعوة غبية مغرضة. تبغي حماية ضعفنا وتخلفنا. وتجد قبولنا من الطغاة وزبانية الحكم الشمولي. لأن الرياح الغربية تحمل معها بذور الحرية والديموقراطية.

هذا هو الخطر الحقيقي على الفكر المظلم والنظم الاستبدادية البغيضة التي تحكم المنطقة دون هوادة. ويخبرنا التاريخ القديم منه والجديد، أن عربة الحضارة لا تجر بالعبيد. إنما تقاد دوما بالأحرار، متى عصف الزمان واشتدت الأخطار.



عربة الحضارة لا تجر بالعبيد

16

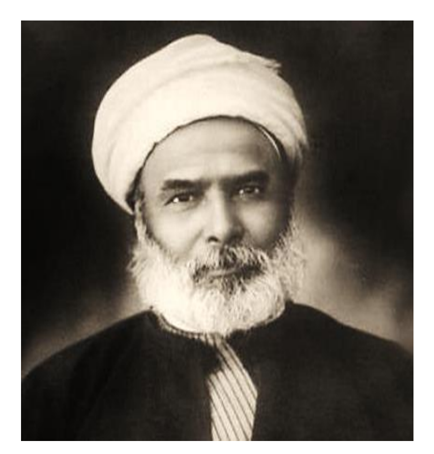
الشيخ على عبد الرازق

في عام 1925م، أصدر الشيخ علي عبد الرازق(1888-1966م)، أخو الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخ الأزهر، كتاب "الإسلام وأصول الحكم". حينما كان يعمل قاضيا بالمحاكم الشرعية.



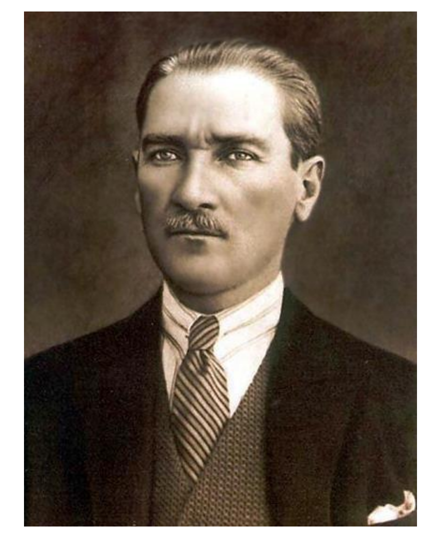
الشيخ علي عبد الرازق

درس الشيخ على عبد الرازق في الأزهر، ثم أكمل دراسته في جامعة أكسفورد بإنجلترا. بالرغم من وجود عدة فقرات في كتابه، يشير فيها إلى مفكرين سياسيين إنجليز، مثل هوبز ولوك، إلا أن تأثير الفكر الإنجليزي عليه لم يكن واضحا.



الإمام محمد عبده

بل نجده أكثر تأثرا بفكر الإمام محمد عبده. قام في كتابه بدراسة قضية هامة. هي قضية الخلافة والحكم في الإسلام.



كمال أتاتورك

في عام 1922م، وبعد ثورة مصطفى كمال أتاتورك في تركيا، ألغى المجلس الوطني في تركيا السلطنة.

في عام 1924م، ألغى أتاتورك منصب الخليفة، ثم أصدر بيانا باللغتين التركية والعربية موقعا من رجال الدين الأتراك، جاء فيه أنه حقا يوجد منصب الخليفة في الإسلام، لكن وجود هذا المنصب يعتمد على شروط معينة من الصعب توافرها.

منها أن الخليفة يجب أن يتصف بصفات خاصة، وأنه يجب أن يتم اختياره من بين وعن طريق عامة المسلمين.


أبوبكر البغدادي الخليفة الداعشي الجديد للمسلمين

هذه الشروط كانت موجودة أيام الخلفاء الأربعة الأوائل فقط. ثم بعد ذلك، أصبح اختيار الخليفة عملية شكلية. كانت كفاءة الخليفة في معظم الأحيان موضع شك. فمن حق المجتمعات الإسلامية أن تختار نظم الحكم التي تناسبها. لكي تضمن أن تحكم بطريقة عادلة. نظام الحكم الذي يختاره المسلمون، يجب أن يعتمد على حاجة العصر الذي يعيشون فيه.

ثم جاء مصطفي كمال أتاتورك، ليشرح بعدها لماذا قام بإلغاء نظام السلطنة والخلافة في تركيا، بحجة أنه نظام أصاب تركيا بالخراب. وأن تركيا الجديدة ليست لديها ما يجعلها تفكر في أي شئ، سوى كيانها ومصلحتها الخاصة. وليس عندها شيئا يمكن أن تعطيه للآخرين.

هذه الأنباء أصابت العالم الإسلامي بالذعر. في نفس الوقت، سال لعاب ملوك وحكام كثيرين لهذا المنصب الشاغر. منهم الشريف حسين في الحجاز والملك فؤاد في مصر.



فؤاد الأول ملك مصر

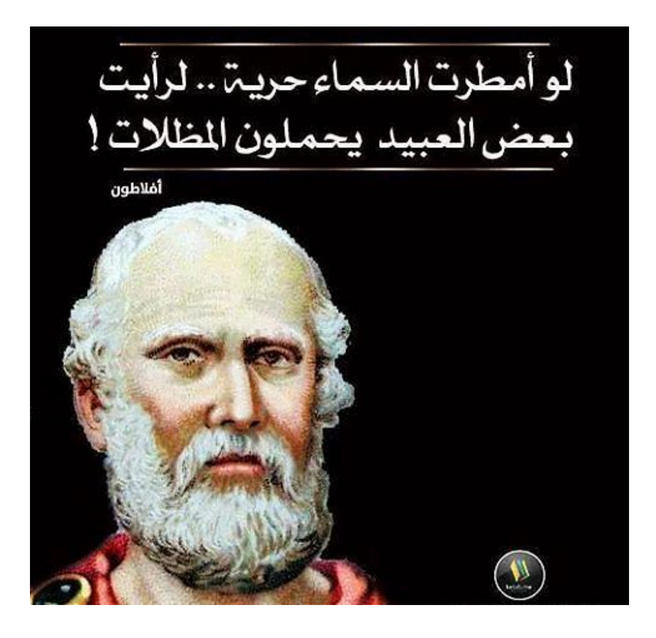
في عام 1926م، دعا الأزهر في مصر مجموعة من رجال الدين إلى عقد مؤتمر في القاهرة لبحث موضوع الخلافة. انتهى بقرارات تفيد أن منصب الخلافة ضروري للمسلمين، كرمز لوحدتهم. لكن، لكي يكون هذا المنصب فعالا، لابد أن يجمع الخليفة بين السلطة الدينية والسلطة المدنية. هذا أمر لم يكن يتوافر لأي حاكم من حكام المسلمين في ذلك الوقت.

جاء كتاب الشيخ على عبد الرازق مساهمة منه في هذا الحوار. فهو يتساءل في كتابه: هل منصب الخليفة ضروري للمسلمين؟ لكن وراء هذا السؤال سؤال آخر أكثر صراحة. هل هناك شئ اسمه نظام الحكم في الإسلام؟ وهل الخليفة يستمد سلطاته من الله سبحانه وتعالى، أم من الأمة؟

القرآن الكريم وصحيح الحديث لم يتعرضا لموضوع الخلافة. وليس هناك إجماع بخصوص وجوب منصب الخليفة. عدم معارضة المسلمين لمنصب الخليفة، لا يعني

الموافقة على وجود هذا المنصب. لأن منصب الخليفة كان في الغالب مشوبا بالفساد ومدعما بقوة السلاح.

حرية الرأي لم تكن مكفولة للمسلمين بعد الخلفاء الأربعة الأوائل. كما أن كل الآراء الخاصة بشئون الحكم، كان من المستحيل إظهارها في الماضي.



لذلك لم تقم دراسات إسلامية جديدة جادة في شؤون الحكم مثل الدراسات التي قامت في اليونان أيام أفلاطون وأرسطو.

هنا يستمر الشيخ على عبد الرازق فيقول: في الواقع كان نظام الخلافة ضارا بالإسلام، ووباء بالنسبة للمسلمين، ومصدرا للشرور والفساد. لذلك منصب الخليفة غير ضروري. ولا يعتبر جزءا من الدين الإسلامي.

إذا كان الأمر كذلك، فكيف ظهر هذا المنصب إلى الوجود؟ وكيف دخل في روع المسلمين أنه شئ ضروري؟ للأجابة على هذه الأسئلة، رجع الشيخ على عبد الرازق إلى عصر الرسول.

الرسول كان يحكم كرسول مرسل من الله سبحانه وتعالى. كان يقوم بحل مشاكل مجتمعه عن طريق الوحي.


غار حراء حيث نزل الوحي أول مرة

إذا كان هناك نظام حكم أيام الرسول، فهو نظام حكم بدائي بسيط يصلح للمجتمع الإسلامي الأول. ولم تكن هناك مؤسسات سياسية معقدة كالتي نشاهدها اليوم.



الملك عبد العزيز وأخوته مع الشيخ مبارك الصباح حاكم الكويت، أمثلة للحكم البدائي

يستمر الشيخ عبد الرازق فيقول: الرسول لم يكن ملكا أو حاكما أو رئيس دولة. إنما أرسل ليبلغ رسالته للعالمين. وهي رسالة روحية خالصة. إذا وجدت سلطة بعد الرسول، فهي سلطة مدنية وسياسية. وليست سلطة روحية.



عندما انتشر الإسلام، تولى أبو بكر الشؤون السياسية للمجتمع الإسلامي الجديد.

كانت سلطاته تدعمها القوة. ونظرا لعلاقته الخاصة بالرسول وصلاحه وتقواه، اعتقد الناس أن منصب الخلافة، بمعنى خلافة رسول الله، هو منصب ديني وليس مدني. كل من اعترض على خلافة أبي بكر، أتهم بأنه خارج عن الإسلام.

منذ ذلك الوقت، أخذ المسلمون فكرة خاطئة عن منصب الخلافة. وشجع الحكام المستبدون فيما بعد على رواج هذه الفكرة. لأنها بالطبع تعمل في صالحهم. ولأنها تجعل الثورة عليهم خروجا عن الإسلام. وهذه جريمة في حق العالم الإسلامي. في الواقع الإسلام برئ من منصب الخلافة هذا.

الدين الإسلامي ليس لديه نوع معين من الحكومات. وليس في الدين الإسلامي ما يمنع من تدمير نظام قديم فاشل ، وبناء نظام جديد أفضل. مدعم بخبرات وتصورات إنسانية جديدة علمية ومجربة.

أثار كتاب الشيخ على عبد الرازق ثورة عنيفة في الأوساط الدينية والسياسية. فأوعز الملك فؤاد إلى هيئة من كبار علماء الأزهر لفحص كتاب الإسلام وأصول الحكم، ومحاكمة المؤلف بوصفه من علماء الأزهر.

حاكمته الهيئة وأصدرت حكمها بإخراجه من زمرة العلماء في أغسطس عام 1925م. وطلب من وزير الحقانية عبد العزيز فهمى فصل الشيخ على عبد الرازق من وظيفته.



عبد العزيز فهمي باشا

فأحال الوزير الطلب إلى لجنة في الوزارة لفحصه. لذلك، غضبت السراي، واعتقدت أن الوزير يماطل ويضع العراقيل أمام إجراءات فصل المؤلف.

حينئذ، صدر قرار بإقالة الوزير عبد العزيز فهمي من الوزارة. إلا أن إقالة الوزير اعتبرت إهانة لباقي الوزراء. فاستقال، إحتجاجا على هذا الفصل التعسفي، كل من



محمد علي علوبة باشا

محمد علي علوبة باشا،



وتوفيق دوس باشا، واسماعيل صدقى باشا.



توفيق دوس باشا، الثاني من اليمين بجوار مصطفى النحاس باشا

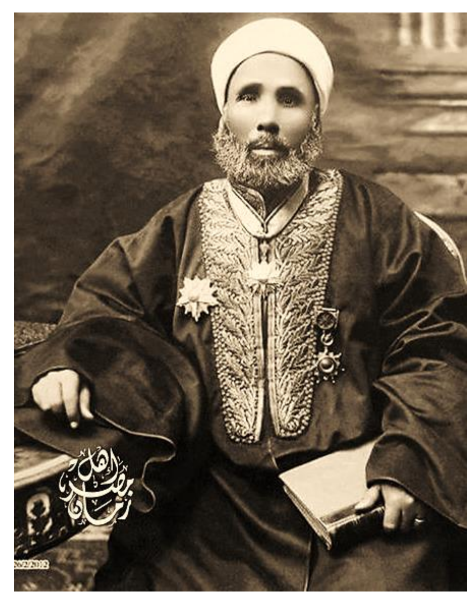
وعندما تم شغل المناصب الوزارية الشاغرة، فصل الشيخ علي عبد الرازق من وظيفته كما أراد الملك فؤاد. في نفس الوقت، قام مجموعة من الكتاب بالرد على الشيخ عبد الرازق.

منهم الشيخ رشيد رضا،



الشيخ رشيد رضا

والشيخ بخيت.

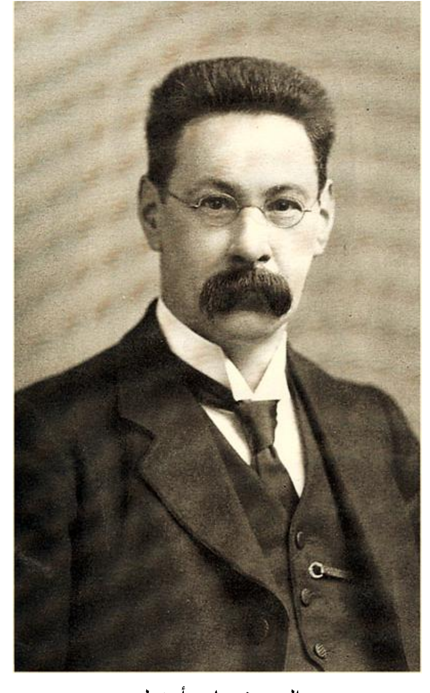


الشيخ بخيت

قال رشيد رضا، وهو أيضا من تلامذة الإمام محمد عبده، لكنه سلك سلوكا متحفظا في المناداة بالإصلح، إن هذه هي آخر محاولة من أعداء الإسلام لإضعافه وتفتيته من الداخل.

وقال الشيخ بخيت، في رده، إن ما يقوله غير المسلمين عن الإسلام، لا يجب أن يقبل. وخصوصا ما قيل عن الخليفة. هذا المارد الذي إن رآه أشجع الشجعان في أوروبا، حتى في منامه، هب مذعورا خائفا من نومه.

واتهم الشيخ بخيت علي عبد الرازق، بأنه اقتبس أفكاره عن الخلافة من السير توماس أرنولد.



السير توماس أرنولد

وقام بالتفنيد والتشكيك في آراء ومصادر الكتاب بالتطويل. مستشهدا بآيات من القرآن وبالأحاديث النبوية وفتاوي الإجماع.

هذا يوضح لنا كيف بدأ المفكرون الإسلاميون في عصر النهضة، عندما كانت مصر ليبرالية، في مناقشة قضاياهم بجرأة وشجاعة. والبحث عن حلول علمية لمشاكلهم المزمنة.

أنا هنا أدافع عن حرية الرأي وحق كل فرد في التعبير عن أفكاره دون خوف. لأن هذا هو الطريق الوحيد لكي نتعلم ونتقدم. الحقيقة المطلقة لا يعلمها إلا الله. ولا يبقى لنا سوى الاجتهاد والبحث عن الحقيقة النسبية، التي تظهر وتتلألأ بالاختلاف وتضاد الآراء. لأن الأفكار مهما كانت خاطئة، قد يكون بها شئ من الصحة والصواب. إباحة الحرية لكل الآراء على السواء، تشجع الرأي الصواب على الظهور وتعمق فهمنا له.

17

الفهرس

تعريف بالمؤلف



الاسم: محمد زكريا توفيق

المؤهلات: ماجستير في الرياضة البحتة من كلية الهندسة جامعة نيويورك 1973م

ماجستير في علوم الكمبيوتر من كلية العلوم جامعة نيويورك 1983م

دراسات في الرياضيات التطبيقية تعادل الدكتوراه من معهد كورانت بجامعة نيويورك

الخبرة: أكثر من 40 سنة في مجال الكمبيوتر حيث كان يعمل مديرا للتخطيط والبرمجة في عدة بنوك أمريكية منها البنك الفدرالى الأمريكي.

نشرت له العديد من المقالات العلمية والثقافية والسياسية في صحافة مصر والخارج

يعيش الآن في مدينة نيويورك
zakariael@att.net